الوهم

The Delusion

نقد كتاب

{ وهم الإله }

لـ " ريتشارد دوكنز "

Commentary on

(THE GOD DELUSION)

بقلم : سيّفي سيّفي

2021م

الفهرس

الفصل	الموضوع	الصفحة
المدخل		7
المقدمة		9
الفصل الأول	غير مؤمن بعمق	11
الفصل الثاني	فرضية الإله	37
الفصل الثالث	الدليل على وجود الله	97
الفصل الرابع	لماذا الاحتمال الأكبر هو عدم وجود الله	135
الفصل الخامس	جذور الدين	157
الفصل السادس	منشأ الأخلاق: لماذا نحن صالحون؟	201
الفصل السابع	الكتاب (الصالح) وأخلاقيات روح العصر المعاصرة	251
الفصل الثامن	ما هي مشكلة الدين؟ ما سبب كل هذه العدوانية؟	299
الفصل التاسع	الطفولة، الانتهاك والهرب من الدين	309
الفصل العاشر	الفجوة المهمة جداً	313
الخاتمة		341
المصادر		343

عزيزي القارئ..

قيل من قبل:- (رأيك صواب يحتمل الخطأ، ورأيي خطأ يحتمل الصواب).

فإذا كنت من أصحاب "الرأي الصواب" فالرجاء النأي عن قراءة هذا الكتاب، فمثلما يوجد متعصبين من أهل الأديان، فهنالك مثلهم بين الماديين والملاحدة.

من المؤسف والمحزن جدًا .. ومع شديد الأسى ..

أن يقضي إنسان ثلاثين أو أربعين عاما من عمره في البحث والدراسة والتعلّم واكتساب الثقافات المختلفة، ثم ..

يعتنق فكرة الإلحاد.. أو ينكر وجود خالق ..

بينما في المقابل ..

تتوصل بقية المخلوقات الدانية[1] وبكل بداهة

وهي لا تملك عقولا في الأصل،

ودون تفكير وجهد وسهر، أو تعب ودراسة،

ولا تعرف كيف تفتح كتاباً أو تقرأ كلمة،

الى ذات نتيجة الإلحاد!

1 نحن الحيوانات أكثر الأشياء تعقيدا فيما يعرف من الكون. (دوكنز. صانع الساعات الأعمى). صفحة 21.

ملاحظة:

ينتهج هذا الكتاب الأسلوب العلمي والفلسفي، إلا أن ذلك لا يعني الابتعاد عن احترام العقائد الدينية والمبادئ الروحية. لذلك نأمل مسامحة القراء الكرام حين مرور أبصارهم على صفات الاحترام الملحقة بالذات الإلهية أو ذوات الأنبياء. فحرية الكلمة والتعبير حقٌ مقدس للجميع.

المدخل

طالما بحث أنبياء وحكماء وفلاسفة العالم عن حلول لأزمات ومشاكل الشعوب وسعوا لرفع المظالم وتخفيف الآلام عنها، وطالما أن الأديان السابقة لم تحقق هدف السلام العام والأمان للناس، ظنَّ بعض العلماء والمفكرين أن في انتشار فكرة الإلحاد قد يكون حلاً يحقق هذا الهدف كما صوّرها السيد "ريتشارد دوكنز" في كتابه "وهم الإله"، معتبرين أن الأديان تحمل أفكاراً رجعية تسبب التخلف الفكري وتخدير العقول وتغييبها، وتصوروا أن عقل الإنسان وأفكاره هما منبع الأخلاق والأعمال الخيّرة؛ ومع إن إثبات صحة أو خطأ ذلك بحاجة الى أدلة عقلية وعلمية وفلسفية وتاريخية وأنثروبولوجية قد يطول البحث عنها ويصعب التحقق منها، إلا أن ذلك لا يعني الجلوس مكتوفي الأيدي والسماح للأفكار كيفما اتفقت بالسيادة على عقول البشر، فما لا يُدرك كلّه لا يُترك جلّه. فكم من فكرة عبثية استغلت جهل الناس وغفلتهم لتستولي على عقول الكثيرين منهم، ما كان من نتائجها إلا حروباً وطنية أو قومية أو عالمية وظهور نفوس وحشية حملت أقسى معالم الظلم والقسوة والعنف والاضطهاد منتُهِكة بذلك جلَّ مبادئ العدل والإنصاف والرحمة، شقّت طريقها للتسلط على رقاب البشر بالقوة والعنف، مستغلة ما ساد من فوضى فكرية وأوهام دينية لتؤسس سلطات ظالمة قامت على أعمدة احتقار الإنسان وعقله، أو مستندة على عصبيات جنسية أو دينية أو قومية تحت شعارات واهية ذات صبغات براقة ساقتها بمختلف أنواع الأكاذيب والحجج؛ فكانت النتيجة في كل مرة، خراب عقول العباد ومنشئات البلاد؛ وكلما اندثرت سلطة إحداها، ظهرت أخرى، مثلما حدث مؤخرًا من خراب شمل جميع بلدان العالم خلال الحربين العالميتين

وما جرّته من مآسي مرعبة على البشر . إن مثل هذه الأفكار العبثية المدمرة تكون في أول أمرها أشبه بفرغل ضبع تغري المتقرِّب منه للعب والمرح معه دون إدراك لما يجرُّه ذلك من خطر على حياته، وتُذكرنا بما حصل من كوارث جرّاء تبنّي مبادئ العِرق الأفضل والدين الحق والوطن المقدس وسيادة الدولة العلية وفداء القائد الأوحد والحزب القائد وغيرها من الأفكار والشعارات التي خرجت لتدمر الأوطان والشعوب على مر التاريخ . فطالما لم ينضج عقل "طفل البشرية" حتى اليوم - وهو في طريقه الى ذلك - فسيبقى هناك مجال لظهور مثل حصرم هذه الأفكار المدمرة وستجد من يتلقفها ويتبناها. فليس صانعو المخدرات ومخترعو الأسلحة ومثيرو الفتن ومشعلو أوار الحروب والداعين الى إبادة الأقليات، هم الأشرار فقط، بل الأخطر منهم مبتكرو جراثيم الأفكار الهدامة وفايروسات النظريات العبثية المدمرة للعقل والروح البشرية.

في قديم الزمان، كان تأثير دمار الأفكار المشوّهة لعقول الناس محدودًا، لكنها ازدادت شراسة وعنفًا خلال القرن العشرين وما سيليه مع ازدياد كميات العلوم والثقافة وتقدم سبل التواصل والاتصال وتصاعد فنون الطباعة والنشر؛ ومع ذلك، شاهدنا كيف عمَّ الأرض خراب ودمار وتصاعد أرقام ضحايا الحروب الى عشرات الملايين بعد أن كانت تعدُّ بالآلاف.

واليوم وبعد ازدياد موجة التطور التقني والتكنولوجي والنضوج العلمي وانتشار الأسلحة النووية، فلن يكون بالمقدور تقدير خسائر البشرية وحجم الدمار العالمي - إذا اندلعت حرب جديدة بين الأمم - فهذا أمر سيفوق مجال الحصر، وسيكتفى بتعداد المتبقي منهم لقلة أعدادهم.

المقدمة

اعتمدت على ما ورد في كتاب (نظرية المعلم)[1] في الأجوبة والردود على كتاب "وهم الإله" للسيد ريتشارد دوكنز، وعلى قانون الأضداد الطبيعي، وعلى مبدأ توافق الدين والعلم. كما رتبت فصول الكتاب حسب مسميات فصول كتابه، واستعملت (*الخط المائل*) في تمييز عباراته.

ركّز السيد "دوكنز" على فكرة استحالة اثبات وجود الله تعالى، وراح يستدل بآراء وأفكار بعض العلماء وحملة الأقلام ممن عجزوا بدورهم عن تحقيق ذلك بالأدلة العقلية والحسّية. فإذا اعتبر المؤلف إن ما توصلوا إليه هي نتائج قاطعة، فلماذا بذل كل هذا الجهد في اثبات فكرة أعيّت سابقيه من المفكرين؟ ألا يعتبر عجزهم دليلا يغنيه عن تأليف كتابه؟

بقي طوال صفحات الكتاب يتهكم على من يؤمن بوجود الله تعالى ويتحداهم في إثبات ذلك، وأرى أنه كان من الأولى به تقديم جواب لسؤال أبسط كثيرًا، ويثبت لقرائه موقع العقل عند الانسان؟ أي .. أين هو مكان العضو الخاص بعمليات التفكير الذي استعان به شخصيًا لتأليف كتابه . وله حرية طلب المساعدة والاستعانة بجميع ما كتبه علماء النفس والطب والفسلجة والأعصاب والفلاسفة الماديين والطبيعيين.

1 من مؤلفات كاتب هذه السطور في عام 2019 عن دار الرافدين للنشر.

وعد دوكنز بأن من يقرأ كتابه سينتهي به الأمر الى تبني فكرة الإلحاد، فقد قال بثقة:- *(إذا كان فعل هذا الكتاب كما أتصوره أنا، فان القارئ المُتدين الذي يفتح هذا الكتاب سينهيه وقد أصبح مُلحداً).*[1]

لذا .. سأبدأ القراءة وفي يدي قلم وورقة لتسجيل ملاحظاتي في انتظار التحوّل. فإما معه أو ضده. فالوقت من ذهب.

1 صفحة 9.

الفصل الأول
غير مؤمن بعمق[1]

أورد السيد دوكنز في مقدمة كتابه:- *(أن تنظيم الملحدين سيكون أشبه بمحاولة انشاء قطيع من القطط، شيء مستحيل حيث هم معتادون على التفكير المستقل وعدم الانصياع لأي نوع من السلطات الفكرية).*[2]

هل نفهم من هذا المثال، أنها دعوة لتبنّي مبدأ الفوضى ونشر التشتت وترك ما ينظم حياة البشر ويدبر أمورهم من قوانين وتشريعات؟ إذ لا بد لأي جماعة أو شعب من نظام يتبنوا قواعده وأحكامه ليحافظوا على حقوق الأفراد والمجتمع. أم ترى أن مقصده دعوة لممارسة ما كان من فوضى البدائية الأولى؟

يقدم كتابه لذكرى "دوجلاس آدامز"، فينقل عنه:- *(ألا يكفي النظر لروعة الحديقة وجمالها، لماذا يجب علينا الاعتقاد بأن هناك جنيّات خلفها أيضًا).*

مفهوم غريب! ولماذا علينا الاعتقاد بوجود جنيّات خرافية؟ يبدو أن صاحبه غفل أن وراء جمال الحديقة وتنسيقها أصابع يدّ بستاني خبير عملت بجهد وفن لتبدو بهذه الروعة والجمال، ونسي أنها لو تُركت تنمو على طبيعتها، لأصبحت غابة فوضوية تطغي عليها الحشائش الضارّة وتغطيها النباتات العقيمة غير المثمرة.

*****

1 صفحة 12
2 صفحة 8.

يبتدئ فصله الأول بعبارة مجتزأة من مجموعة رسائل للعالم الفيزيائي ألبرت آينشتاين، محاولًا الإيحاء بأن قائلها "يتبنى" فكرة الإلحاد حينما نقل عنه:- *(لا أحاول تخيّل إلهًا شخصيًا . تكفيني هذه النشوة التي تنتابني أمام هذا الكون المحكم على قدر ما تسمح به حواسنا البسيطة لتقدير عظمته)*.[1]

إن استهلال كتابه بهذه الجملة، هي مبادرة ذكية لمباغتة القارئ ومفاجئته حينما يعلم أن عالِماً فذًّا كآينشتاين غير مؤمن بإله. ولكن عند تفحّص العبارة، نجدها خالية من أية إشارة إلحادية؛ بل على العكس، تبدو اعترافًا ضمنيًا بوجود قوة كونية خالقة لم يستطع آينشتاين معرفة كنهها. ومع ذلك، يصرّ المؤلف على نسبة الإلحاد الى آينشتاين ويفسر استعماله لكلمة 'إلهًا' إشارة الى عدم أيمانه، وبأنه كما قال:- *(ليس المُلحد الوحيد الذي فعل ذلك)*.[2]

بالعودة الى ما كتبه آينشتاين من رسائل عديدة بخصوص الأيمان والدين، نجده على نقيض ما ذكره دوكنز، حيث يتضح أنه يؤمن بإله غيبي، لكنه لا يؤمن بإله شخصي، فالعبارة توحي أنه لا يؤمن بألوهية السيد المسيح(ع)، فالجميع يعلم أنه من أصل يهودي.

لقد أهمل دوكنز الكثير من أقوال آينشتاين المفصحة عن أيمانه، ولننقل بعضًا منها. قال:- (أؤكد أن الشعور الديني الكوني من أنبل وأقوى الحوافز على البحث العلمي).[3] وكذلك:- (إن العاملين بجد في الحقل العلمي هم وحدهم في هذا العصر المادي الرجال عميقو التديّن).[4] ويكمل:- (أن المعرفة العلمية يزيد الديانة الحقّة نبلًا وعمقًا، وإذا كان أحد أهداف الدين أن يحرر الجنس البشري إلى أبعد حدّ

---

1 صفحة 12.
2 صفحة 15.
3 أفكار وآراء. آينشتاين. صفحة 244.
4 نفس المصدر. صفحة 245.

مستطاع من أغلال الأطماع الأنانية والشهوات والمخاوف، فإن الفكر العلمي تمكّن أن يساند الدين بمعنى آخر جديد).[1]

ويستمر آينشتاين في القول:- (كلما تقدم التطور الروحي للجنس البشري، كلما بدا لي مؤكدًا أن الطريق الى التديّن الصحيح لا يسير في دروب الخوف من الحياة والخوف من الموت والتسليم الأعمى، بل إنه يقتفي أثر السعي الى المعرفة الواعية. وبهذا المعنى أؤمن بأن الكاهن يجب أن يصبح معلمًا إذا كان يريد أن يفي رسالته التربوية السامية حقّها).[2]

وعن سبب انتشار فكرة ازدراء الدين، قال آينشتاين:- (هل هناك حقًا تعارض لا يمكن تحاشيه بين الدين والعلم وهل يمكن أن يحب العلم الدين... لقد أثارت الإجابة على هذين السؤالين جدلًا كثيرًا قرونا من الزمان فوق ما أثارت من تشاحن مرير حقًا. ومع ذلك لا شك – في رأيي شخصيًا – أننا إذا تأملنا بالحياد المطلوب كلا السؤالين، لما وجدنا إلا جوابًا واحدًا بالنفي. وأن السبب الرئيسي الذي نشأ عنه هذا الاختلاف الشديد هو أن أغلب الناس يتفقون حول معنى "العلم" على حين أنهم يميلون الى الاختلاف حول معنى "الدين".).[3]

وعن دور الأديان الإيجابي في حياة المجتمعات، قال:- (إن الدين يتناول موقف الانسان تجاه الطبيعة بالمعنى الواسع ومن مهمته وشئونه وضع المُثل العليا لحياة الأفراد والجماعات كما يتناول العلاقات الإنسانية المتبادلة، ويحاول الدين أن يبلغ هذه المُثل العليا عن طريق التأثير التربوي للتقاليد وعن طريق إنماء وإذاعة أفكار أو قصص سهلة الفهم والتداول "الملاحم والأساطير").[4]

---

1 نفس المصدر. صفحة 251.
2 نفس المصدر. صفحة 251.
3 أفكار وآراء. آينشتاين. صفحة 252.
4 نفس المصدر. صفحة 252.

ويؤكد آينشتاين من جديد أن كبار العلماء كانوا متدينين:- (نجد أن أولئك الأفراد الذين ندين لهم بأعظم الأعمال العلمية، كانوا جميعًا مشبعين بالاقتناع الديني الصادق.)[1]

ويبدي أسفه لما نال الدين من إقصاء وعدم رعاية في الحياة العامة، فيقول:- (وتربية هذا المعين الفياض للعمل الأخلاقي هو أخصّ خصائص الدين عندما يَخْلص من شوائب الخرافات وبهذا المعنى يكوّن الدين جزءًا هاما من التربية ولكنه لا ينال إلا القليل من الرعاية وحتى هذا القليل لا يقدم بصفة منتظمة بما فيه الكفاية. إن المشكلة المخيفة التي يثيرها الوضع السياسي للعالم ، لها أثر كبير في الخطيئة التي ارتكبتها مدنيتنا إذ أقصت الدين، فلا خلاص للبشرية دون "ثقافة أخلاقية").[2]

وورد عنه أيضًا في كتاب آخر:- (إن العقل الإنساني صغير لدرجة أنه يعجز عن فهم هذا الكون، فكيف يفهم خالق الكون؟ إنها قضية أكبر من العقل. أي عقل!)[3].

وبهذا نلاحظ كيف تجاوز دوكنز الأمانة العلمية والأدبية لمباغتة القارئ وكسبه الى صفه حتى يقول في نفسه: إذا كان عالمٌ مثل آينشتاين ملحدًا غير مؤمن بإله، فما بالي حتى أناقش هذا الأمر وأجادل به؟ فما عليّ إلا اللحاق بهذا الركب.

ثم يتحول السيد دوكنز لينقل عن العالِم الفلكي "كارل ساغان" قوله:- *(لو أن ديناً ما، قديما أو حديثاً ، قد أصر بشدة على الدهشة بعظمة الكون كما كشفه العلم الحديث لحصل ربما على قدر كبير من التقديس).*[4]

---

1 نفس المصدر. صفحة 254.
2 نفس المصدر. صفحة 255.
3 الخالدون المائة. مايكل هارت. صفحة 47.
4 صفحة 14.

إذن... خذ ما يدهشك يا سيد ساغان ويثير استغرابك الشديد.

فرغم سعة علم ساغان في علوم الفيزياء والفلك والفضاء، إلا أن ذلك ليس دليلا باطلاعه على نصوص وعلوم جميع الأديان واللاهوت قديمها وحديثها؛ دليل ذلك، أن لا هو ولا جميع علماء الفيزياء والفلك الغربيين وغيرهم، انتبهوا لما ورد في الآية الكونية القرآنية في إشارته لثبات جرم الشمس في موقعها ودورانها حول نفسها في قوله تعالى:-

(والشمس تجري لمُستقر لها).[1]

And the Sun runs from its resting "stable" place.

أو حسب الترجمة الموثقة:-

And the sun runs (on course) toward its stopping point.

من المعلوم أن هذه الآية الكريمة نزلت في بداية النصف الأول من القرن السابع الميلادي، عندما كانت جميع الأمم تعمل بنظرية بطليموس لأكثر من أربعة قرون، والقائلة خطئًا بدوران الشمس حول الأرض ، وكل الظن أن علماء المسلمين أخفوا هذه المعلومة الفلكية ولم يجهروا بها لمخالفتها منطوق نظرية بطليموس السائدة وخشيتهم من اتهام القران الكريم بتقديم معلومات فلكية خاطئة. وهكذا تركوا قصب السبق لهذا الاكتشاف الرائع قرابة تسعة قرون للعالم الفلكي كوبرنيكوس ليكون المكتشف الأول لدوران الأرض حول الشمس في القرن السادس عشر.

يقول السيد دوكنز:- *(كل نهايات كتب ساغان تصيب نهايات الأعصاب وتسبب دهشة متعالية).*[2]

---

1 قرآن. يس 38.

2 صفحة 14

نعم هذا أمر صحيح لا يختلف عليه اثنان، فكتب ساغان مثيرة للدهشة والمتعة وباعه طويل في علوم الفلك والفيزياء، لكن تدخّله في علوم الأديان، هو نوع من تجاوز حدود الاختصاص، وكل الظن أنه سيرفض تدخّل أي قاض أو طبيب أو كاهن لمناقشته في مجال اختصاصه . ومع أن هناك مئات من علماء الفلك والفيزياء أبهروا العالم بعلومهم واكتشافاتهم، لكن السيد دوكنز مال الى جانب ساغان لاتفاقهما حول فكرة الإلحاد.

ثم يكمل دوكنز:- *(كُتب ساغان تسبب دهشة متعالية.. كتبي كذلك تطمح لنفس الشيء).*[1]

من المبكر الكلام عن كتبك يا سيد دوكنز، ولنقرأ لك عسى أن نندهش.

ينقل عن كاتب آخر:- *(أن الكون مادي بحت فإن العقل والجمال والعواطف والقيم الأخلاقية... قد انبثقت منه).*[2]

إن مسألة انبثاق قوى العقل ومشاعر الضمير والأخلاق من الطبيعة أو من الكون المادي، فرضية لم يثبتها العلم بعد - ومن الوارد إنها لن تثبت - لأنها مرتبطة بالمشاعر المعنوية غير الملموسة، ولأنها تنتسب لغير عالَم الماديات . ثم أن علماء الطبيعة والاجتماع وعلم الانسان متفقون أن الوعي والضمير والأخلاق قد ظهرت عند الانسان منذ زمن موغل في القِدم ، وهذا التاريخ البعيد يأخذنا الى العصور البدائية حيث كان الانسان يعيش في الصحارى والكهوف والأوجار والغابات . وهنا نتساءل: من أين للإنسان البدائي الهائم في بوادي الطبيعة مع تلك الوحوش المفترسة معرفة مشاعر الضمير والأخلاق والأدب والإيثار في ظل ذلك الواقع الهمجي الشرس؟ إن

---

1 صفحة 14.
2 صفحة 16.

مثل تلك الطبيعة البدائية يستحيل عليها تقديم مثل هذه المبادئ المعنوية ليتعلم الانسان منها التعقّل والوعي والجمال والعواطف والرحمة والمحبة والمسامحة ومساعدة الغير وما الى ذلك من الصفات الإنسانية اللطيفة، ففاقد الشيء لا يعطيه. فالقول أو الاعتقاد أن الطبيعة المادية غير العاقلة قدمت هذه المفاهيم والمشاعر المعنوية للإنسان، هو مفهوم مجانب للصواب في مختلف أشكاله، حيث لا تملك الطبيعة سوى عوامل الفوضى والقسوة والوحشية لتقدمها الى كائناتها للتعامل معها. كما أن الانسان لو أراد التعامل مع موجودات الطبيعة المادية، فعليه استعمال حواس جسده الخمس، إذ لا سبيل له غير ذلك، أما ما لا يمكن تحسسه، فيقع ضمن الأمور المعنوية غير المادية التي لا تخضع لمقاييس الحواس، حيث لا يمكن رؤية أو تذوق أو قياس العواطف والمشاعر المختلفة كالمحبة والحنان والرحمة والأخلاق، فهي خفية عن الحواس؛ فهذا العجز دليل على وجود أمور وقوى معنوية لا تخضع لقوانين المادة وموازينها ولا تتفق معها. وطالما يتعامل الانسان بها، فهو دليل على وجودها. إذن.. من أين جاءت هذه المشاعر المعنوية في ذلك الزمن المادي البدائي؟ لا بد أن جاءت من مصدر آخر.

قال في شرح معنى فكرة الإلحاد:- *(إن عواطف وأفكار الانسان تظهر من خلال عمليات متشابكة شديدة التعقيد في المخ).*[1]

السيد دوكنز عالِم بايولوجي 'علم الأحياء'، يستند في نتائج علومه على التجارب المختبرية؛ ومن كان بهذا المستوى من سلّم المعرفة، عليه عدم رمي الكلام على عواهنه. نعم هناك عمليات كيميائية وكهربية تحدث في المخ (الدماغ) يمكن ملاحظتها؛ ولكن

1 صفحة 16.

هل يمكن الجزم والقول إنها ذات قوة التفكير ومن ثم تصنيف أنواعها وتحديد تفاعلاتها والقول أن هذا التفاعل خاص بالتصور وذاك بالتفكير وهاتيك لتخزين المعلومات والأخرى لجمع الصور وأشكال الموجودات...الخ؟ فمن المعلوم أن لكل عضو مادي داخل أجساد جميع المخلوقات اختصاص محدد موكل بتأديته، كضخ الدم لعضلات القلب، وتنقية الأوكسجين للرئة، وهضم الطعام للمعدة، وصناعة الدم للكبد... الى غير ذلك. فأين تقع الأعضاء أو الأجزاء الخاصة بإجراء عملية التفكير وبأرشفة الصور وتصنيف المعلومات وتخزين مفردات الذاكرة وصناعة الأفكار؟ هذا ما لم يثبته العلم ولم يحدد مكانه العلماء مختبرياً حتى اليوم. أما التسرّع بالقول والإيحاء للقارئ أن موقعها في الدماغ داخل الجمجمة، فهذا نوع من الترويج لمعلومات غير مثبتة علميًا، وكل ما قدمه العلماء في هذا المجال حتى الآن، إنما هي مجرد ظنون وفرضيات موروثة.[1]

قال إن الملحد:- *(لا يؤمن أن هناك خالق يتسنط من وراء الكون).*[2]

نحن بصدد مناقشة جوهر مفاهيم الأديان، وليس أوهام وتصورات أتباعها أو ردود مخالفيهم، فمسألة تنصَّت الخالق أو استراق الملائكة للسمع، هي مفاهيم قديمة جاءت من تراث قديم بائد منذ أزمان الكهنة والآلهة.

قال: الملحد يؤمن:- *(ليس هناك روح تبقى بعد بلاء الجسد ولا معجزات).*[3]

---

1 سنأتي على مناقشة هذه الفكرة بتفصيل أكثر لاحقا.
2 صفحة 16.
3 صفحة 16.

سبق وطلبت منه في مقدمة الكتاب إثبات وجود العقل، وهي مهمة أسهل بكثير من إثبات وجود الروح، بدليل أن جميع النظريات والمكتشفات والمخترعات هي من نتاج قوة العقل وتؤكد على وجوده. فدعنا ننتهي من مسألة العقل أولًا، ثم نتحول الى مسألة اثبات بقاء الروح الأعقد منها. أما لو عدنا الى أقوال فلاسفة الإغريق واليونان والفرس والهنود والصين وغيرهم، لوجدنا اتفاقهم على وجود الروح ووصفها بأنها كائن مجرد غير مكوّنة من مواد الأرض أو عناصرها الطبيعية، لذلك يجزمون بعدم قدرة التعرف على شؤونها وكينونتها طالما أنها لا تعرف بالحواس.[1] ولكن دعنا نبقى على مطلبنا الأول في إثبات وجود العقل بالأدلة العلمية والمختبرية.

أما موضوع "المعجزات"، وهي تعني ظواهر مادية غير خاضعة لقوانين الطبيعة. فاذا كان مقصد المؤلف هو معجزات الأنبياء التي يرددها أتباع الأديان، فمن الصعب إثباتها عمليًا ومختبريًا بعد مضي مئات أو آلاف السنين، حتى لو كانت قد حدثت بالفعل؛ وطالما لم يتبق دليل عياني عليها، فالمفروض الكفَّ عن تقديمها أو الاستدلال بها لمن لا يؤمن أو يشكك بأخبارها، إضافة الى أنها أمور مادية ليس لها علاقة بصحّة الدعوات الدينية الروحية أو بطلانها، فلا علاقة منطقية بيّنة بين شق البحر أو المشي على الماء، بصحة أو خطأ دعوة تدعو لصلاح الأخلاق.

ثم يكمل بخصوص المعجزات:- *(لكن هناك الآن بعض الظواهر الطبيعية التي لم نفهمها بعد . وسنتمكن في المستقبل من تقديم*

---

1 ومن الحقائق النظرية التي لا تقدر الإنسانية وهي في مهدها على ادراكها عقيدة خلود النفس ووجود حياة أخرى بعد الموت. لذلك لم تظهر هذه العقيدة في الديانة اليهودية القديمة؛ ولم تظهر إلا أخيرًا بعد سبيهم في بابل في القرن السادس قبل الميلاد وأملهم في حياة أخرى، حياة العودة الى أرض الميعاد؛ فبدأت الأخرويات في الظهور وإمكانية حياة أخرى بعد الموت. (لسنج. تربية الجنس البشري. صفحة 129).

تفسيرات لهذه الظواهر الغير مفهومة بشكل كامل باستخدام القوانين الطبيعية).[1]

طالما يتحكم العقل البشري بالطبيعة وموجوداتها المادية، فمن الوارد - مع تقدم مستوى العلوم - اكتشاف الكثير من قوانين الطبيعة المستورة حتى الان . فلننتظر معًا دون اتخاذ قرار مسبق.

قال:- *(عندما نفحص بعمق أيمان العلماء الكبار في أيامنا والذين يبدون كمتدينين في بعض الاحيان، نرى بأنهم ليسوا كذلك).*[2]

أظن أن استمرار الاستدلال بأيمان أو كفر بعض العلماء، يبدو أمرًا قد بهت وخفت لمعانه ولم يعد يثير كثيرا من الاهتمام، بعدما نَسبَ زورًا للعالم آينشتاين ما نسب. أما التحقق من أيمان بعض العلماء، فمن المؤكد أن الكثير منهم يدّعون الأيمان تماشيًا مع الرأي العام السائد. والسبب أن ما يتوفر حالياً من علوم الأديان القديمة وتفاسيرها، أصبح مخالفاً للعلم بشكل واضح وعاجزاً عن مواكبة تقدم العقل البشري وثورته الفكرية، فما تركه مفكرو قدماء أتباع الأديان ومفسروها منذ مئات أو آلاف السنين من آراء وأفكار، لا يتوافق مع زمن الأقمار الاصطناعية ولا يمكن الاعتماد عليه، فلكل زمان رجاله وعلومه، ولم يعد الاعتماد على القصص القديمة والروايات الخرافية سبيلا مؤكدًا للعلم.

يذكر قول أحد أصدقائه:- *(أنه يذهب للكنيسة كإنجيلي كافر..).*[3]

هذا ليس بالأمر الغريب، فهنالك الكثير من أتباع بقية الأديان على هذه الشاكلة، ليس في المجتمع المسيحي فقط، بل وفي جميع مجتمعات الأديان القديمة، فلقد أصبح حضور المراسم والمناسبات

---

1 صفحة 16.
2 صفحة 16.
3 صفحة 16.

الدينية ظاهرة تقليدية عامة. والرأي أن مثل هذه الأمثلة الركيكة لا تستحق الذكر في كتاب علمي يدعو لتغيير مناهج التفكير الفلسفية فغالبية الناس يعرفونها.

قال:- *(احدى أشهر العبارات التي نقلت عن آينشتاين "علم بدون دين هو علم أعرج، ودين بدون علم هو دين أعمى").*[1]

هذه مقولة تدلّ على ارتباط وتوافق وثيق بين الدين والعلم، وليس العكس. ويبدو أن دوكنز قد أخفق في تناولها لينسب الإلحاد زيفًا الى آينشتاين، وتذكرنا بمقولة مشابهة لقول مأثور: (طائر الانسانية لا يمكنه الطيران بجناح المادية فقط، بينما جناحه الروحاني مكسور).

ينقل عن آينشتاين أيضاً ما ظنّه موافقًا لأفكاره:- *(أنا لا أؤمن بالإله الشخصي ولم أنكر ذلك أبداً...).*[2]

سبق وقلنا أن آينشتاين ينحدر من أصل يهودي، عاش في مجتمع مسيحي، لذا قد يُفهم من عبارته أيضًا، أنه لا يؤمن بفكرة تجسّد الخالق في جسد السيد المسيح(ع)، مثلما يؤمن بذلك ملايين البشر غيره. وهذه الفكرة ذكرها العالم نيوتن من قبل باعتباره مسيحيًا، وليس من المستبعد أن قرأها آينشتاين ثم كررها بعبارة مشابهة. فقد ورد عن نيوتن:- (... وقد رفض نيوتن هذه الفكرة باعتبار أن تأليه ثلاثة أقانيم في ذاتٍ واحدة ينتهك الوصية الأولى من الوصايا العشر، التي تنص على وجود إله واحد، هو خالق هذا الكون. ومن ثم فإن قبول 'نيوتن' منصبًا رسميًا في الكنيسة يعني إخلاله بما يمليه عليه ضميره، وذلك ما لا يمكنه فعله.).[3]

---

1 صفحة 17.
2 صفحة 17.
3 اسحق نيوتن والثورة العلمية. صفحة 100.

كما لا بد من الأخذ في الاعتبار أن اختصاص آينشتاين كان في علم الفيزياء ولم يكن فيلسوفًا أو عالم لاهوت أو في مصاف فلاسفة اليونان وحكماء الإغريق والمسلمين من الذين أجمعوا على وجود مهندس مبدع لهذا الكون. ويجب أن لا ننسى أن آينشتاين يقارن فيما بين يديه من علوم اليهودية التي ظهرت قبل حدود 35 قرنًا وبين علوم المسيحية التي ظهرت قبل ألفيّ عام، وكلاهما يرجعان الى أزمان قديمة جدًا. لذا فمن غير المنصف مقارنة ما ورد في كتب الأولين مع منجزات العلوم الحديثة التي يقف آينشتاين على قمتها، حيث ستكون كفّة الأخيرة هي الراجحة بلا شك.

ولنقرأ بالمناسبة ما قاله الفيلسوف 'كانط' في تعريفه لوجود الإله:- (لا ريب في أن شيئًا ما موجود بالضرورة . وهذا الشيء ما، واحد في كينونته، بسيط في أهميته، روح بطبيعته، أزلي في أمر وجوده، ثابت لا يتغير من حيث كيفيته، كاف بذاته كفاية مطلقة بالنسبة لكل ما هو ممكن وواقعي. إنه هو الإله بعينه ... إن نظام الطبيعة العرضي، الذي من الواضح تمامًا أنه كان يمكن أن يبنى بطرائق أخرى شتى، والذي تتجلى فيه مع ذلك المهارة العالية، والجبروت الكلي والرحمة، هذا النظام يقود الى [الاعتراف] بخالقه الإلهي).[1]

أما الفيلسوف ديكارت، فلقد قال من جانبه:- (ما من ريب، أن الله قادر على خلق جميع الأشياء التي استطيع أن أتذهنها بتمييز، وأنا ما حكمت يومًا، بأن شيئًا من الأشياء عسير عليه.).[2]

---

1 أسرار الفيزياء الفلكية. س. بريوشينكين. صفحة 457.
2 ديكارت صفحة 54.

يعود دوكنز ليقول بثقة:- *(آينشتاين يعرف تماما ماذا نوع الإله الذي ينفيه).*[1]

هذه طريقة عجيبة في تفسير أفكار آينشتاين، واصرار بمعرفة ما في داخل عقله! ولماذا لا نقول أنه لا يؤمن بمفهوم الحلول كما يصوّره ويفسّره كهنة المسيحية؟ فهذا نوع من الأيمان المُتوقع من عالم عبقري، ومن المؤكد أن أفكاره لا تتوافق مع طبيعة الفكر الديني التقليدي القديم.

من تعريفات المؤلف للإله، أنه:- *(يشرف على كل ما يحصل ويتدخل في أحداث ما خلقه هو بالأساس. فالإله يتدخل بشكل حميم في أمور البشر. يستجيب للصلوات ويغفر ويعاقب الأخطاء).*[2]

يحاول دوكنز هنا استغلال بساطة الأفكار الدينية القديمة وتفاسيرها لدعم فكرته معتمداً على جهل العامّة بجوهر حقيقة أديانهم من خلال استعماله سلاح العلم. وهذا نوع من التزييف في الطرح. فالرجل يحاور أفكار رجال الدين وينتقدها ويخطّئها، وكان من الأولى به محاورة أصل الفكر الديني، آخذًا في الاعتبار أن بعض علوم الأديان تتراجع في مفاهيمها وقوة تأثيرها مع تقدم أعمارها حتى تصل الى نوع من الخرافات والأباطيل، وقد تعود القهقري الى عبادة الأوثان الحجرية والأصنام البشرية، كما نلاحظ ذلك اليوم في اعتماد الناس على رجال الدين حتى في أدق شؤونهم الخاصة. إن قانون التردّي والتقهقر، يشمل كل ما هو موجود في الحياة من ماديات ومعنويات، فكل شيء خاضع لقانون الولادة والموت والاندثار حتى المعتقدات الدينية. وعلى كل حال، فلا يجب التغاضي أن هذه المعتقدات القديمة، فلقد كانت مفيدة في الأزمان الخالية، ولا شك أنها

---

1 صفحة 18.
2 صفحة 20.

دفعت ملايين البشر آنذاك الى أعمال الخير ومساعدة الاخرين وتأسيس الحضارات، أوحت بكل ذلك في معتقدات تستند على وجود معبود خالق يجازي ويثيب؛ كما إنها بذاتها هي التي منعت - من جهة أخرى - ملايين البشر عن تخريب مجتمعاتهم والتراجع عن ارتكاب مظالم كثيرة وجرائم خطيرة وشن حروب، مخافة وجود من يحاسبهم في يوم القيامة. كما أن الاعتقاد الديني لبعض الناس، بإرجاع ما يصيبهم من أمراض ومصائب وبلايا، الى ارتكابهم الآثام والخطايا، وإن الله يحاسبهم عليها بهذه النتائج المؤذية، كان له تأثير جيد، حيث دفع الكثير منهم للكف والابتعاد عن ارتكاب الأفعال الشريرة وتحسين تصرفاتهم. أفليست هذه المعتقدات القديمة كان لها فوائد ملموسة ساهمت في تحسّن تصرفات البشر؟

يعود لينقل بعض أفكار المتدينين ويحاول التقليل من شأنها:- *(الإله يقضي بسوء وحسن الأفعال ويعلم متى نفعلهم ’ومتى نفكر بفعلهم أيضا‘)*.[1]

مأرب دوكنز وغايته هو زعزعة أيمان البسطاء بحقائق أديانهم من المعتمدين في الأساس على آراء وتفاسير كهنتهم ورجال دينهم في محاولة منه لنشر فكرة الإلحاد بينهم. ومع علمنا أن الكثيرين منهم يقولون بأباطيل وخرافات، إلا أن ذلك لا يعطيه الحق بالدعوة الى أفكارٍ أكثر ظلامًا وفوضوية، فكم عانت الأمم من أفكار بشرية تبنتها وظنت أنها سامية ومفيدة وبذلت الجهد الجهيد لنشرها، لكنها انتهت بكوارث قومية وعالمية. وفي المقابل، كان لفكرة "غيب العلم الإلهي" أثر بالغ وكبير في المحافظة على سلامة المجتمعات القديمة وحتى البدائية منها وعلى حياة أفرادها وساهمت فيما بعد في تهيئة

1 صفحة 20.

ظروف ملائمة وهدوء نسبي للمفكرين والعلماء لتقديم إبداعات أفكارهم. فالأمن والأمان هما الكهف المتين والحصن المثالي للتفكير والإبداع والتطور.

أشار الى من يؤمن بوجود خالق ذكي للكون، أن هذا الإله:- *(ليس لديه أي اهتمام بأمور الانسان).*[1]

لو علمنا أن العلوم بشكل عام ظهرت قديمًا من كهنة الأديان ومن داخل جدران المعابد، وأن أوائلهم وروادهم ارتبطوا بشكل مباشر أو غير مباشر بالآلهة أو الأنبياء، وعلمنا أيضًا أن الانسان عاجز بتفكيره الفردي عن اختراق حاجز العلم المادي والغيبي المعنوي، إلا إذا تعلَّم من معلّم أكثر منه علمًا، "كاهن أو شامان أو معلم أو إله/نبي"،[2] نقل اليه مبادئ العلوم والمعارف؛ لعلمنا أن الله تعالى كان وما يزال مهتمًا بتعليم الإنسان من خلال ارساله الأنبياء.

يحاول دوكنز الاستفادة من مقولة آينشتاين الشهيرة لدعم مفاهيمه الخاصة: *(الله لا يلعب النرد)*،[3] لكي يقدّم وجبات فكرية يستحب مناصرو فكرة الإلحاد تناولها. بينما يمكن تناول هذه العبارة من ناحية أخرى، دليلا على اعتراف آينشتاين بوجود مهندس عاقل بارع كامل للنظام الكوني، وأن نظام هذا الكون لم يأت عن طريق الصدفة أو كيفما اتفق مثل تقلبات مكعب النرد.

يتساءل:- *(هل هناك إمكانية لتكون بداية الكون مختلفة عن التي كانت عليه؟).*[4]

هذا ما يسمى بأسلوب التعنّت الممل غير المُجدي؛ فلو قُدِمَ له سببًا أو جواب آخر، فسيعقبه بسؤال غيره:- ولماذا هكذا..! إن مثل

---

1 صفحة 20.
2 جاء شرح هذه النقطة الجوهرية بالتفصيل في كتاب "نظرية المعلّم".
3 صفحة 21.
4 صفحة 21.

هذا الجدل العقيم لا ينتهي مهما قُدّم للمعاند من تعاليل وأجوبة، وذلك لقدرته على اشتقاق سؤال جديد من ذات الجواب في كل مرة. ولو كان الله تعالى قد خلق الكون وفق طريقة أخرى، لطرَح الملحد أو المتشكك نفس ذات السؤال بصيغة أخرى . يذكرني هذا النوع من الجدل والمماطلة، بمقولة رائعة للسيد المسيح(ع) في وصف المعاندين والمجادلين:- (زمّرنا لكم فلم ترقصوا! نُحنا لكم فلم تلطموا).[1]

سبق وأثبتنا أن آينشتاين كان مؤمنًا بوجود خالق للكون ولم يكن ملحدًا. وسأنقل عن دوكنز، نصًّا ذكره بنفسه عن آينشتاين بخصوص أيمانه تأييدًا لذلك، قال:- (*الإحساس بأن خلف ما نعرفه ونحس به يوجد شيء ما لا نستطيع ادراكه، وهذا الشيء يمسّنا بجماله وسمّوه بطريقة غير مباشرة وبشكل يكاد يكون غير محسوس، هذا شعور ديني. وأنا بهذا المعنى مُتديّن.*).[2]

قدَّم دوكنز هذا التعريف عن آينشتاين، لكنه أشار الى تحفظه على عبارة: "*لا نستطيع ادراكه*". لأنه يأمل بواسطة العلم أن يتمكن الإنسان من معرفة غيب الله تعالى.

إن ما سمحت به قوانين الطبيعة منذ الأزل، قدرة الانسان على الإحساس بما يدخل تحت قدرات حواسه الجسدية فقط، أما ما لا يمكن الإحساس به، فلا يمكن معرفته، إلا إذا ترجم الى أفعال وتعابير وتصرفات وحركات، مثل العلم والمحبة والفكرة والكراهية والعداوة والعواطف... الخ، فليس كل ما نعجز عن إدراكه من قوى الطبيعة بالحواس، هو أمر منفيّ الوجود، كما هو الحال مع الإشعاعات غير المرئية، والموجات فوق البنفسجية، وأطوال موجات الضوء، والأصوات الخارجة عن نطاق حدود السمع البشري . فإذا كانت

---

1 إنجيل متى 17:11.
2 صفحة 21.

هناك قوى طبيعية يمكن التعرف والتعامل معها بالحواس، فمن المؤكد أن هناك ما لا يمكن معرفة كنهه ، وذلك حسب قانون الأضداد:- لكل شيء في الطبيعة شيء مضاد له يخالفه في الصفات. فالواقع يخالف الخيال، والموجود يخالف الخفيّ، والمحسوس يخالف غير المحسوس، والمعلوم يخالف المجهول، الى غير ذلك من آلاف الأمثلة.

ما يلاحظ أن دوكنز قد انشغل كثيراً بذكر حالات وأحوال العالم آينشتاين وخصص له صفحات عديدة من كتابه. إن عظمة وبراعة هذا العالِم العبقري في تطوير علوم الفيزياء لا ينكرها أحد، لكن محاولة تجيير معتقده الديني لصالح الفكر الإلحادي، غاية باطلة يُسهل كشف مقصدها.

*****

تحت عنوان جانبي *"احترام غير مستحق"* ، يقول منتقدًا:- *(أن الايمان الديني هو فكرة هشة وضعيفة أمام النقد ويجب إحاطتها بجدار سميك من الاحترام).*[1]

احترام عقائد الآخرين ومقدساتهم، أمر مستحسن يخضع لقوانين الأدب والذوق والأخلاق، وهذا لا يعني بالضرورة الأيمان بها . أما القول إنها هشة وضعيفة ، فكتب الأديان القديمة تكلمت بمستويات ناسبت مستوى العقل البشري في العهود القديمة، وتدرّج كلٌ منها واندرج تحت إطار شرح وتوضيح بعض المفاهيم الدينية والاجتماعية والعلمية على قدر حاجة المجتمعات في حينه . لذلك من الخطأ مقارنتها بما وصل اليه العقل البشري من توسع في هذا اليوم. وكان من المفترض بالسيد دوكنز قراءة الجديد منها ليتعرف على

1 صفحة 22.

تطور مراحل برامجها ودعواتها. يؤيد ذلك ما قاله الفيلسوف ليسنغ:- (الوحي يتم على فترات ، وطبقًا لنظام ، ووفقًا لقدرات الإنسانية ودرجتها في التطور. لا يُعطى الوحي دفعة واحدة كي تنتقل البشرية من طور الى طور آخر ، بل يسير الوحي جنبًا الى جنب مع تطور الإنسانية وارتقائها. فالوحي يحتاج الى تاريخ والى زمان وهو تاريخ الإنسانية وزمانها.)[1].

ينقل دوكنز عن ليسنغ قوله:- *(لقد اعتدنا عدم مناقشة الأفكار الدينية)*.[2]

إن عدم مناقشة الأفكار الدينية القديمة واعتبارها تابوهات محرّمة، هو منهج قديم في طريقه الى الزوال، فقد كانت طريقة متبعة في الأزمان القديمة بسبب قصور العقل البشري بشكل عام وعقول الكهنة بشكل خاص في فهم قوانين الطبيعة والنصوص الدينية معًا. كما أن منهج الاقتضاب والإيجاز في أصل النصوص الدينية، هو منهجٌ اتبعه الآلهة والأنبياء القدماء - فلم يشرحوا كبريات المسائل العلمية أو الفلسفية التي ورد ذكر رموزها في كتبهم التي انصبَّ هدفها الأساس على هداية الناس للأيمان وتحسين أخلاقهم والحث على توسيع مداركهم، ولم يرتكز على تفاصيل العلوم الطبيعية - وطالما كان من غير المجدي أو المفيد شرح مثل هذه الأمور المعقدة، كان من الضروري اختصار الشرح والتبيين بكلمات قليلة وبأمثال من الواقع المادي حتى يسهل فهمها واستيعابها، مثل: الجنّة ولذائذها، وجهنم ونيرانها، وبحيرة الكبريت، والشيطان ووساوسه ، وابليس

1 غوتهولد إفرايم ليسنغ. Gotthold Ephraim Lessing كاتب، وفيلسوف، وكاتب مسرحي، وناقد فني ألماني (22 يناير 1729-15 فبراير 1781) هو أحد أهم ممثلي عصر التنوير، مسرحياته وكتاباته النظرية أثرت بصورة كبيرة على تطور الأدب الألماني. (ليسينغ. صفحة 124).

2 صفحة 23

ومغرياته، ومفاهيم الخير والشر والطهارة والنجاسة... الخ، انتظاراً لبلوغ العقل البشري سنّ الرشد الذي هو اليوم قاب قوسين أو أدنى . وهذا الابتعاد عن الشرح أو لنقل القصور العلمي للسابقين دفع السيد دوكنز ليتساءل عن سبب عدم تطرّق البدائيين في أساطيرهم الى طريقة علاج السرطان، وشرح قوة الجاذبية، وآلة الاحتراق، والقوة الكهربية، أو التخدير، حينما قال:- *(ألا تعتقد أنه من الغريب ألا يقول أولئك الآلهة شيئًا عن تلك الأشياء المهمة والمفيدة؟)*،[1] متناسيًا عن عمد فرق كميات العلوم بين الزمانين.

ينقل مشيرًا الى نفسه:- *(من المدهش أن نرى كمية الغضب التي سببها ريتشارد عندما ناقش هذا الموضوع).*[2]

من المؤكد أن تثير جرأة أفكار السيد دوكنز، دهشةً بين بعض الناس طالما يعتمد غالبيتهم على تفاسير وأفكار دينية قديمة تخالف مفاهيم العلم الحديث، خاصة بين المجتمعات الدينية التي يحرّم كهنتها على أتباعهم التفكير والمناقشة.

ينتقد مدى درجة احترام مجتمعه للدين:- *(التديّن هو الطريق الأسهل للحصول على الإعفاء من الخدمة العسكرية في زمن الحرب.)*.[3]

هذا خلط واضح غير موجب بين الفكر الديني والقوانين الوضعية، فالأخيرة وضعت حديثًا من قبل مشرّعين وخبراء قانونيين وسياسيين وعسكريين، إنها قوانين نابعة عن أفكار بشرية قد يقرر المشرعون إلغاءها أو تحويرها أو تطويرها في أي وقت مناسب آخر. فلا موجب للمقارنة بينهما ومن ثم انتقاد التديّن.

---

1 دوكنز. سحر الواقع. صفحة 100.
2 صفحة 23.
3 صفحة 23.

يقول:- *(هناك تردد جبان من وسم فصائل متقاتلة بأسماء دينية).*[1]

وضع طبيعي أن تظهر من بعض أتباع كل فكر أو دين تصرفات مستهجنة أو أفكار باطلة تسيء الى معتقداتهم، فلكل دين مراحل حياتية متعددة تنتهي بانتهاء قوته الروحية؛ أما تردد البعض في تجريم هذه الفصائل، فمرد ذلك الى أنواع التوافقات في المصالح بين السياسيين ورجال الدين.

يكرر:- (*في الحروب الداخلية والوطنية... أرادوا تلطيف عبارة 'التطهير الديني' باستعمال عبارة 'تطهير عرقي').*

عودة للخلط في انتقاد الأديان من خلال تصرفات السياسيين ورؤساء الأحزاب الدينية، فحين انتفاء مبادئ الأخلاق ومصادرها، يُفسح المجال لظهور مختلف أنواع التعصبات المنبوذة.

يقول:- *(عند نشوء أي خلاف على موضوع له علاقة بأخلاقيات الجنس أو الانجاب فإنه من المؤكد أن قادة الفصائل الدينية من مختلف الاتجاهات سيكونون أحد الأطراف في لجنة النظر في هذا الخلاف).*[2]

إنه عرف ديني واجتماعي موروث، ومن الوارد أن يتغير مستقبلًا، ولا حاجة لتحويل دفّته لانتقاد الدين، فلا عجب من تدخل رجال الدين في مناقشة أمور الأخلاق والجنس أو الانجاب، لأنهم ما زالوا يعتبرونها من صميم اختصاصاتهم، فلقد عهدنا منهم التدخل في أكثر من هذه الأمور خصوصية، ومن المؤمل - أو لنقل من المؤكد - أن مثل هذا التدخل سيتوقف أو يصحّح مستقبلاً حسب تطور

---

1 صفحة 24

2 صفحة 24.

المعتقدات الدينية أو تقدم المناهج العلمية والأخلاقية والاجتماعية للشعوب، فالبشرية ما زالت تسير في طريق التقدم.

منتقداً:- *(هاكم مثالاً عجيباً على الامتيازات التي تتمتع بها الأديان.. في المحكمة العليا في الولايات المتحدة صدر الحكم باستثناء أعضاء الكنيسة في نيو مكسيكو من قانون يسري على الآخرين ضد تناول عقار للهلوسة).*[1]

هذه مسألة لا تقتصر على المجتمع الأمريكي فقط، كما أنه قانون وضعي بشري ليس من المنطق ولا من المقبول تعميم خطئه على بقية الشعوب والمجتمعات، أو نسبته الى الأديان بغرض انتقادها، فالمجتمع الأمريكي رغم ما هو عليه من تقدم حضاري، ما زال يقدس أحكام شريعة دينية عمرها 35 قرناً.

ينتقد:- *(أعضاء كنيسة يعتقدون بأنهم يتواصلون مع الله فقط عندما يتناولون نوعاً من شاي الهواسكا والذي يحتوي على عقار الهلوسة الغير قانوني والممنوع استخدامه).*[2]

مرة أخرى يتناول قانون وضعي بشري حديث لينتقد الأديان من خلاله، وهذا خلط مغلوط؛ فدعهم يعتقدوا ما شاءوا حيث من المؤكد أن ترجح كفة علم الطب والقانون مستقبلاً وتأمر بإلغائه.

يُكمل:- *(نلاحظ بأنه من الكافي أن يعتقدوا "أعضاء الهيئة" بأن المخدر يؤدي لتحسين تواصلهم. ليس عليهم ان يقدموا أي أدلة على ذلك).*[3]

محاولة أخرى لا موجب لها لتحميل أخطاء البشر على الأديان.

---

1 صفحة 24.
2 صفحة 24.
3 صفحة 24.

يؤيد استعمال مخدر نبات القنب:- *(بل على العكس من ذلك هنالك العديد والعديد من الاثباتات على أن نبات القنب الهندي يخفف من الآلام ومعاناة المصابين الخاضعين للمعالجة الكيميائية).*[1]

مرة أخرى، هذه مسألة خاصة بالعلم والطب والصيدلة، فالمختصون في هذه المجالات هم من يقرروا مدى نفع أو خطورة هذا النبات أو غيره على الصحة العامة، ومن المحتّم أن الأمر سيحسم مستقبلا مع تقدم الاختبارات والعلوم الطبية. أما ما يستشف من اعتراضه على منع هذا النبات، فقد تكون دعوة غير مباشرة للسماح بتناوله، علمًا أن قوانين غالبية دول العالم تسعى لمحاربة انتشاره لما له من تأثيرات سلبية واضحة على سلامة عقول وصحة وسلوك متناوليها، الى جانب ما تتكفل به دولهم من أموال في علاجهم.

ثم يقول:- *(لكن المحكمة العليا حكمت بأن كل الذين يستعملون نبات القنب لأغراض صحية مُعرضون للاتهام والملاحقة القانونية).*[2]

لا أرى موجباً لكل هذا الإلحاح والخوض في قوانين تشريعية خاصة ببلد ما، قد تصح أو تخطئ ، أو قد تلغى في وقت لاحق.

يبدو أنه لا يكفّ عن تناول موضوع المخدرات، فيكمل انتقاده لسماح القانون الأمريكي لجماعة دينية باستعمال نوع من المخدرات، بقوله:- *(هذا مثال للقوة السحرية للدين).*[3]

بالعكس.. هذا مثال لتخبّط القوانين الوضعية في تحديد مواقفها حينما تعتمد على موروث معتقدات رجال الدين وتترك قوانين العلم

1 صفحة 25.
2 صفحة 25.
3 صفحة 25.

جانبًا . كما أن في ذلك فائدة جانبية أخرى، فقد أعطتك فرصة لحشو كتابك.

يقول:- *(كنت أحد أعضاء لجنة... مكلفين بكتابة مقال لدعم الكاتب سلمان رشدي.. استبد بي الغضب وقتها من التعاطف ضد "إيذاء" مشاعر المسلمين).*[1]

إن المشاعر الإنسانية خاضعة لمستويات التربية والثقافة العامة التي من صفاتها التغيّر والتطور. ومع أن هذا التعاطف جاء صحيحًا، إلا أن الحكمة والتروّي في معالجة مثل هذه الأمور، أجدر من المجابهة المباشرة والاندفاع في التهجّم.

هاك خلط آخر بين معتقدات الأشخاص وحقائق أديانهم، قال:- *(لكن لو سأل أحدنا أحد المتدينين أن يبرر تدينه، لأتهمنا بأننا ننتهك "حرية الأديان").*[2]

هذا نوع من التمادي المتطرف والخلط غير الموجب، فمن السهل الحصول على أجوبة منطقية ولطيفة من بقية أتباع الأديان.

يكمل:- *(مجموعات مسيحية أقاموا دعوات قضائية ضد جامعاتهم لأنها فرضت قوانين منع التمييز فيها، مما يتضمن عدم مضايقة المثليين أو التحامل عليهم).*[3]

مرة أخرى. إنها أمور وتصرفات إدارية خاصة بالمؤسسات ليس لها علاقة بجوهر الأديان ولا علاقة لها بدعوته الى الإلحاد.

محاولاً تدعيم آرائه، يقدم مثالا بائسًا بالقول:- *(مثال الصبي الذي ارتدى "تي شيرت" يحمل عبارات من واقع الرأي العام "المثلية خطيئة ، الاسلام كذبة ، الاجهاض جريمة"!).*[4]

---

1 صفحة 25.
2 صفحة 25.
3 صفحة 26.
4 صفحة 26.

هذا مثال آخر لرأي فردي خاص جداً، لا يستحق ذكره لمناقشة فكرة الإلحاد.

يورد حالة فردية أخرى، عن رجل دين يطالب:- *(باعتبار الدين سببا كافياً لممارسة التمييز العنصري ضد المثليين والمجموعات الأخرى).*[1]

استغرب من هذا التكرار وحشو الكلام؛ واعتذر للقارئ الكريم، لكني ملزم بالإشارة اليه، فهو مثال فردي آخر لا يُعتد به، وحكمه القضائي متروك لمستوى ثقافة وأخلاقيات المجتمع.

يعلق على ما تبع نشر صور للنبي محمد(ص) في صحيفة جيلياند بوست سنة 2005 من أعمال اجرامية وتخريبية:- *(ونتيجة لذلك، خربت سفارات وقنصليات وقوطعت البضائع الدنماركية وتعرض الدانماركيين خصوصاً والغربيين عموما لتهديدات وأحرقت كنائس مسيحية...).*[2]

هذه تصرفات منبوذة يستنكرها غالبية العقلاء من ذوي الأخلاق، تعبّر عن مفاهيم دينية متطرفة خاطئة يقف ورائها متعصبون جهلة أو مستفيدون يلبسون قناع التديّن والتظاهر بمظهر الايمان أو يظنون أن الله تعالى بحاجة الى وكلاء للدفاع عنه وعن دينه عن طريق العنف.

يعلق:- *(أحد الأئمة في باكستان وضع مكافأة مالية بقيمة مليون دولار ثمنا لرأس 'الرسام الدنماركي').*[3]

كان لمؤسس جمهورية ايران الإسلامية قَدم السَبق في هذا المجال، عندما خصص ذات مقدار المبلغ لمن يقتل الكاتب سلمان

---

1 صفحة 26.
2 صفحة 28.
3 صفحة 28.

رشدي . إن أي تصرف مهما كانت نسبة تأثيره ضئيلة ضدَّ معتقدات المتعصبين والجهلاء ، إذا كانت بالكتابة أو التعبير أو الرسوم أو بأي طريقة عامة أو خاصة ، يشبه اللعب بعلبة كبريت بجانب مضخة بترول يتجنّبه الراشدون والعقلاء. ومع ذلك فتصرفات الفريقين مستهجنة.

سبق وذكرنا أن المؤلف يكثر من الأمثلة الفردية التي لا موجب لإدراجها في كتاب يراد به أن يقدم فكرًا فلسفيًا أو فرضية علمية، فعلى سبيل المثال يقول من جديد:- *(في أحد المُظاهرات في باكستان حملت امرأة ترتدي البرقع لافتة مكتوب عليها "ليبارك الله هتلر").*[1]

أقول: اترك الحكم على هذه الأمثلة للقارئ الكريم.

يقول:- *(لا أفهم سر هذه الامتيازات الغير منطقية التي يتمتع بها الدين في ما نسميه بمجتمعاتنا العلمانية... ما هو الشيء المميز للدين والذي يجعلنا نعطيه نوعاً فريداً من الاحترام؟).*[2]

يمكن نسبة ذلك الى العادات والأعراف والتقاليد الموروثة، ومن المناسب أن نورد رأي الفيلسوف ويل ديورانت عن أهمية المعتقدات الروحية والأديان السماوية، ففيه شيء من الجواب، قال:- (ربما كان من الضروري كذلك أن يكون بين الناس بعض الاتفاق في العقائد الرئيسية وبعض الأيمان بما هو كائن وراء الطبيعة أو بما هو بمثابة المثل الأعلى المنشود، لأن ذلك يرفع الأخلاق من مرحلة توازنُ فيها بين نفع العمل وضررِه الى مرحلة الإخلاص للعمل ذاته، وهو كذلك يجعل حياتنا أشرف وأخصب على الرغم من قصر أمدها قبل أن يخطفها الموت.).[3]

---

1 صفحة 30.
2 صفحة 30.
3 قصة الحضارة. ويل ديورانت. المجلد الأول. صفحة 4.

لقد جاء احترام الأديان منذ أقدم الأزمنة البدائية حينما وجد البشر تأثير أحكامها واضحًا على استقرار أحوالهم واستتباب السلم والأمان والمحافظة على الحقوق وتقسيم الواجبات وتماسك أفراد الأسرة والمجتمع، ساعد في ذلك، نشر أفكار التخويف والترهيب من العقاب بنار جهنم وضرورة تجنب مغريات 'الشيطان' ونشر مبدأي الرجس والنجاسة والتحذير منهما مما ساهم في المحافظة على نظافة الأجساد وتجنّب الأقذار والأوساخ وعدم انتشار الفايروسات والجراثيم قدر الإمكان . لكن المؤلف لم يعط أهمية لمشاعره الروحية، وقد يكون ذلك بسبب قلة اطلاعه على أدوار الأديان ، أو نوعاً من التغاضي والتجاهل المتعمّد، فغايته الرئيسة هي التقليل من شأن الأديان لمهاجمتها؛ لذلك فهو يدعو للتخفيف من احترامها ليفسح المجال ويمهد الطريق كي يزيل عائقاً قوياً من أمام سبل انتشار فكرة الإلحاد.

ها نحن قد انتهينا من قراءة الفصل الأول ولم نجد فيه شيء يلفت الانتباه سوى التكرار الممل والأمثلة البسيطة . ولننتقل الى الفصل الثاني ، علّنا نجد فيه ما يدهشنا أو يقنعنا.

الفصل الثاني
(فرضية الإله)[1]

يفتتح دوكنز فصله بمقولة لأحد الكتّاب، قوله:- *(دين زمن ما، هو التسلية الأدبية للزمن الذي يليه).*

قد يكون في ذلك بعض الصواب إذا أُخذت هذه المقولة حسب مقياس التطور التاريخي، فمن البديهي أن تعاليم وأحكام كل ديانة تالية تأتي لتناسب أحوال مجتمعها في وقته ولتوصل حلقات ماضي تراثه وعاداته بحلقة المنهج الديني الجديد، مثلها مثل المناهج الدراسية، إذ لا بد أن يعتمد منهج السنة الجديدة على قواعد منهج السنة السابقة، ولا يوجد تشريع ديني يخالف هذا التسلسل من حيث صلته بالمعتقدات والتراث الاجتماعي للشعوب، لذلك نسمع من البعض قولهم: إن الأديان 'تسرق' وتقتبس أفكارها من الأساطير والأديان السابقة لها. لكن، بما أن الأمم خاضعة لمبدأ التطور العلمي والاجتماعي، لذلك نجد شيئاً من البساطة أو الخرافة في تعاليم الأديان السابقة كلما توغلنا قدمًا في عمق التاريخ، خاصة اذا كان الدين قديم جدًا . لكن ذلك لا يدعو للسخرية بقدر ما يدعو الى تفهّم مبدأ التطور الاجتماعي والديني ، حيث تحرص الأديان على ربط الماضي بالحاضر والمستقبل.

وفي جرأة غير معهودة من عالم أو مُربي، يبدأ دوكنز بتعداد صفات إله العهد القديم وينسب إليه أبشع الصفات! فكتب:- *(لا جدال بأن إله العهد القديم هو من اسوأ الشخصيات الأدبية: غيور وفخور بذلك ويدقق بالتوافه وظالم وغير عادل ومتسلط قاسي ومنتقم*

1 الصفحة 31.

ومتعطش للدماء ومميت للأعراق وكاره للنساء والمثليين وعنصري وقاتل للأطفال والشعوب وقاتل للأبناء... ومصاب بجنون العظمة وسادي وماسوشي ونزوي وحقود شرس...).[1]

مرة أخرى .. كلما توغلنا عمقاً في التاريخ، تزداد نسبة ظهور أسماء أنواع الآلهة وصفات الشياطين والجن والعفاريت والمخلوقات الغريبة وأفعالها في أدبيات وأساطير الشعوب القديمة، وهذا ما تصطبغ به غالبيتها بشكل عام. فجميعها كانت تتأثر وتؤثر بعضها ببعض. وكتاب العهد القديم ليس بدعًا عما سبقه ولحقه، فلقد خاطب أطفال الإنسانية في تلك الأزمنة البدائية بما يناسب عقليتهم ومفاهيمهم التي ورثوها من أمم بدائية سبقتهم؛ لذا من الخطأ قياس مستوى أسلوب الخطاب القديم مع مستوياتنا الأدبية والفكرية في القرن الواحد والعشرين. يقول الفيلسوف اسبينوزا:- (كان العامة في حاجة، بالإضافة الى هذه القصص، الى قسس أو الى كهنة الكنيسة يعطونهم تعاليم تتناسب مع ضعف تكوينهم الذهني).[2] وهكذا ليس من القسط والعدل في شيء التهجّم وانتقاد أفكار وأساليب أديان ومعتقدات تلك الأمم القديمة، إذ تصعب محاولة فهم أسلوب لغاتهم ومضامينها المندثرة. كما علينا التذكّر، أن ما قدمه الكهنة والسحرة القدماء من معارف وعلوم - على بساطتها - كانت الأساس لما نحن عليه اليوم من تقدم علمي. يقول الفيلسوف ديورانت تأييدًا لذلك:- (كان السحر هو الذي أنشأ لنا الطبيب والصيدلي، وعالِم المعادن، وعالِم الفلك. ولئن بدأ السحر بالخرافة فإنه ينتهي بالعلوم).[3]

---

1 صفحة 32.
2 اسبينوزا. صفحة 210.
3 قصة الحضارة. ويل ديورانت. ج 1 صفحة 62.

إن ما ورد من صور العنف والقسوة التي مارستها الأمم القديمة فيما بين أفرادها ومع غيرها، كان أمرًا يتفق مع حياة البشر العنيفة آنذاك. ومع ذلك، فلقد نجح ذلك الاسلوب في خلق حضارات راقية، حيث لم يكن في الإمكان قيادة تلك الأمم بغير لغة القسوة والترهيب، مثلما هو الحال في تربية الأطفال حين تخويفهم بإنزال العقوبات الجسدية بهم، فحتى الأم الرؤوم والوالد الحكيم يتلفظان عبارات التخويف ويمارسان بعض أشكال القسوة في تربية أولادهما. يقول الفيلسوف ديورانت:- (من بين واجبات الوالدين أن ينقلوا الى الأبناء تشريع الأخلاق، لأن الطفل أقرب الى الحيوان منه الى الانسان؛ وإنه ليتلقى إنسانيته شيئاً فشيئاً كلما تلقى جانباً من التراث الخلقي والعقلي الذي خلفه له الأسلاف؛ والطفل من الوجهة البيولوجية سيء الإعداد للمدنية لأن غرائزه تهيئه للمواقف الرئيسية والتقليدية ولا تشتمل إلا على الاستجابة للمثيرات التي توافق الغابة أكثر من موافقتها للمدنية).[1]

لذلك لا يصح مقارنة ما ورد من صفات الآلهة القاسية في الأساطير والأشعار وكتب الأديان القديمة مع أسلوب التربية لهذا اليوم، فلولا عامليّ التخويف والترهيب من جهة، وعامليّ الثواب والجزاء من جهة أخرى، لهلكت تلك الشعوب ولما بقي لهم شأن يذكر في التاريخ البشري. ولهذا السبب توالى نزول الأديان الروحية لمواكبة تقدم عقلية البشر ومجتمعاتهم، لأن مستوى درجات الأخلاق يراوح متذبذبًا بين دنوٍّ وارتقاء بمرور الوقت، ولا يقف عند مستوى واحد .

1 قصة الحضارة ج 1. صفحة 48.

تناول الكاتب، الإله 'يهوه' بأقبح الصفات والسمات، كما تناول شخصية السيد المسيح(ع) بكثير من الاستهانة والانتقاص، وفي الحالتين لا يليق بمُفكّر يدّعي احترام آراء ومفاهيم ومعتقدات غيره، التلفّظ بمثل هذه الكلمات الدانية تجاه معتقدات نسبة كبيرة من أعداد البشر. إن قسوة صفات الإله يهوه وتعاليمه الصارمة جاءت لتناسب فترة انتقالية مرحلية حرجة للانسلاخ عن أحوال الشعوب والجماعات البدائية من عبادة الآلهة المتعددة الى عبادة الإله الواحد، فليس من السهل على البشر ترك معتقداتهم الدينية وما تربوا عليه خاصة في ذلك الزمن المتّسم بمبادئ القوة والعنف إلا باستعمال القسوة.[1]

أما السيد المسيح(ع)، فلقد جاء ظهوره بعد أن مهدت قساوة قوانين الإله يهوه أرض نفوس البشر وحرثتها استعدادًا لبذر بذور الأخلاق والروحانية والصفات الحسنة، لذلك نجد كلماته وأمثاله غاية في اللطافة واللين. ولو تفحصنا شخصيته وتأثيرها على حسن أخلاق أتباعه وما ضربه من أمثال وما ذُكر عنه في الأناجيل المقدسة، لوجدناه ذاتاً راقية لا يعلى عليها في مجالات الأدب والأخلاق والمسامحة، ومن المؤكد أن دوكنز تناسى أن أعناق ملوك الأرض وأباطرتها وغالبية شعوبها خضعت رقابها وثنيت ركبها لألفيّ سنة لهذا الاسم الجليل تقديسًا لذكراه؛ أما جرأته في هذه الاستهانة، فهي لجلوسه مطمئناً تحت خيمة قانون حرية الرأي والتعبير، وهذا يعود أصلًا الى التغيير والتطور الذي حصل في أخلاق الشعوب المعاصرة بقوة كلمة السيد المسيح(ع) عما كانت عليه في العهود البدائية القديمة.

1 لما وسع الرومان عبادتهم وآلهتهم مع امبراطوريتهم، ولما انتحلوا في الغالب آلهة المغلوبين بمنحهم حق المدينة، وجد شعوب هذه الإمبراطورية الواسعة أنفسهم، على وجه غير محسوس، ذوي جُموعٍ من الآلهة والعبادات واحدة في كل مكان، وهكذا لم تعرف الوثنية في العالم المعروف غير دين واحد بعينه. (جان جاك روسو. العقد الاجتماعي. صفحة 165).

أما أن يأخذ مسألة عزوبية السيد المسيح(ع) كمثلبة ومأخذٌ عليه، فلو دقق في تفاصيل حياة ذلك الشاب المبجّل الشهيد من فقرٍ وفاقة وأنه لم يكن يمتلك فراشًا يمدَّ جسده عليه أو مخدةٍ يضع رأسه فوقها، كما ورد عن ذلك:- (فقال له يسوع: "للثعالب أوجرة ولطيور السماء أوكار، وأما ابن الإنسان فليس له أين يسند رأسه.").[1] ولفكّر قليلا وتريّث قبل ترك بغلة قلمه دون لجام تهيم على صفحات أوراق كتابه، مع أنه يقول:- *(أنا لست مع الأذى والإهانة لأي انسان).*[2]

وعندما ينتقد رأي إحدى السيدات في مطالبتها:- *(الأطفال المسيحيين يجب أن يكونوا لطيفين ومطيعين وجيدين كما كان هو، "المسيح"؟).*[3]

فماذا يبتغي أمنية أفضل من هذه! هل يريد أطفالاً شرسين يعتدون على المارة وجيرانهم ويتمردون على أولياء أمورهم منفلتين طوال الليل والنهار يتلفظون بكلمات بذيئة ويمارسون أنواع الشرور والرذيلة أمام آبائهم وإخوانهم داخل وخارج بيوتهم؟ هل فكَّر أو تصوّر ما ستكون عليه النتيجة لو فسح المجال لفكرته في تربية الأطفال وتنظيم المجتمعات؟ من المؤكد أننا سنحصل على مجتمع سيء وسيكون هو أول المتضررين والمطالبين بضبط تصرفات أطفال جيرانه لأنهم كسّروا زجاج شبابيك بيته وحطموا سيارته.

يقول:- *(أي قدرات على الخلق بتعقيد كاف لتصميم أي شيء لا تأتي إلا نتيجة تراكم تدريجي طويل الأمد لعملية تطورية).*[4]

نعم، لقد خضع كل الوجود والمخلوقات لقانون التطور والنمو التدريجي، ومن المؤكد إن المخلوقات لم تكن في بدء خلقتها على ما

---

1 متى 20:8.
2 صفحة 30.
3 صفحة 32.
4 صفحة 33.

نشاهده من صورها الحالية، فلقد بقيت تتطور وتتغير أشكالها ومن ضمنها الإنسان منذ ملايين السنين، لكن ذلك لا يعني أن الكنغر كان سمكة، ولا كانت السلحفاة أرنباً، ولا الانسان كان قردًا، فكل منها كان مستقلًا في نوعه ومرّت عليه أحقاب طويلة خضع فيها لتغيرات مختلفة في شكله وصوره. فالمخلوقات تتزاوج فيما بينها من ذات الصنف، والانسان وحيوان القرد من صنفين مختلفين (Homo & Apes)، فلا يحصل بينهما اخصاب، (يصنف علماء البيولوجيا الكائنات الحية الى أنواع "جنس genus". يقال عن الحيوانات أنها تنتمي الى نفس النوع إذا كانت تتزاوج مع بعضها البعض منجبة ذرية تتمتع بخصوبة.)[1].

ولهذا فما يقال عن انحدار أصل الانسان من فصيلة أحد أنواع القرود، هو افتراض غير علمي، لأن كل ما في الوجود خاضع لقانون التدرّج والتطوّر، وفي مقدمتها هيكل الانسان وقدراته العقلية.

والغريب أن دوكنز يناقض نفسه في استثناء حيوان الخفاش من هذا الترتيب التطوري المسبق الطويل، في عملية تلقيه صدى الأصوات، ويقول إنه اكتسبها قبل ملايين السنين: (الخفافيش قد أنشأت تكنولوجيا تحويل "الارسال/التلقي" منذ زمن طويل وطويل، لعله يبلغ ملايين السنين التي تسبق نزول أسلافنا من فوق الأشجار.)[2] فكيف استطاع حيوانٌ بلا عقل إيجاد أو اختراع هذه الحاسة الدقيقة قبل ملايين السنين وتركيبها داخل جسده؟ بينما لم يطور الانسان - صاحب العقل والتفكير - حواسه لتكون قوية مثل بقية الحيوانات واحتاج لملايين السنين ليراكم معلوماته حتى يخترع جهاز الرادار؟

---

1 العاقل. يوفال نوح. صفحة 14.
2 دوكنز. صانع الساعات الأعمى. صفحة 53.

يقول أيضًا:- *(أي تطورات للقدرات الخلقية يجب أن تكون بالضرورة قد حصلت في وقت متأخر من تاريخ الكون. وبالتالي لا يمكن أن تكون مسؤولة عن تصميمه. بهذا المعنى فإن الإله سيكون وهماً... "وهم خبيث").*[1]

نفهم من هذا أن المؤلف حدد عمر بداية وجود الإله وظهوره ومعرفته، بعد حصول تطور القدرات الخلقية للإنسان! بينما تجاوز مسألة كيفية بداية الخلق وترك أمر ظهورها عائمًا دون توضيح. أما قوله إن التطورات قد حصلت في قديم الزمان، فهذا رأي علمي صحيح يؤيده علماء البيولوجيا (علم الأحياء) والأنثروبولوجيا (علم الإنسان)، لأن عملية الخلق قديمة جداً لدرجة أن لا يمكن سبر أغوارها ومعرفة تاريخ حصولها، بعدما تلاشى كل أثر جيولوجي لها في إمكانية تفحّصه، وانقطعت كل الدلائل الموصلة لفكِ رموز كيفية بدء الخلق، ولم يتبق للفلاسفة والعلماء سبيل لمعرفة ذلك التاريخ القديم، إلا باستعمال العلم والتفكير والاستنتاج العقلي.

أما قوله عن الإله أو الآلهة:- *(وبالتالي لا يمكن أن تكون مسؤولة عن تصميمه)*. فهذه مسألة بحاجة الى وقفة وتأمل، لأنها تحمل معنيين مختلفين، فإذا كان مقصده هو الآلهة القديمة التي وصلتنا أخبار أساطيرها من آثار العراق ومصر والصين وغيرها، فمسألة خلقهم للكون بجميع نجومه وكواكبه ومخلوقاته، هو أمر غير وارد ولا معقول بالطبع، ولا يتفق مع المنطق والعقل السليم. أما إذا كانت إشارته الى الخالق الغيبي الموجد، فهذا أمر ما زال متداولا بين الفلاسفة بين أخذ وردّ .

---

1 صفحة 33.

وقوله أن الوجود قد حصل نتيجة "*تطورات للقدرات الخلقية*"، أي أن الأحياء والموجودات قد طوّرت نفسها بنفسها دون تدخل قوة عليا - فهنا نراه يمتنع عن استعمال مصطلح 'الصدفة' بشكل مباشر ويستبدلها بهذه العبارة ذات الثلاث كلمات - لعلمه أن مفهوم الصدفة وفرضيتها في عملية الخلق، أمر واضح البطلان. فيشاركنا الفيلسوف آرنست رينان في مثال يوضح نفي مبدأ الصدفة في ايجاد الكون بشكل أنسب، حينما يقول:- (لا يمكننا نعت هذه المجموعة من القوى العليا في الكون، إلا بنعت واحد، هو أنها صالحة ، لأنها لو لم تكن كذلك، لزال الكون الموجود منذ الأزل بكامله. ولنفرض أن مؤسسة مصرفية وجدت منذ الأزل ، فلو كان في أساساتها ضعف، لكانت تعرضت للإفلاس آلاف المرات . ولو كانت حصيلة العالم غير مضمونة الربح أبدًا لصالح المساهمين، لكان الكون قد اندثر منذ زمن بعيد).[1]

صحيح أن قانون التطور كان فاعلًا أوليًا في وجود الموجودات، لكنه من المستحيل أن كان له عقل فكّر به ونظّم تكوين برمجة أجساد الموجودات وأمور الكون أو الطبيعة وهندّسها بهذا الإبداع . فالحيوان أو الحشرات لا تملك عقولا لتفكر بها، وكل ما تتمتع به هي غريزة متوارثة ومكتسبة اكتسبتها خلال ملايين السنين. كما أنه لا يمكن أن تكون الطبيعة المحرومة من العقل والتفكير، هي الأصل و(الكل)، بينما يتمتع فرعها وجزءها (الانسان) بالعقل والحكمة، فيتحكم بها ويكسر قوانينها ويطير مخترقًا جاذبيتها ويغيّر هيئتها وشكلها في تحويل مجاري أنهارها واختراق جبالها وتجفيف بحيراتها واستبدال

1 آرنست رينان. صفحة 117.

مواقعها وغير ذلك من الأعمال الجبارة ، بينما تقف هي راضخة دون اعتراض.

من هذا كان لا بد من افتراض وجود تفاعلات كيمياوية معقدة ومهيئة مسبقًا من قِبل عقل أعظم، انتابت عناصر تربة الأرض وتفاعلت بوجود عوامل الحرارة والماء والأحماض والغازات، فساهم كل ذلك في الخلق والإيجاد بقانون مرتّب مسبقًا ممهدًا لعملية الظهور والتحول والتغيير والتطور في جميع أرجاء الارض.

نعود للإجابة على السؤال: من أين جاء هذا القانون الطبيعي المبرمج كيميائيًا كان أم فيزيائيًا؟ إذ لا بد أن كان هناك من سبق وهيئه ونظّمه؟ حيث لا وجود لصدفة تلعب النرد .

لهذا نجد السيد دوكنز يفترض في تبرير ظهور السحالي وبقية الحيوانات والنباتات على جزر جالاباجوس البركانية[1]، بأنها سبحت ما يقارب مسافة 1000 كيلومتر لتأتي وتسكن هذه الجزر؛ هو تعليل ناقص وبعيد عن العقلانية لا يمكن تقبله، حيث ترك مسألة نشوئها البدئي في أصل مواقعها دون تعليل:- *(كانت جميعها جزرا شابة "عمرها عدة ملايين من السنين فقط"، تكوّنت من البراكين التي ثارت من أعماق البحر . وهذا يعني أن كل أنواع الحيوانات والنباتات على الجزر لا بد أنها أتت من موضع آخر* ***يفترض*** *أنه أراضي أمريكا الجنوبية).*[2]

إن مسألة سباحة السحالي أو أي نوع من الحيوانات البرية مسافات شاسعة بهذا المقدار الهائل وسط مياه المحيط، وقدرتها على

---

1 لجزر جالاباجوس أهمية تاريخية لاحتمال أنها هي التي ألهمت شارلز داروين بالأفكار الأولى عن التطور عندما كان عضوًا في بعثة على HMS Beagle، قام بزيارتها عام 1835. وقد كانت مجموعة من الجزر البركانية في المحيط الهادي بالقرب من خط الاستواء، على مسافة 600 ميل غربي أمريكا الجنوبية. (دوكنز. سحر الواقع. صفحة 68).

2 دوكنز. سحر الواقع. صفحة 68.

تحديد اتجاه مسارها بهذه الدقة، هو ضرب من ضروب الخيال. فإذا استثنينا طول المسافة، فماذا عن تجاوز خطر وحوش البحار؟ وماذا عن تغيير اتجاه الرياح واضطراب العواصف وشدة هياج الأمواج؟ إذ من المؤكد أنها لم تصل بين ليلة وضحاها. فهل يُعقل مثل هذا التعليل!

أما إذا قلنا أن هناك مثالًا يؤيد قوله، في هجرة الطيور والأسماك موسميًا لآلاف الأميال، فهذه الحيوانات تتبع تغيّرات درجات حرارة الهواء والماء باتجاه ثابت شمالًا وجنوبا ؛ بينما في حالة السحالي لا يوجد تحديد لاتجاهها بين الشرق والغرب.

مثل هذا التعليل غير المنطقي، ينطبق أيضًا على ما قاله أيضا في تأييده لتفسير علماء الحضارات والأحياء في انتشار الجنس البشري؛ حيث ينسبون - على سبيل المثال - سبب تواجد البدائيين في جزر نائية مثل كوبا وجزر سليمان البعيدة بمئات الأميال عن أقرب سواحل اليابسة، بأنهم وصلوها بطريقة ما عبر البحار! (الى الجنوب بعدة آلاف الأميال، لدى الماوورريين من سكان نيوزيلندا - الذين وصلوا على زوارق الكانو واستقروا هناك قبل قرون من قدوم البحارة الأوربيين.)[1] ويكفي القول لنفي هذا الافتراض، عدم توفر تقنيات ملاحة متقدمة قوية ومتينة في ذلك الزمان. أما سبب هذا الاعتقاد، فإن العلماء ما زالوا يجدون في قصة التوراة، الأصل المقبول لتفسير عملية بداية خلق البشر؛ بمعنى أنهم يتقبلون فكرة ظهور الانسان في منطقة محددة من الأرض ومن ثم بدأ في التكاثر والانتشار ليسكن بقية أرجائها.

1 دوكنز. سحر الواقع. صفحة 215.

لهذا فالتفسير الأكثر قبولًا، هو ظهور جميع المخلوقات ومن ضمنها الإنسان، كان في أصل خلقته من جرّاء تفاعل تربة الأرض كيميائيا. وهذا يعلل سبب تواجد البشر والحيوانات والنباتات وانتشارها في جزر بعيدة متفرقة منقطعة لم يتم اكتشافها إلا في القرون الأخيرة.

أما جواب قوله: نستنتج أن هذا الإله سيكون "وهمًا". فحسب قانون التدرّج والتطور الطبيعي، فإن كل ما بين أيدينا من علوم ومخترعات كانت قبل ظهورها نوعا من أنواع الخيال والوهم، وقوبلت في أول أمرها بالاستهزاء حتى من قبل علماء لهم مكاناتهم العلمية، لكنها احتاجت وقتاً طويلًا للتبلور والظهور من عالم العدم الى عالم الشهود ؛ ونعلم جيدا أن هناك كميات من العلوم والاختراعات غير المكتشفة ما زالت في علم الغيب وقد تظهر مستقبلا؛ وبذلك هل يمكن إطلاق صفة 'الوهم' على هذه المخترعات المستقبلية لأنها ما زالت في طور الوهم والخيال؟ لهذا لا بد أن يكون هناك مُبرمج عاقل وضع قانون التطور الطبيعي. وبهذا ففرضية تكوين الشيء لذاته بذاته أو بالصدفة هو نوع من أنواع الوهم.

إن منطق الرجل الجازم في نفي مسؤولية الإله الأعظم عن الايجاد والخلق، هو نوع من أنواع الرجم بالغيب لا يتفق مع جوهر الفكر المادي الطبيعي المعتمد في أساسه على التحقيق والتحليل والتجربة.

ثم يهاجم بثقة، المعتقدين بوجود إله، وينسب أيمانهم الى التقاليد الشعبية والرؤى الشخصية منذ تطور العبادة البدائية والآلهة المتعددة

امتدادًا الى آلهة الإغريق ثم *(الوصول للتوحيد في اليهودية ومشتقاتها كالمسيحية والإسلام)*.[1]

هذه الثقة الزائفة هي نوع من التزوير وبعيدة عن الأدلة العلمية، حيث ما زال الفلاسفة والعلماء منقسمون بين حقيقة وجود الله تعالى من عدمه، أو إذا كانت الأديان من عند ذات غيبية أم هي تقاليد شعبية واختراعات بشرية. بينما نلاحظ السيد دوكنز ينفي مفهوم الغائية بجرّة قلم بسيطة مستندًا على دليل وهمي غير مثبت، ضارباً بعرض الحائط كل ما قدَّمه الحكماء والفلاسفة في هذا المجال من أدلة على وجود الله تعالى، امتداداً من فلاسفة اليهود واليونان والإغريق والمسيحيين والمسلمين ومجموعات كبيرة من علماء الطبيعة المعاصرين.

أما كلامه عن آلهة الإغريق والرومان وبقية الأمم والتشكيك بحقيقة وجودها وتشويه فكرتها؛ فلو علمنا أن مصطلح "الإله" سبق واطلقها القدماء على أنبياء أو قديسين أو رجال عظماء قدموا أعمالاً جليلة لشعوبهم اختفت معظم آثارها ولغاتها؛ يؤيد ذلك الفيلسوف اسبينوزا بقوله:- (لقد ضاعت تقريبًا جميع أسماء الفاكهة والطيور والأسماك وأسماء أخرى كثيرة على مر الزمان... فقد محا الزمان، الذي يلتهم كل شيء، كل العبارات والأساليب الخاصة التي استعملها العبرانيون تقريبًا من ذاكرة الناس.)[2] لقد كان هذا الفراغ التاريخي فرصة سانحة ليأخذه المتشككون والملحدون لوضعه بين ثنايا واجهة ادعاءاتهم. لكن ما يثبت أن أصل معنى كلمة (إله أو آلهة)، بأنه (نبيّ أو قدّيس) عند الأمم البدائية القديمة، وأنها لا تعني الخالق الأعظم، ما ورد من نصّ تاريخي في الإنجيل في وصف حادثة حصلت

---

1 صفحة 33.
2 اسبينوزا صفحة 243.

للحواري بطرس بين أهالي جزيرة مليطة الذين لجأ اليهم بعد غرق السفينة التي كان على متنها:- (فجمع بولس كثيراً من القضبان[1] ووضعها على النار، فخرجت من الحرارة أفعى ونشبت في يده... فنفض هو الوحش الى النار ولم يتضرر بشيء ردي... فإذ انتظروا كثيراً ورأوا أنه لم يعرض له شيء مضرّ، تغيروا وقالوا: هو إله).[2]

وجاءت اشارته التي يكررها الكثيرون عن ارتباط الأديان الابراهيمية الثلاث بأفكار الأديان والأساطير القديمة، قولهم إنها 'تسرق' من بعضها البعض.[3] فلو التفتنا الى المناهج العامة للتربية والتعليم الحديثة، لرأينا استناد منهج كل سنة لاحقة على ذات أسس ما قدَّمه معلمو مناهج السنين السابقة. فهل يصح اطلاق صفة السرقة على المنهج العام طالما تستند مراحله على بعضها البعض؟ بالعكس، بل هو دليل على ترابط المناهج السنوية وتوسعها في ذات المنهج التربوي التعليمي العام.

وبالمثل، فكل شريعة سماوية تنسخ أو تغيّر أو تضيف حكمًا أو تعليمًا جديدًا الى سابقتها حسب حاجة المجتمع ونسبة تطوره ومقداره. فالمنهج الروحاني الإلهي واحد ومتحد في جميع رسالاته السماوية، وجميعها تدعو الى الفضائل الحسنة والأخلاق الطيبة وتأمر بترك المعاصي والأفعال السيئة. إن هذا التشابه في التعاليم الأخلاقية والروحية، هو دليل اتحاد الشرائع وتوافق مناهجها وليس دليلًا على السرقة أو الاقتباس.

---

1 أعواد الحطب.
2 سفر أعمال الرسل، الاصحاح 28، الآيات 3-6.
3 صفحة 33.

يقول:- *(ليس من الواضح لماذا يعتبر الانتقال من نظام تعددي للآلهة الى التوحيد خطوة تطورية بشكل بديهي واضح لا يحتاج للنقاش؟).*[1]

مثلما كانت مرحلة ظهور النبي آدم(ع) علامة على بروز فكرة انتماء البشر الى أصل واحد، وبداية ظهور الوعي وقوة التفكير عند الانسان؛ ومثلما كان ظهور النبي إبراهيم(ع) إشارة الى ظهور سلسلة الأنبياء من نسله، وبداية ظهور فكرة استبدال الأضاحي البشرية بالحيوانات؛ ومثلما كان ظهور النبي موسى(ع) مرحلة جديدة للانتقال من عبادة تعدد الآلهة الى عبادة الإله الواحد؛ ومثلما كان ظهور السيد المسيح(ع) كأول من قدَّم مفهوم خلود الأرواح، (لذلك كان المسيح هو أول من بشّر بخلود النفس بطريقة عملية تدعو للثقة.)[2] كذلك كان التدرّج في التشكيلات الاجتماعية الأولى من الفردية الى العائلة الى العشيرة الى القبيلة الى الأمم، لزامًا أن يصاحبه في بداية الأمر تكاثر أعداد آلهة الشعوب الذي انصهر فيما بعد بالتدريج لتتقلّص أعدادها تمهيدًا لظهور فكرة عبادة الإله الواحد في اليهودية ثم المسيحية والإسلام. إنه سبيل التطور الروحاني الذي رافقه التطور المادي التاريخي للشعوب.

ثم يستمر متصورًا، فيقول:- *(أن التوحيد بدوره سيصاب بنفس نكبة إنقاص عدد الآلهة واحدًا آخر ليُصبِح إلحادًا.).*[3]

إن سبب مثل هذا الظنّ، هو ما يشاهده عقلاء الفكر المادي من ضعف قوة روح الأديان القديمة عمومًا وعجزها عن تقديم علاج ناجع لأمراض البشر الاجتماعية والأخلاقية، بل وفي جميع مناحي

---

1 صفحة 33.
2 ليسنغ. تربية الجنس البشري. صفحة 142.
3 صفحة 33.

الحياة التي تزداد تعقيدًا يومًا بعد يوم. مما أعجز حكماء الأرض عن مدِّ يد المساعدة وكبَّل أيادي كبار السياسيين عن تقديم أي حلول إيجابية مفيدة، فكلما حاول أولئك أو هؤلاء إنقاذ البشرية من السقوط في هاوية التردّي بجميع نواحيه، واجهتهم مشاكل أكبر وأضخم. فمثل هذا الانحدار الأخلاقي والاجتماعي العام، تتضح صور تكرار حدوثه بين صفحات التاريخ المتباعدة، فلا يحصل إلا حينما تبدأ حضارة سائدة بالزوال والاندثار وبدء ظهور حضارة جديدة ، أقل سماتها الحالية امتزاج وتشابك مصالح الشعوب عمومًا، مما يحتم ظهور فكر عالمي لتوحيد البشر عمومًا تماشيًا مع التقدم الجاري، (فالحضارة كالكائن العضوي الحيّ، لها ما لكل كائن حيّ من قانون ميلاد ونمو وانحلال وفناء، ولكل حضارة طفولتها وشبابها ونضوجها وشيخوختها، "فهي تنشأ، كما يقول اشبنجلر، في اللحظة التي تستيقظ فيها روح كبيرة، وتولد في بقعة من الأرض محددة تمام التحديد، ترتبط بها ارتباط النبتة بالتربة. والحضارة تموت حينما تحقق هذه الروح كل ما بها من ممكنات على صورة شعوب، ولغات، ومذاهب دينية، وفن، ودول سياسية، وعلوم، فترجع حينئذ الى الحالة الأولى البدائية".).[1]

لقد ظهر هذا الظن الواهم نتيجة اعتقاد الماديين بأن الأديان صناعة بشرية، وبالتالي إمكانية ازاحتها وابعادها وقتما تنتفي الحاجة إليها. لكنه من المهم أن نعلم أن حقيقة الأديان هي هبات غيبية روحية تأتي من خارج العالم المادي لا من داخله، فالطبيعة لا تقدم أفكارًا روحية أو معنوية، لأنها ببساطة خلو منها، ففاقد الشيء لا يعطيه؛ بمعنى إن الانسان عاجز عن الاتيان بفكرة معنوية فوقية بِكر، لا من

1 من تاريخ الإلحاد في الإسلام. صفحة 15.

ذاته ولا من الطبيعة، إلا إذا استعان بمن هو أرقى منه عقلًا.[1] يؤيد ذلك الفيلسوف ديكارت بالقول: (الفلاسفة الذين يهملون التجربة ثم يتخيلون أن الحقيقة ستولد من دماغهم كما ولدت مينرفا من دماغ جوبيتر).[2] فالإلهام والنفحات الروحية والوحي والرؤى الصادقة والأخلاق لا تندرج تحت قدرات البشر ولا من صناعتهم، لأنها مخصوصة بشخوص الآلهة والأنبياء دون غيرهم. وهذه النقطة الجوهرية الخطيرة، حيّرت الفيلسوف "جون كيرتشر"، فنراه لا يجد حلًا أو جوابًا لها، حينما قال:- (نحن ملزمون للاعتراف بأن الفكرة جاءت قبل صنع الطاولة. فإذا استعرضنا التاريخ من خلال وجهة النظر هذه، عندها نكون مجبرين على الاستنتاج بأن كشفها يعني كشف الأفكار الإنسانية وسبرها. ليس هناك أي خطأ يتخلل هذه النظرة حتى هذا الحد، لكنها لا تمضي الى أبعد من ذلك، حيث أننا نواجه من قبل سؤال غاية في الأهمية: "إذا كانت كافة إنجازاتنا هي نتاج أفكارنا، وإذا كان التاريخ ما هو إلا النتيجة الحتمية للأفكار الإنسانية، **فمن أين جاءت هذه الأفكار أصلًا؟**").[3]

ويؤكد الفيلسوف توينبي على عظمة وأهمية دور الأنبياء في تربية البشر بقوله بعدما يطلق عليهم مسميات أخرى:- (إن العباقرة قد وجدوا ليدفعوا حدود الذكاء البشري وراء ظهرانيهم؛ برزت كذلك نفوس أحست بأنها تُنسب الى النفوس جميعها؛ وعوضًا عن أن تبقى في نطاق جماعتها وتحافظ محافظة مطلقة على تضامنها معها، هذا التضامن الذي أقامته الطبيعة؛ فإنها - تحت سطوة العشق الصوفي - وجهت كلامها الى البشرية بوجه عام. ويعتبر تجلّي كل هذه النفوس،

1 ورد شرح هذا المفهوم تفصيلا في كتاب نظرية المعلّم.
2 رينيه ديكارت. العالم. صفحة 14.
3 كيف وجدت الآلهة. جون كيرتشر. صفحة 11.

بمثابة خلق نوع جديد، قوامه فرد فذّ . وقد يُطلق على الصفة النوعية المعينة لهذه النفوس القدسية التي تحطم الحلقة المفرغة للحياة الاجتماعية البدائية البشرية، وتتابع عمل الابداع؛ اسم "الشخصية". وجدير بالذكر أنه بفضل التطور الداخلي "للشخصية"؛ أمكنت الكائنات البشرية، أن تُنجز أعمال الابتداع في ميدان الفعل الخارجي الذي يقوم عليه ارتقاء المجتمعات البشرية. وفي رأي برجسون أن ذوي النزعات الصوفية هم بأصلهم العبقريات المبدعة؛ كما يرى أن مناط فعل الإبداع، يتجلى في اللحظة القدسية التي تتم خلالها التجربة الصوفية).[1] ويقول الفيلسوف اسبينوزا معلنًا عن عجزه لفهم مقام النبوة:- (لا نعلم عن النبوة علما صحيحًا، أي أننا لا نستطيع تفسيرها بالعلل الأولى.).[2]

فإذا ظنَّ دوكنز وغيره أن الأديان ظهرت في قديم الزمان من بنات أفكار الانسان البدائي (طفل البشرية)، فمن المفروض، وبكل بساطة، أن يتمكن فلاسفة اليوم والعلماء - وهم بهذه القدرات الذهنية والذكاء الحاد وكميات العلوم الجبارة - من تفنيدها بسهولة ومن ثم الاستغناء عنها، كما حدث مع كثير من الأفكار القديمة البالية؛ لكننا نرى عجزهم التام عن إزالة تأثير الأديان من عقول وقلوب البشر أو تقديم بديل عنها، مما يدل قطعًا إنها صناعة غير بشرية، وبالتالي لا سبيل لإزالتها، لأنها موجات روحية ضرورية لتجدد الأخلاق والضمائر كلما انحدرت في نهاية كل مرحلة حضارية.

إن مرحلة عبادة الإله الواحد، هي المرحلة الروحية النهائية لثمرة توالي ظهور الأديان (متعددة الآلهة أو التوحيدية) والتي بدأ يظهر من بذور ثمراتها أزهار مبادئ الأهداف العالمية اللائقة بتطور

---

1 مختصر دراسة للتاريخ. توينبي. ج 1 صفحة 355.
2 اسبينوزا. صفحة. 139.

الفكر البشري، وما موجة الالحاد والفكر المادي السائدة اليوم، إلا ارهاصات مؤقتة ونتيجة حتمية لفشل رجال الدين وفلاسفة وسياسيو العالم في تقديم حلول ناجعة لما يعاني منه البشر من مشاكل وضغوط اجتماعية نتيجة تداخل مصالح الشعوب، كما أيّد ذلك الدكتور عبد الرحمن بدوي:- (إن الإلحاد نتيجة لازمة لحالة النفس التي استنفدت كل إمكانياتها الدينية.)[1] لكن المقدّر لمصير هذه الموجة الإلحادية هو الزوال والاختفاء - حسب قانون التطور الروحي والعقلي للإنسان - والمتزامنة مع ازدياد ضغوط الحاجة الملحّة لدخول مرحلة رقي أسمى في اتحاد البشرية جميعا، والتي لا بد لهم من تأسيسها بقوانين عالمية شاملة.

تحت عنوان (تعدد الآلهة)، قال:- *(اطمح بعض الأحيان في خيالي بأن أقنع أحد أعضاء الجالية الهندوسية لرفع دعوى قضائية ضد هذا التكبر المعادي للتعددية).*[2]

إن لكل ديانة أو عقيدة، عمر روحاني محدد يبدأ حين ولادتها وينتهي بظهور دين أو عقيدة لاحقة. ومن علامات حياتها اتصاف أتباعها بحميد قيم الأخلاق ومن ثم بناء حضارة مادية بشرية جديدة. بينما من علامات موت روحانيتها وتلاشيها، ظهور الانقسام والاختلاف في فكر ومناهج أتباعها. وبوصولها لهذا المنحدر، يختفي جوهر فكرة الوحدة الاجتماعية تاركًا المجال لظهور أنواع المذاهب والشيع والأحزاب، كلٌ منها يدعو لمنهج مختلف يدَّعي أحقيته، (فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا ۖ كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ).[3] فالحياة تجمع، والموت يفرّق؛ والعودة لتعدد المذاهب والفرق، هو انحدار

1 من تاريخ الالحاد في الإسلام. صفحة 7.
2 صفحة 34.
3 سورة المؤمنون 53.

روحي وعلامة من علامات موت جوهر هدف الأديان في الوحدة والاتحاد. كما أن التقهقر في المعتقد لا يقتصر في عودته الى تعدد الآلهة، بل يمتد ويتشعب الى عبادة أصنام رجال الدين أيضًا. والديانة الهندوسية مثل غيرها من الديانات ليست بمنأى عن برنامج الحياة والموت، ومن المحتّم أنها دخلت مرحلة انتكاس جوهر هدفها بعد موتها ومجيء أجلها تاركة المجال شاغرًا لتوجهات أتباعها الى مختلف أنواع المذاهب والشيع والمعتقدات ومن ضمنها تعدد الآلهة.

أما مثال السيد دوكنز عن الداعية الذي أخبر مستمعيه عن حاجته لثمانية مليون دولار، وإلا فإن الله سيقتله.[1] فهو أمر لا غرابة فيه لوجود الأفاقين والمشعوذين والنصّابين الذين يعيشون وسط محيطات الجهل والغفلة حين موت أديانهم واضعين نصب أعينهم المكاسب المالية على حساب الروحانيات والأديان . ومع ذلك، فهو مثال لا يستحق الذكر.

يقول:- *(أريقت أنهار من الحبر إن لم نقل الدم أيضا، في العصور الوسطى على "سرّ" الثالوث المقدس... هذه طريقة اللاهوت منذ الأزل... التفرقة).*[2]

إن جميع الأديان طرًا، تظهر لتوحيد الناس وتآلف قلوبهم، وحريّ بنا أن لا ننسى كيف وحدّت المسيحية قبائل وأمم مختلفة في الشرق والغرب طالت بينها حقب القتال والنزاع. بينما في حالة موت الدين روحيًا، تبدأ الأفكار المفرّقة للجموع بالنمو والتسلل إلى داخل نفوس المؤمنين، فيختلفون على مفاهيم وأحزاب شتى من ضمنها هذا الاختلاف في فهم سرّ الثالوث المقدس الذي لا يمكن نسبته، لا الى السيد المسيح(ع)، ولا الى جوهر تعاليمه. متذكرين في ذات الوقت،

1 صفحة 34.
2 صفحة 34.

إن حالة القسوة والقتال أمر طبيعي موروث من الأمم البدائية القديمة كان لا بد أن يرافق فترة طفولة الجنس البشري التي شملت عهد الديانة المسيحية.

وقد يقول قائل أن المسيحية جاءت لتفرّق بين البشر، مثلما قال السيد المسيح(ع):- (أتظنون أني جئت لأعطي سلامًا على الأرض؟ كلا، أقول لكم: بل انقسامًا).[1] إن السيد المسيح(ع) ظهر في زمن طفولة البشرية، وفي قوله هذا إشارة الى استمرار عهد الصراع ومنهج القتال بين البشر، وهو ما يطلق عليه وجود صفتي الخير والشر في النفس البشرية . وهي - في نفس الوقت - نبوءة مزدوجة: الأولى أن السلام الموعود على الأرض لن يتحقق خلال الدورة المسيحية (وهذا ما أثبته التاريخ)، كما أنه لم يتحقق بظهور دين الإسلام الذي اعتبر أتباعه (الجهاد) سبيلا لنشره. أما النبوءة الثانية المستشفّة من بين هذه الكلمات المقدسة، فهي أن هناك موعد مستقبلي لمجيء يوم سلام عالمي بين البشر. ويبدو أن هذا الموعد قريب على الأبواب بدأت أولى تباشيره بالتحقق من خلال ظهور دعوات السلام العالمي بين شعوب العالم أخيرًا، ساعد في ذلك تشابك مصالح شعوب الأرض وظهور المخترعات والتقنيات التي سهّلت الاتصال والتواصل فيما بينهم. ورغم أن الكثيرون يرون أمل أرساء قواعد أسس السلام العالمي على الأرض أملًا بعيد المنال أو حلمًا يستحيل تحققه، بسبب الظن أن النفس البشرية قد فطرت على مبدأي الخير والشر، لكن سعي المختصين والمربّين الحثيث في تهذيب أخلاق الأجيال إنما هو في حقيقته، تحدي واضح لمقولة ترسّخ الشرّ في النفس البشرية، وإلا لما كان لهذا المسعى الخيّر حاجة للبدء والشروع به أساسًا.

---

1 إنجيل لوقا. 51:12.

قال مستنكرًا:- *(هل هناك إله بثلاثة أقسام أم ثلاثة آلهة في واحد؟)*.[1]

إن أية طريقة للتواصل أو التوصيل، هي عملية بحاجة دائمة الى ثلاثة أقطاب أو ثلاثة جوانب، (المرسِل، والمرسَل إليه، والواسطة)؛ أنت وأنا والفكرة، أنت وزوجك والتلفون، التلميذ والمعلم والمنهج، الكاتب والقارئ والكتاب... الخ. وبهذا المعنى كان هناك: يهوه وموسى والنار المقدسة، الله ومحمد وجبريل، الله والمسيح وروح القدس. وبهذا يمكن القول: إنهم واحد أو إنهم ثلاثة في نفس الوقت. والانسان حرٌ في تبني إحدى الفكرتين فلا فرق بينهما. لكن المهم هو عدم تطور هذا المفهوم المربك لنثر بذور التفرقة والاختلاف. والحقيقةً، لا أتوقع تقبّله لهذا المفهوم، بسبب تبنيه منهج "قطيع القطط الفوضوي".[2] فهو يحاول تشتيت فكر القارئ ودفعه لركوب مطية الإلحاد.[3]

ويستمر بعقليته المعاصرة، مناقشة أفكار دينية قديمة عمرها أكثر من ألفيّ أو ثلاثة آلاف عام لها صلة وثيقة بما سبقها من أفكار الأديان البدائية القديمة وبمعتقدات تعدد الآلهة؛ وفي الحقيقة هذا احتكام غير منصف، فمن الطبيعي ان تتأثر عقول المؤمنين المسيحيين الأوائل بما حملته مجتمعاتهم من موروثات الأفكار البدائية القديمة ـ خاصة والمسيحية تعتمد على كثير من أحكام شريعة

---

1 صفحة 35.

2 صفحة 8.

3 أحببت الاطلاع على مزيد من آراء السيد دوكنز، لذا قرأت له كتب أخرى. والغريب أن وجدته يستحب ممارسة طريقة اللف والدوران في عرض أفكاره، فيقول عن أسلوب الكتابة:- (والتفسير فنّ صعب... فإنه قد لا يكون أحيانا مما يكفي له أن تضع البرهان أمام القارئ بصورة رزينة. وإنما ينبغي أن تكون محاميا عن القضية وتستخدم حيل مهنة المحاماة، فهذا الكتاب ليس برسالة علمية رزينة). ويكمل جملته بعد عدة أسطر: (**وربما لا أكون دائما على صواب**.). (صانع الساعات الأعمى. صفحة 14).

التوراة السابقة لها بألف وثلاثمائة سنة - وعلينا أن نتذكر، أن تبنّي هذه الأفكار قد تمَّ بسبب وبواسطة الرهبان ورجال الدين تحديدًا ولا شأن للمسيح أو لله تعالى بذلك.

أما تعليقه عما اعتقده بعض الناس عن نجاة البابا من محاولة الاغتيال وظنَّهم أنها كانت بسبب تدخّل السيدة العذراء . فإنما هو رأي تفرضه المعتقدات الدينية القديمة وطقوسها وما تقتضيه متطلبات "المهنة" الكهنوتية لإثبات ضرورة وجودها؛ ومع ذلك فهو رأي بشري لا حاجة تدعو لاتخاذه سبيلا للتصيّد في الماء العكر . فالمفروض أنه أعلى شأنًا من هذه الترهات.

قال:- *(بعض علماء الدين التقدميين يدَّعون بعدم وجود جنس محدد للإله).*[1]

طالما كان الله تعالى أو الإله، خارج حدود العالم المادي، فمن المحتّم أن ليس لذاته علاقة مادية بهذا العالم . لذا من المستحيل معرفة شيء عن صفاته من خلال مقارنة موجودات الطبيعة ومخلوقاتها المادية بذاته العلية، فهو غيب منيع لا يُدرك (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ).[2] إن وجود نوعي الجنس من ذكر وأنثى في هذا العالم المادي، غايته استمرار الوجود الطبيعي لأجساد المخلوقات عن طريق التكاثر. أما في عالم الأرواح، فلا موجب لوجود جنسين مختلفين، لانتفاء الغاية من عملية التكاثر، فأرواح البشر ستبقى خالدة في العالم الآخر وتزداد أعدادها من خلال توالي وفاة من على الأرض منهم. فإذا تعذر معرفة شيء عن حالة أرواح البشر في العالم التالي، فمن الأولى ومن غير الممكن معرفة شيء عن حقيقة الذات الإلهية.

---

1 صفحة 37.

2 سورة الشورى 11.

قال:- *(أنا لا أهاجم نوع معين من الآلهة. أنا أهاجم الله، كل الآلهة، أي نوع من الآلهة، كل ما هو خارق وما ورائي أينما وحيثما وجد أو سيوجد).*[1]

اسلوب ممجوج غير مجدِ، مثله كمثل رجل صعد فوق جبل عال رافعًا يديه متحدياً الله أن يقطعهما؛ أو كمثل نملة تصرخ في بيداء متحدية قوى الطبيعة أن تسحقها. يقول الفيلسوف ديكارت:- (إن كل ما يقوله أهل الإلحاد لنقض وجود الله يعتمد على أمرين: "فإما أنهم يتوهمون في الله انفعالات إنسانية، وإما أنهم ينسبون إلى أذهاننا من القوة والحكمة، ما يملؤنا زهوًا).[2]

إن الله غيبٌ منيع مقدس خفيّ لا تدركه البصائر والأبصار ولا الحواس المادية، فحتى الرسل والأنبياء وهم مبعوثيه الخواص لم يتعرفوا على حقيقة كنهه. وكما ذكر العالِم جون كيرتشر، كل مجتمع يظن الله حسب مفاهيمه وتصوراته، فمن ظنه مقاتلاً ومن ظنه جميلاً وآخر اعتبره أبًا قاسيًا، وما الى ذلك من الظنون. ودوكنز يظن بعدم وجود الله تعالى، بينما آثار الله واضحة جلية من خلال روعة هندسة مخلوقاته. قال ديكارت:- (إن فكرة "المتناهي" نفسها تفترض وجود فكرة "اللامتناهي": لأني ما كان يمكنني أن أعرف مثلا أني متناه وأن شيئًا ينقصني، إذا لم يكن لديّ فكرة عن موجود لا متناه لا ينقصه شيء).[3] وفي هذا التعريف، إشارة الى قانون الأضداد الطبيعي، فلكل شيء أمر يخالف طبيعته: فالنور يخالفه الظلام، والقدرة يناقضها الضعف، والصحة يقابلها المرض، والعلو ينابذه الدنوّ، والروحانيات تناقضها الماديات ...الخ.

---

1 صفحة 38.
2 ديكارت. التأملات في الفلسفة الأولى. ترجمة عثمان أمين. صفحة 50.
3 ديكارت 124.

وبهذا عندما يتحول السيد دوكنز لينفي وجود النبي إبراهيم(ع) ويصفه بالأسطورة.[1] فدليل وجود النبي ابراهيم ووجود الشخصيات القديمة من أنبياء وملوك وأباطرة يرتبط ارتباطًا وثيقًا ببقاء آثارهم المادية، وبما أنه يصعب التحقق من بعضها بسبب اندثارها وقِدم تاريخها وتوالي حوادث التاريخ وتقلباته، لذا ليس أمامنا للتحقق من وجوده إلا تتبع آثاره الروحية من خلال اتفاق الأديان (يهودية، مسيحية، اسلام) على ذكره. يؤيد ذلك قول الفيلسوف توينبي، إن الأمور الروحية لا تترك آثارًا مادية:- (بيد أنه لما كان الانسان لا يخلّف وراءه سوى جهازه المادي، أي نفايته الظاهرة، ولا يترك وراءه جهازه الروحي؛ لا يسع عالِم الآثار إلا معالجة البقايا البشرية ليستخلص منها معارفه عن التاريخ البشري).[2] وحسب القانون الطبيعي، إن العدم لا يترك أثرًا ماديّا أو معنويّا، فتكرار ذكره دليل على وجوده. إضافة الى استحالة اتفاق أديان ثلاثة مختلفة الشرائع والمَواطن الجغرافية واللغات واختلاف أزمان ظهورها، على وجوده والاشارة إليه، حيث لا سبب وجيه يدعو لهذا الاتفاق.

نقطة جانبية أخرى، حين اشارته الى فرقة المورمن[3] واعتبارها كديانة. من الواضح أن الرجل مثل غيره الكثير لا يفرّق بين الديانة والمذهب، فالديانة لها كتاب خاص وشريعة خاصة، بينما تتبنى المذاهب الدينية كتاب رسول سبق وظهر من قبل، كما هو الحال مع مذاهب الفريسيون والصدوقيون والسامريون، وكذلك مع مذاهب الكاثوليك والبروتستانت والأرثودوكس والمورمن، أو مذاهب السنّة والشيعة والاسماعيلية والأحمدية وغيرها، فهؤلاء يتخذون من كتب

1 صفحة 38
2 توينبي. مختصر دراسة للتاريخ. ج 1 صفحة 323.
3 صفحة 38.

رسلهم (التوراة أو الانجيل أو القران) دستورًا لهم ويزيدون عليها أفكارًا بشرية لنشرها، وبهذا فمن الخطأ وصف المورمونية بالديانة.

تحت عنوان جانبي آخر. يقتبس:- *(انبثقت ثلاث ديانات حاقدة على البشرية ـ اليهودية والمسيحية والإسلام. وهذا يشرح البغض العميق للنساء في تلك البلدان المصابة بإله السماء).*[1]

لو تذكّر دوكنز أن حياة الانسان الفرد هي صورة مختصرة لحياة البشر عموماً، لكسبَ فرصة مناسبة لتفهُّم ما كان من أمر منهج القوة والقسوة في تربية جماعات البدائيين من البشر. لقد جاء الانسان من عمق تاريخ الوحوش والكواسر، وبنفسٍ تغلغلت في بواطنها صفات الشراسة والعنف ومبدأ استعمال القوة والعلاقة الوثيقة بقانون الغاب الفوضوي، لذلك، لا غرو أن اعتمدت عقليته على العنف والسيطرة والتسلّط والقتال والحرب والسيف والعصا وقوة السواعد.. الخ، هذا هو ما استيقظ عليه ذلك الانسان القديم من أخلاق وتصرفات حتى قرون قريبة. فمثل ذلك الهمجي لا يمكن التعامل معه بمبدأ الإقناع والتحاور والمشورة والأخذ بالرأي والرأي الآخر وتقليب جوانب الأمور وحلّ المعضلات بالتروّي والاقتداء بأحسن الحلول وأسلمها. لذلك كان يلجأ لعضلاته وهراوته كلما احتاج حلولاً، فهو لا يعرف سواها وسيلةً، فإما أبيض أو أسود، وإما مع أو ضدّ . لأن الأخلاق والصفات الحسنة ليست فطرية في نفس الانسان، فهي تحلّ فيه بالتدريج من خلال التربية والتأثر بمحيطه الاجتماعي. لذا يكون بحاجة دائمة الى التربية والتوجيه حال مجيئه لهذا العالم. لذا كانت قوانين الأديان تتسم قديمًا بالقوة والعنف والقسوة فلا مجال للتعامل اللطيف بالمودة والرجاء مع تلك الوحوش البشرية. فكم من مرة لم

---

1 صفحة 39.

يجد حكيمًا عاقلا سبيلا لفض خلاف مع آخر يحمل قفلا صدئاً في جمجمته إلا باستعمال يده؟ لقد كانت عقول البشر أكثر تخلفًا بآلاف المرات من شاكلة هذا "القفل" الحديث. لهذا السبب كانت قساوة أحكام الأديان القديمة تتناسب مع حالة شراسة الانسان آنذاك. أما موضوع 'بغض النساء'، فهي مسألة تاريخية واجتماعية قديمة بسبب اعتماد المجتمعات على قوة السواعد والعضلات، مما دفع المرأة للانزواء بغية الاعتناء بالعائلة لعدم القدرة على المشاركة بشكل فعال، لكن هذه الحال في طريقه الى الزوال بعدما أثبتت المرأة أن لها اختصاصات علم ومجالات عمل يمكن تأديتها بصورة أفضل من الرجل. ويبدو أنه صاحبنا تناسى متعمدًا ما كان من دور قيادة الآلهة الأم في العصور القديمة، وكيف اتخذت مقام الإلاهة وحكمت مجتمعاتها.

يؤيد الفيلسوف ديورانت استعمال كلًا من الدين والقوة في تنظيم مجتمعات البشر القديمة، كما يؤكد على عدم قدرة الانسان بنفسه لاختراع دين من الأديان. قال:- (إن الجماعات الإنسانية قد ارتضت أن تقيم تشريعاتها الخلقية على أساس من المنفعة الاقتصادية والسياسية الصريحة، إذ الفرد لم تهيئه طبيعته بميول التي تميل به نحو إخضاع مصالحه الشخصية لمصالح المجتمع، أو نحو طاعة القوانين المحرجة للصدور إذا لم يكن ثمة من الوسائل المنظورة ما يفرضها عليه بالقوة؛ فلكي تقيم المجتمعات على الأفراد حارساً غير منظور، ولكي تقوّي فيهم الدوافع الاجتماعية ضد الدوافع الفردية بما تثيره فيهم من آمال قوية ومخاوف قوية، **فإنها استخدمت الديانة وإن لم تخترعها**، ولقد عبر الجغرافي القديم 'سترابو' عن أكثر الآراء تقدماً في هذا الموضوع منذ تسعة عشر قرنًا، فقال: إنك في معاملتك لأية مجموعة من الناس اجتمعت كما اتفق، لا تستطيع بالفلسفة أن

تؤثر فيهم، أنك لا تستطيع ان تؤثر فيهم بالعقل أو ان تقنعهم إقناعا بضرورة الوقار والورع والأيمان، كلا، بل لا بد لهم من الخوف الديني أيضاً. ولا يمكن إثارة هذا الخوف في نفوسهم بغير الأساطير والأعاجيب؛ فالصواعق والدروع والصولجان والمشاعل ورماح الآلهة، كل هذه الأساطير، وكذلك منها اللاهوت القديم من أوله الى آخره).[1]

ولكن في المقابل لننصف قليلًا لنتائج تلك القوانين القاسية، فلقد كانت السبب في ظهور ونمو عقلية الانسان المتطور في هذا اليوم الذي يدعو لتربية الأطفال تربية نموذجية صحيحة وعدم استعمال العنف الجسدي وينصح بتخصيص أفضل التربويين في المدارس . وبهذا، تكون تلك القوانين القاسية التي ينتقدها دوكنز هي التي انتجت ثمرة العقل المتمدن. وهذا دليل واضح على سلامة ذلك الأسلوب التربوي القديم في وقته. ثم لنضرب مثلاً على ذلك، لو وضعنا حكيمين لتدريس مجموعتين مختلفتين من الصبيان، جُمعَ أفراد الفئة الأولى من أبناء الأزقّة والشوارع، واختيرت الثانية من أبناء عوائل محترمة، أفلا يكون تصرّف الحكيمين في تربية المجموعتين مختلفًا؟ فعلى الغالب يستعمل الحكيم الأول الشدة والقوة بقدرٍ وطريقة ما، بينما لا يحتاج الثاني إلا للسان لطيف ووسائل إقناع. إن تدرّج نضوج وتطوّر عقلية البشرية استغرق ملايين السنين حتى وصل لما نحن عليه اليوم، فلا يجب نسيان اختلاف مستويات أخلاق البشر في جميع مراحل تاريخه.

إن ظهور فكرة الذكورية والأبوية المتسلطة في مناهج الأديان القديمة وما تلاها في الاسلام والمسيحية واليهودية، هو تاريخ بشري

---

1 ديورانت. قصة الحضارة. المجلد الأول. صفحة 52.

متصل ومتسلسل قادم من عمق التاريخ، وليس من السهل على أي نبي أو رسول أو حكيم أو فيلسوف الميل عن هذا النهج، فلقد بنيت المجتمعات منذ قدِم التاريخ ومنذ أيام الكهوف والمغارات على مبدأ القوة والعنف والتسلط، وفكرة القويّ والضعيف والسيّد والعبد والأسير، ولو كانت تلك القوانين القاسية غير متفقة مع أحوال مجتمعاتها، لقام البشر على رفضها أو تغييرها في وقتها. إن عدم ظهور معترضين لمبادئ القوة والقوانين الصارمة آنذاك، دليل على توافق منهج القوة والعنف مع تلك الأزمنة؛ وإن ما حملته الأديان القديمة من فكرة تسلط السيد على العبد والرجل على المرأة، كان موروثًا اجتماعيًا توافق مع ما جاء من تراث عتيق واكب التاريخ البدائي بعدما ترتبت عليه مقومات تلك المجتمعات منذ عشرات الألوف من السنين؛ لذلك ليس من اليسير تغيير قانون الذكورية وتبديله إلا بالتربية والتعليم وانتظار نضوج العقل البشري؛ وحتى لو افترضنا شروع تلك المجتمعات القديمة بالتغيير، فلن يكتب لها النجاح لاصطدامها بأسس وجذور أنظمة أقدم منها اتفقت مع مفاهيم القوة الراسخة في النفس البشرية من تراث وتقاليد وعادات وحلال وحرام وتابوهات وطواطم. إنها مهمة ليست سهلة كما ظنٌّ دوكنز حين انتقادها.

لنأخذ مسألة العبودية وسلطة الأب القديمة على سبيل المثال، فلقد قامت مجتمعات البشر منذ الأول الذي لا يسبر له غور على مبدأ الأب والابن، والأسير والأجير، والسيّد والعبد والقنّ، ومبدأ السخرة، وبقيت آثار كل ذلك حتى زمن نزول شريعة التوراة، حيث نرى إن كل ما قامت به لمواجهة هذا الفكر التسلطي هو تنظيمه فقط وليس إلغاءه. وعندما جاءت شريعة الاسلام بعد ألفي سنة، كانت فكرة الأبوّة والعبودية ما تزال قائمة ومن أسِّ أساس نظام المجتمع العربي

وغيره من بقية الشعوب، وكل ما قدمه الاسلام في هذا المجال تشجيعه على إطلاق سراح العبيد (فك رقبة أو تحرير رقبة) ومدح القائمين على إجرائه والوعد بالجزاء الطيب في الآخرة، ولم يأمر جزماً بتحريمه. كما أجازت استعمال القوة مثلما كان الحال مع الشريعة اليهودية وحتى المسيحية، ونصحت بمعاملة الأجَراء والعمال والعبيد بطريقة إنسانية طيبة وشجعت على التعامل معهم بالأخلاق الحميدة ونهت عن ممارسة العنف والأفعال القاسية والقبيحة ضدّ العبيد والضعفاء، وتحريرهم إذا كان بالإمكان فعل ذلك، وقد ورد عن النبي محمد(ص): (أعط الأجير حقه قبل أن يجفَّ عرقه). وورد في التوراة عن حسن معاملة الأجير:- (لا تبتْ أجرة أجير عندك الى الغد)،[1] أما لماذا لم تأمر أحكام الشريعتين بإلغاء العبودية قطعيًا، فذلك لأن الأحوال الاجتماعية والاقتصادية لمجتمعات تلك الأزمنة كانت ما تزال بحاجة الى القوة العضلية، وكان لا بد من مضي الزمان وتوالي القرون حتى تتغير ظروف المجتمعات ويبدأ العقل البشري بإدراك سوء هذه الظاهرة الاجتماعية وضرورة التخلص منها لعدم اتفاقها مع تطور القيم والمثل العليا التي بدأ انسان الوقت الحاضر يدخل أبوابها، خاصة بعدما تبدلت سبل الانتاج وظهرت الماكنات والتقنيات الحديثة، فأدرك الانسان إن الوقت قد حان لسنّ قوانين إلغاء الرق والعبودية، فتبلور كل ذلك في الإعلان العالمي لحقوق الانسان. وحتى هذا القانون الدولي العام واتفاق الأمم عليه، بدأ تطبيقه بالتدريج واحتاج سنوات طويلة للتعديل والتوضيح والتثبيت، ولم يطبق مباشرة حال صدوره حيث ما زالت

1 سفر اللاويين. 13:19.

أنواع مختلفة من أشكال العبودية تسود كثير من المجتمعات وتنتظر تصحيحها.

وعلى ذات المنوال جاء قانون إعطاء المرأة حقوقها وحريتها في تقرير مصيرها، فحتى اليوم - ودوكنز يهاجم الإله والأديان - كان من الأفضل لو ركَّز بنفس القوة على مبدأ تحرير المرأة وإعطاء حقوقها كاملة وطالب بوضع منهج قانون أفضل يسد ما ترك من ثغرات؛ فهذا ما سينصف حقوق نصف تعداد البشرية بالتمام، ويسعد النساء وجميع عوائل البشر ويحفظون له هذا الجميل. إن مبدأ استغلال المرأة والانتقاص من شأنها وحجب حريتها وتحميلها مشاق أعمال البيت والعائلة لوحدها بالإضافة الى منع تعليمها أمر يخالف مبدأ العدالة والإنصاف وحقوق الانسان، وهناك شعوب ما زالت تعامل المرأة معاملة الأسير والعبد والرهينة، ويعتقدون باستحقاقها قسوة المعاملة والضرب والاهانة. فمثل هذا الفكر المتخلف، ما كنا سنستهجنه ونعتبره ظالماً لو كنا نعيش قبل عدة قرون، بل وحتى قبل عدة عقود، ولمارسناه دون أن يهتز لنا رمشُ رحمة ولاعتبرناه عرفًا طبيعيًا ونوعاً من الرجولة والفحولة. لذلك فمثل هذه الأمور الوراثية التراثية ليس من السهل تغييرها، وكانت بحاجة لمسيرة زمانية طويلة من التعوّد على تطبيق مبادئ التقدم والعدالة والانصاف. فمثل هذا التسلسل الاجتماعي يعود ليلتقي بمبدأ قسوة القوانين الإلهية في مناهج التربية البشرية قديمًا، وبمبدأ تعدد الآلهة القديم، حيث لم يكن في الإمكان إلغاء كل ذلك بسهولة، فالمجتمعات القديمة اعتمدت عليها اجتماعيا واقتصاديا وروحيا وفكريا.

يقول:- *(ونشأ الاسلام على كتاب مقدس جديد اسمه القران، والذي احتوى على توجه فكري جديد ألا وهو نشر الدين بالقوة العسكرية).*[1]

مثلما سبق وقلنا، يعتبر ظهور شريعة الإسلام امتدادًا تاريخيًا لآخر مرحلة من مراحل إجازة استعمال مبدأ القوة للدفاع عن النفس بين البشر، ولو لم يدافع المسلمون عن دينهم في أوائل سنين ظهوره، لأمسى نسيًا منسيًا. وبهذا فمن غير المنصف وضع اللائمة على النبي محمد(ص) في دعوته لحمل السلاح، باعتبار ذلك مبدئًا بشريًا كان ما يزال موروثًا لا بد من العمل به واتخاذه سبيلا للدفاع عن العقيدة والنفس.

قال:- *(المسيحية كذلك انتشرت بالسيف).*[2]

ذكرنا أن قانون السيف مبدأ اجتماعي شمل مراحل تاريخ البشرية منذ أول مظاهر استعمال العصا والعظام في الدفاع والهجوم ضدّ بقية الحيوانات الشرسة، ولو كنا نعيش نحن دعاة السلام أثناء تلك الأزمنة، لما عارضناه، ولسعينا جاهدين لتثبيت أعمدته. كما أن استعمال السيف لم يختص بديانة معينة أو أمة من الأمم، فلقد كان عاملًا مشتركًا بين جميع أتباع الأديان وشعوب الأرض دون تمييز، إنه منهج بشري بدائي قديم.

قال:- *(انتشرت المسيحية بالحملات الصليبية وبعدها بحملات أوروبية أخرى مرافقة بحملات تبشيرية).*[3]

ليس من العدل مقارنة السلوك البشري القديم مع مبادئ الحرية والسلام العالمي في هذا اليوم. كما علينا أن نتذكر أن السيد المسيح(ع)

---

1 صفحة 39.
2 صفحة 39.
3 صفحة 39.

لم يأمر أو يسمح باستعمال السيف والقوة وسفك الدماء، بل جاء بدعوة المحبة بين البشر، وما حصل من حروب صليبية وغيرها بين طوائف المسيحيين وأمرائها، كان لذات نتيجة روح العنف السائدة بين الأمم القديمة قاطبة، ولسوء فهم روح تعاليم السيد المسيح(ع).

قال:- *(فإن الديانات الابراهيمية الثلاث من الممكن اعتبارها ديناً واحداً دون تفريق).*[1]

هذا أمر صحيح مع الفارق. فجميع الديانات الابراهيمية وما سبقها تدخل ضمن إطار (كَور الأديان التوحيدية)، حيث بدأت بدعوة النبي آدم وانتهت بدعوة النبي الخاتم، فبرامجها - كما لخصها القران الكريم - كان واحداً:- (اعبدوا الله ما لكم من إله غيره) باعتبارها مرحلة تعبدية روحية انتقالية من ممارسة تعبّد مجاميع الآلهة الى عبادة الإله الواحد. وهذا ما دعا أتباع الأديان - كلٌ على حدة - للاعتقاد أن دينهم هو أول الأديان وآخرها. وقد أوجد هذا الاتحاد في الهدف تشابهًا في المبادئ والتعاليم دفع البعض للظن أنها تقتبس أو "تسرق" من بعضها البعض.

قال:- *(لن أناقش الديانات الأخرى كالبوذية أو الكونفوشية. الحق يقال أن هذه المذاهب يجب أن تناقش كفلسفات وأنظمة أخلاقية للحياة وليس كأديان).*[2]

قبل كل شيء، إن البوذية والكونفوشية هي أديان رئيسة مستقلة وليست مذاهب أديان فرعية، فنبي الأولى هو بوذا، بينما كونفوشيوس نبي الثانية. وحينما يظنَّ المؤلف أن أديان الشرق الأقصى خلت من مظاهر العنف والقسوة، فتاريخها يقول بغير ذلك، فمن الطبيعي تعرض تلك الدعوات الروحية في بداية أمرها وأول

---

1 صفحة 39.
2 صفحة 40.

أزمنتها بسبب قلّة أعداد تابعيها الى معارضة كهنة المعتقدات السابقة لها وأتباعهم، وهذا ما ولّد ردود أفعال مماثلة لدى أتباع هذه الديانات بعدما كثرت أعدادهم، مما سبّب حصول ردود أفعال وحالات انتقام وصدامات وحروب شرسة بين الفريقين ما كانت تنتهي في بعض الأحيان إلا بإبادات شاملة لا تبقي ولا تذر. أما سبب ذلك، فكما أشرنا، لشمول أزمنة تلك الشعوب بذات قانون القوة والقسوة البشرية البدائية الموروثة.

قال:- *(في البداية أريد أن أقوم بتطوير تعريفي لنظرية الوجود الإلهي.. وأزيل أي سوء فهم عن تعريف الإله الإبراهيمي. إنه ليس الذي خلق الكون فقط، بل إنه إله شخصي موجود ضمنه أو خارجه، ويمتلك الصفات الانسانية الغليظة).*[1]

خالق هذا الكون هو (غيب منيع مقدس لا يُدرك ليس كمثله شيء)، وهذا يعني عجز قوى الإدراك والعقول والبصائر والحواس البشرية عن معرفته أو الوصول اليه لمعرفة شيء عنه بأي شكل من الأشكال؛ يؤيد ذلك ما قاله الفيلسوف جون كيرتشر: (الدماغ لا يمكنه عكس ما هو غير موجود . فهو لا يعكس إلا الأمور الحقيقية والواقعية.).[2] ثم يعود ليؤكد إن الإنسان لا يمكنه التفكير في أمر ما، إلا إذا كان له شبيه في العالم المادي؛ وهذا يعني، طالما أن الله تعالى غيب منيع، فلا يمكن تصوره على الإطلاق:- (لا توجد صور فكرية في الدماغ إلا تلك التي يوجد لها مقابل في مكان ما من العالم الخارجي. بمعنى آخر، كافة الأفكار، مهما كانت معقدة أو غامضة، لها مصادر مادية خارجية، ويجب أن تكون مادية في أصلها. لا يمكن أن ينبثق الفكر من أي شيء إلا المادي . ولا يمكن أن ينبثق من لا

---

1 صفحة 40.

2 كيف وجدت الآلهة. جون كيرتشر. صفحة 13.

شيء . وحتى الأمور والأفكار الخيالية ، كبابا نويل على سبيل المثال، يوجد أصل مادي له في العالم المادي متجسّد في صورة رجل عجوز لطيف المظهر ذو لحية طويلة وبيضاء . أو كما قال جوزيف ديتزغين فيما يتعلّق بالإيمان بالآلهة: ما هي إلا عبارة عن تركيبة فكرية لجسد أنثى يافعة ذات أجنحة على ظهرها . كِلا الأمرين ماديان، الأجنحة والأنثى اليافعة.).[1]

ويعود السيد كيرتشر ليؤكد على عدم قدرة العقل على معرفة شيء ، إلا إذا كان من موجودات الطبيعة:- (من المستحيل التفكير في أي شيء ليس له مصدر مادي. لم يكن هناك أي فكر في عقل الإنسان سوى ذلك الذي يمكن إرجاع أصله إلى الطبيعة ذاتها. لا يمكننا التفكير بلا شيء . حاولوا ذلك وانظروا بأنفسكم إلى أي مدى ستبلغون).[2]

ثم يؤكد:- (إذا أردنا أن نمتلك معرفة حول موضوع معيّن، علينا أن نعود إلى مصادره المادية ورصده بحواسنا، أو علينا الرجوع إلى الكتب أو وسائل أخرى لتحصيل تلك المعرفة التي عمل آخرون قبلنا على تحصيلها ومراكمتها باستخدامهم لحواسّهم وتسجيلها في الكتب.).[3]

وبهذا لا سبيل لدوكنز أو لغيره تعريف أو مناقشة أو وصف الإله الغيبي. وإن ما ورد من صفات الإله يهوه في كتاب التوراة، إنما كان موافقًا لموروثات وأساطير العقل البدائي من تصورات وتخيّلات مستنبطة من الواقع المادي. إن خالق الكون وما نطلق عليه اسم الله تعالى، لا ينزل من اللا مكان ليحلَّ في جسد انسان أو أي شيء آخر

---

1 كيف وجدت الآلهة. جون كيرتشر. صفحة 15.
2 المصدر السابق. صفحة 15.
3 المصدر السابق. صفحة 16.

من موجودات الطبيعة، كما لا يمكن للعقل البشري تصور ذات غيبه. لذلك يوحي خالق الكون بأمره الى رسله وأنبياءه ويبعثهم كسفراء بالنيابة عنه لتربية البشر، وهذه سنّته التي لا تبديل ولا تغيير لها . ولتحقيق برنامجه الأزلي هذا في خلق انسان يتميز عن بقية الحيوانات بالأخلاق والعلوم، بقي يرسل مبعوثيه ويتواصل معهم عن طريق الوحيّ أو الإيحاء أو الرؤيا أو الإلهام أو المنامات لتنفيذ خطته الإعجازية طويلة الأمد هذه. يقول الفيلسوف "فيلو":- (لا يستطيع الله أن يدبر هذا العالم مباشرة، لأن هذا العالم مادي محدود، وإنما لله كائنات روحانية هم سفراء الله يعملون في هذا العالم ما يريده الله، ويخلقون ويحكمون).[1]

ويعلن الفيلسوف اسبينوزا عن عجزه في فهم هذا البرنامج الإلهي القديم، فيقول:- (أما فيما يتعلق بقوانين الطبيعة التي صدر هذا الوحي طبقا لها، فإني أعترف بأني لا أعلمها).[2]

وعن فهم مقام النبوة يقول أيضًا:- (أن النبوة في ذاتها، تتعدى حدود الفهم الإنساني، وهي موضوع اللاهوت الخالص، لذلك لم أكن أستطيع أن أثبت أو أعلم شيئًا بشأنها إلا من معطيات الوحي الأساسية).[3]

إن الله تعالى يطوّر طرق مناهج وأساليب تربيته كلما ازداد تطور رقي مجتمعات البشر وتوسعت عقولهم، لأن الانسان لا يمكنه التعلّم إلا بوجود معلّم أكثر منه علمًا، فالعقل البشري مثل جهاز كومبيوتر، إذا لم يزوّد بالبرامج والمعارف المطلوبة، يبقى كقطعة معدن لا نفع منها ، ولولا هذه المناهج التربوية الإلهية واستمرار

1 أبيقور. مؤسس المدرسة الأبيقورية. صفحة 19.
2 اسبينوزا. صفحة. 137.
3 اسبينوزا. صفحة. 229.

ظهور رسل الله تعالى وأنبياؤه الكرام، لبقي الإنسان في مستوى أدنى من مستويات الحيوان، بل وأكثر شراسة منه، (الواقع أننا نرى هؤلاء الذين يعيشون حياة همجية، بلا مدنية، يحيون حياة بائسة تقرب من مستوى حياة الحيوانات).[1] وهذا أحد أجوبة من يسأل أين الله ولماذا لا يعتني بالبشر ويحفظهم من الكوارث. فلطالما اعتنى الله بالإنسان عن طريق هذا السبيل الممنهج المستمر. فهذا البرنامج الإلهي التربوي والتعليمي قد بدأ منذ زمن الطواطم والآباء والأجداد والآلهة/الأنبياء، بل من قبل ذلك، فكان هؤلاء الشخصيات أول معلمو البشر، ولا معلم سواهم.

أما ما سبق وذكره السيد دوكنز عن صفات الإله الابراهيمي بأنه *(يمتلك الصفات الانسانية الغليظة)*. فمرد ذلك الى ضرورة تناسب التعاليم والقوانين الإلهية القديمة، مع أحوال بدائية البشر وشراستهم آنذاك، حيث لن ينفع ولا يجدي التعامل معهم بالحكمة والموعظة الحسنة، فلقد كان قانون الدفاع عن النفس والعقيدة، أمر موجب للحفاظ عليهما. وطالما أن الإله أو الله أو يهوه غيب مجهول ليس له صفات مادية ليتعامل بها مع رسله وأنبياءه أو مع البشر، فقد أوكل لسفرائه عن طريق التنبؤ أو الوحي أو الإلهام حرية الأمر والنهي والخطاب والتصرف للتعامل مع مجتمعاتهم ، فيتكلمون ويأمرون وينصحون بما يرونه مناسبا لمستوى أقوامهم الأخلاقية والاجتماعية لتربيتهم.

إن ما يثبت صواب برامج الأنبياء التعليمية، وكونها مراحل تربوية ناجحة رفعت من شأن الانسان ومستواه الأخلاقي، أن أصبح البدوي فيلسوفًا وأمسى صيّاد السمك معلمًا وبات الراعي حكيمًا.

---

1 اسبينوزا. صفحة. 202.

وبدون هذه التربية الإلهية، لكان دوكنز وأنا من خلفه، ما زلنا نحمل هراواتنا جائلين داخل الغابات عاريي الأجساد ملطخين ببقع التراب باحثين عن طريدة نأكلها نيئة بأيدينا العارية؛ (إن أهم ما يجب معرفته عن بشر ما قبل التاريخ هو أنهم كانوا حيوانات عديمة الأهمية؛ لا يتجاوز تأثيرها على بيئتها تأثير الغوريلات أو اليرعات أو قناديل البحر.).[1]

كان على السيد دوكنز التمييز بين مناهج الرسل حسب حاجات البشر الاجتماعية العامة، كما هو الحال بين طبيبين، اكتفى الأول بوصفة علاج من أدوية وحبوب ونصائح طبية، بينما سارع الثاني بمريضه إلى غرفة العمليات شارعًا بتقطيع أوصاله. وهنا والحالة هذه، لا يمكن وصف الطبيب الأول بالرحمة واللطف والشفقة و وصف الثاني بالغلظة والوحشية، فالحالة الأولى اقتضت اسهل طرق العلاج ، بينما اقتضت الثانية مظهراً من مظاهر العنف والدموية. وهكذا هي برامج الرسل لتربية الشعوب القديمة، فقد اتفقت مع المستوى الحضاري السائد، وكلما عدنا بالتاريخ الى الوراء نجد مظاهر القسوة والعنف في زيادة مطّردة، فالأمراض الاجتماعية للبشر كانت بغاية السوء والتخلف، فلم يعرفوا شيئًا عن مبادئ التربية والأخلاق، مما اقتضت الضرورة التعامل معهم بنوع من القسوة والشدة. أما إذا اعترض معترض وقال: لماذا كانت تعاليم السيد المسيح أكثر رحمة ولطفًا من تعاليم النبيّين موسى(ع) ومحمد(ص)؟ فمرجع هذا التباين أن السيد المسيح ظهر في أرض فلسطين ملتقى ثلاث حضارات قديمة (رومانية، فارسية وفرعونية)، وكذلك ظهوره وسط أمة اليهود التي سبق وتربت على تعاليم ومناهج شريعة التوراة

1 العاقل. صفحة 14.

الإلهية قرابة ثلاثة عشر قرناً وكان لها دولة وحضارة لعدة قرون، ومن المؤكد أنهم كانوا بمستوى روحاني أعلى من أمة العرب والفرس والفراعنة لحداثة نسبية تعاليم ديانتهم، وبذلك لا بد أن يكون منهج تعاليم السيد المسيح (المُعلم) هو النصح والخطابة وضرب الأمثال. بينما نلاحظ في المقابل فيما بعد إن عرب الجاهلية ورثوا الشراسة والهمجية منذ قديم الأزمنة ولم يسبق أن ظهر بينهم نبيّ ليعلمهم الآداب والحكمة، كما قال تعالى: (قومًا ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يهتدون).[1] لذا كان على الكاتب أن يتصور عظمة معجزة النبي محمد(ص) "بمفرده" قبل أكثر من أربعة عشر قرنًا، عندما قام بتربية أعراب الجاهلية، فأوجد لهم حضارة عالمية امتدت أطرافها من أوروبا الى الصين. إنه حقًا انجاز خارق للعادة.

ولا فخر لدوكنز أو لغيره من الادعاء بالسلمية واللطف في هذا الزمن المتقدم، فهو يعيش في ظلِّ حمى رجال قانون يطبقون أفضل أحكام القوانين الوضعية المستمدة أصلًا من تعاليم الأديان، وليكن متأكداً أنه لو عاش اليوم في العراق أو اليمن أو في افغانستان أو الصومال، لكان ما زال يحتفظ بقطعة سلاح في بيته لحماية نفسه وعائلته من اللصوص والمجرمين والمغتصبين وسفاكي الدماء. وما كل حياة الرفاهية والأمن التي يتمتع بها، إلا بفضل تربية أولئك الأنبياء الذين تحملوا نيابة عنه وعنّي وعنك، شراسة البدائي وهمجية البدوي ليوصلوا البشرية الى هذا المستوى العلمي والأخلاقي.

أما حينما ينظر الى تصرفات أتباع الأديان وينتقد مؤسسيها عوضاً عنهم، ففي مثل هذه الحالة، كان من الأوجب الانتباه الى أصول هذا السلوك. فكما سبق وقلنا، إن البشرية بدأت في أول

1 قرأن. السجدة 3.

وجودها بحالة أخلاقية أشبه بتصرف الحيوانات، واستمرت الطواطم والتابوهات والآلهة في تربيتهم أفراداً وجماعات في جميع أنحاء الأرض، وتدرجوا بهم من زمن سكن الكهوف والأشجار الى زمن سكن الأكواخ والبيوت ثم الى القرى والمدن ثم تأسيس الدول والإمبراطوريات؛ كل هذا التدرج الحضاري كان بسبب المعلم (الأنبياء).

وطالما تمر البشرية اليوم في آخر مراحل عمر مراهقتها، فليس من المستغرب استمرار تصرفات الشراسة والغلظة بأشكال أردى وأبشع بسبب مخترعات الأسلحة الفتاكة، فمستوى أخلاق البشر يتذبذب ارتفاعًا ونزولًا حسب أزمان ظهور الأنبياء والرسل. بهذا لا يمكن إلقاء اللوم عليهم لسوء تصرفات أتباعهم، فلو ارتكب ابن رجل حكيم أو تلميذ فيلسوف جنحة أو جريمة، فاللائمة تقع على الصبي والتلميذ وليس على الوالد أو المعلم.

يقول:- *(إله الربوبيين، بعد أن أشعل فتيل ما نسمّيه اليوم الانفجار الكبير، ترك كل شيء وذهب للتقاعد ولم يسمع أحد عنه شيئا بعد ذلك.)*.[1]

هذا نوع من الجهل أو التجاهل المتعمّد بما ظهر من الرسالات والرسل الذين ساهموا بتربية البشر من خلال ما جاؤوا به من نصائح أخلاقية وشرائع وضعية منذ زمن النبي آدم(ع) حتى اليوم، بل ومن قبل ذلك، فقد شهدوا جميعًا من ذات أنفسهم أن الله تعالى هو مرسلهم. وبهذا كان الله وما يزال قائم على تربية البشر.

ينقل عن جفرسون رأيه الشخصي:- *(ليس هناك روح ولا ملائكة أو إله. لا استطيع التفكير بغير ذلك)*.[2]

---

1 صفحة 40.
2 صفحة 44.

إن الفرق الروحي بين الانسان المادي والإنسان العقائدي واضح البيان، فلو نظرنا الى مشاعر المحبة والوداد والكراهية والحقد والبغضاء والذكاء والعبقرية والتفكير الى آخر ذلك من الصفات والمشاعر الوجدانية غير المحسوسة؛ نجد أن لا قدرة لنا على لمسها أو رؤيتها إلا إذا ترجمت الى أفعال وتصرفات؛ فهل يمكن القول إنها مفقودة وغير موجودة طالما لا نراها ولا نلمسها؟ إذ ليس كل ما لا يحس أو لا يشعر المرء به غير موجود، فالإنسان مخلوق روحاني في جسد مادي، والروح هي الطاقة العاقلة الخفيّة التي تحرك الأجساد مثلما تحرك الطاقة الكهربائية غير المرئية الماكنات. إن دليل وجود قوة الروح هي الحركة. ثم إن الجسد مكوّن من فلزات معدنية ومواد وعناصر طبيعية صفتها الجوهرية عدم الشعور، فكيف يكتسب الجسد مشاعر أخلاقية ومعنوية حتى ولو اجتمعت عناصره المادية واتحدت بكامل الاتقان، إلا إذا كان هذا المركّب متصلًا بقوة محركة، وليطلق عليها العلماء ما شاء من أسماء، إلا انها موجودة ولا سبيل لإنكارها إلا بسلوك سبل العناد والتعصب. إن مثل هذا النفي لوجود الروح أو نفي وجود الله تعالى أو وجود الملائكة، إنما هو بسبب ما تمر به البشرية اليوم من مرحلة مادية صرفة، وقد تكون هذه المرحلة ضرورية لتنظيف العقول من أسمال التفاسير البالية. لكن لا يوجد ما يجزم بعدم عودة المشاعر الروحية بشكل أقوى مع ازدياد التطور العلمي والانتقال الى مرحلة حضارية جديدة أعلى.

أما بخصوص وجود الملائكة ونكران 'جفرسون' لوجودها، فمن معاني الملائكة أيضًا: "المؤمنون"، بعد ارتقائهم الى مستويات رفيعة من الأيمان، لذلك اشتبه عليهما الأمر منتظرين إحساسهم بوجود مخلوقات غيبية، بينما هي وصف لحالة اعتقاد أيمانية، فكثيرا

ما يوصف شخص ذو أعمال طيبة بالملاك، بينما يوصف الشخص الشرير بالشيطان أو إبليس.

فعلى سبيل المثال، لا يمكن أخذ معنى 'الطير' حرفيًا في قصة النبي سليمان (وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ)،[1] فلا يعقل أن تجتمع هذه الأجناس الثلاث المختلفة في محضر نبيٍّ حكيم، فمجالس الأنبياء عادة ما يجتمع فيها العلماء والفضلاء والمؤمنون؛ كما أنه لا فائدة ترجى من فهم لغة الطير، ولا الطير يستفيد من الجلوس في محضر نبيّ/ملك حكيم (وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ).[2] إلا إذا كانت الإشارة قد وردت الى منطق وحوار بين رجالات علم من المؤمنين . وللتأكيد على هذا المعنى، جاء في افتقاده لطير الهدهد في مجلسه، (وتفقد الطيّر فقال ما لي لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين)،[3] فلا شك أن (هدهد) كان اسمًا لأحد العلماء، وإلا لما افتقده في مجلسه، فالبشر قديمًا وما زالوا يطلقون على أبنائهم أسماء كواكب أو زهور أو حيوانات وطيور، فوصف المؤمنين بالطيور جاء استعارة لمحافظتهم على نظافة أفكارهم من الدنس بطين الأفكار الدانية ولاتخاذهم مقامات فكرية (أعشاش) عالية بعيدة عن مستوى العوام، في حين تبقى بقية الهوام متعلقة بشتى أمور الحياة المادية. من هذا جاء وصف المعاندين والجاحدين بصفة الأنعام في القرآن الكريم: (أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلا كالأنعام بل هم أضلّ سبيلا).[4]

---

1 قرآن. النمل 17.
2 قرآن. النمل. 16.
3 سورة النمل 20.
4 قرآن. الفرقان. 44.

ولقد ورد هذا الترميز أيضًا لعدة مرات في الإنجيل الجليل. فنقرأ عن السيد المسيح(ع) تشبيهًا للإنسان بالخراف: (فلما خرج يسوع رأى جمعا كثيرا، فتحنن عليهم إذ كانوا كخراف لا راعي لها، فابتدأ يعلمهم كثيرا.)[1] فمن المؤكد أن المقصود بالخراف هنا هم البشر، إذ ليس من المعقول أن يعلّم السيد المسيح خرافًا. وفي آية أخرى يتوضح المعنى بشكل أكثر دقة في قوله:- (ها أنا أرسلكم كغنم في وسط ذئاب، فكونوا حكماء كالحيات وبسطاء كالحمام.)[2] فالخطاب هنا والتشبيهات بمجملها جاءت للحواريين.

أما مسألة وجود الله تعالى من عدمه، فذلك يتضح من خلال بديع هندسة أجساد المخلوقات وعظمة نظام كل شيء من المجرات الى الذرات وما بينهم، فالعقل البشري عاجز عن إحصاءها ولا مجال لنسبة كل هذا الترتيب الكوني البديع الى الطبيعة الجامدة، فلو كان لها إرادة وشعور وعقل، لمنعت الانسان من التحكّم بموجوداتها وخرق قوانينها.

قال جفرسون:- *(أنا سعيد ومكتفٍ بما أشغل نفسي به بدون اللا أشياء التي ربما تكون موجودة ولكن ليس لدي الدليل على وجودها).*[3]

أشعة الشمس تنعكس من المرايا الصافية، أما ما تغبّر واتسخ منها، فلا تعكس شيئًا من نورها. ومهما ارتقى الانسان في تخصصه العلمي، فهذا لا يجعله عالماً في بقية الاختصاصات، فما بالنا حين التدخّل في مجال الروحانيات وتقديم رأيّ يستنكر وجودها؟ إنه لأمر بديهي أن يكون هذا الرجل خالياً من الأحاسيس الروحانية، بسبب امتلاكه العلم فقط، فالمفروض عدم التبجّح واعلان جهله

---

1 إنجيل مرقس 6: 34
2 إنجيل متى 16:10.
3 صفحة 44.

بالروحانيات، لأنه في المقابل هناك ملايين البشر كل له اختصاصه العلمي ولا يتفاخرون بجهلهم في بقية العلوم، وكان من الأجدر به الصمت، فهذه ليست مزية تستحق المديح. إن مشاعر الروحانيات بحاجة الى روح حيّة شفافة للتعامل معها، وهو بذلك يُفصح عن خلو روحه منها.

أما عن قوله: ربما تكون هذه الأشياء موجودة ولكنها بحاجة لدليل؛ فلو نظرنا الى جميع المخترعات العلمية - وهي أمور مادية بعيدة عن مشاعر الوجدانيات - لوجدنا أنها كانت معدومة قبل اختراعها. فهل يمكن القول - طالما لم نرها أو نلمسها - إنها معدومة وغير موجودة وعلينا عدم المحاولة وارباك عقولنا بأمرها؟ إن الأمور الوجدانية بحاجة الى أدوات روحية لتناولها والتعامل معها ، والكاتب وصاحبه لا يملكان غير أدوات مادية لا تستعمل في هذا المجال، بالضبط مثل ذلك الهندي حينما سئل عن الله تعالى والعوالم الغيبية، فأجاب بلهجة كونفوشية:- (إن آباءنا وأجدادنا كانت تغنيهم هذه الأرض وحدها، لا يرجون شيئًا سوى أن يُنبت لهم السهل كلأً ويفجر لهم ماءً لتطعم جيادهم وتشرب؛ إنهم لم يشغلوا أنفسهم أبدًا بما يجري في السماء، وبمن ذا عسى أن يكون خالق النجوم وحاكمها).[1]

يبدو الأمر كما لو أن جفرسون وصاحبه يتعاملان مع الطبيعة مثل بقية مخلوقاتها التي لا تعرف عن مشاعر العقل والروح شيئًا، فهي تقول: ما دمت لا أعرف بوجود العقل والروح، فسأكتفي بمتطلبات الجسد وأنام وأصحى وآكل وأشرب وأمارس الرياضة والجنس وأؤسس عائلة وأنجب أبناء وأتمتع بالحياة مع عائلتي وأصدقائي. فما هو الفرق اذن بين أفكار هذه المخلوقات وأفكار مثل

1 قصة الحضارة. ج 1. صفحة 53. ويل ديورانت.

هذين العالِمين؟ فالفريقين في مستوى روحي واحد، ولكن ليتذكرا إن كل ما يتمتعا به من رخاء مادي وأدوات تقنية وتقدم علمي، كان سببه العقل، وهذا العقل قوة غير ملموسة ولا مادية، فهل علينا نكران وجوده؟ وهل يستطيعا إظهار مشاعر محبتهما الروحية من دون استخدام حواسهما المادية؟

يستمر في ضرب أمثلة فردية لآراء أشخاص، ولا ينفك يذكر أسماء وأسماء ومعارف وأصدقاء وكأن آراءهم حجج علمية قاطعة. إن مثل هذه الأمور الدقيقة لا تقاس بالتجارب الفردية، فهذا اسلوب لا يعتدُّ به ولا يُعتمد عليه في طرق الاستدلال العلمية والمنطقية. ثم أليس من المفروض بمن ينتقد أمرًا، تقديم بديلاً عنه؟ فالانتقاد لوحده لا يخدم تقدم البشرية ، فيا ليته ومن استعان بأفكارهم اقترحوا نظاماً سياسياً أو اقتصاديا أو اجتماعيًا يخدم البشرية ويخفف من آلامها بدلًا من استمرار نفي وجود الله تعالى، بعد أن اعترفا بالعجز عن مناقشة هذا الموضوع.

ويُكمل ناقلًا عن آخر يناهض الكهنوت:- *(تجربة المؤسسة المسيحية الرسمية امتدت حتى الان لخمسة عشر قرناً . ماذا حصدنا منها؟ على كافة المستويات بنسب متفاوتة ، فخر وكسل رجال الدين، تجاهل وذل العلمانيين المُضاعف بسبب الغيبيات وتعرضهم للاضطهاد والملاحقة.)*[1]

ليس من المنطق ولا من الانصاف في شيء المقارنة بشكل عام بين سعة عقول البشر وعلومهم في هذا اليوم وبين مستوى عقليتهم قبل عدة قرون، فمسيرة البشرية العلمية تؤخذ بمقياس عام وليس بالتركيز على شعب أو أمة دون غيرها، وظهور الحضارات بمختلف

1 صفحة 45.

مستوياتها كان حدثًا مستمرًا بين عموم البشر، فما أن تخبو إحداها حتى تضيء أخرى بين أمة ثانية. وفي الوقت الذي كانت أوروبا تخوض بحور العصور المظلمة، كانت هناك حضارة إسلامية ترتقي في جنوب شرق أوروبا انتجت كبار العلماء في مختلف مجالات العلوم والفلسفة، مثلما كان قبلهم فلاسفة الإغريق والفرس والصين والهند وحضارات البابليين والسومريين والأزتك والمايا وغيرهم مما يدل قطعًا أن البشرية هيكل وكيان واحد، كل أمة ساهمت بدورها في رفع راية حضارة البشرية جمعاء، فلا موجب لانتقاد كهنة أوروبا في عصر الظلمات. كما أنه من الخطأ اعتبار مهنة الكاهن ورجل الدين دليلًا على امتلاك العلم والفلسفة والحكمة بشكل عام. ولكن علينا التذكر بأن غالبية رجال العلم في أوروبا كانوا من القساوسة والرهبان والمعتقدين بالمسيحية أو اليهودية مثل نيوتن وكوبرنيكوس ومارتن لوثر وآينشتاين وجان جاك روسو وفولتير وغيرهم. إن الفرق بين سرعة الاكتشافات العلمية في الوقت الحالي وبين بطئها في الأزمان الماضية ، هو أن علوم القدماء كانت بكرًا لم تستند على الشيء الكثير من أسس العلوم الأولية، بينما علوم اليوم تقف بأقدام راسخة على جبال من الاكتشافات والموروثات العلمية المتراكمة.

هناك نقطتان مهمتان ترتبطان بالدين؛ هما: الحضارة والأخلاق. وقد انتبه علماء الحضارات والاجتماع الى هذا الرابط الوثيق، فجميع الحضارات قاطبة استندت على أديان في ظهورها؛ كما أن قانون الولادة والنمو والرقي ثم الاضمحلال والفناء، هو قانون كوني شامل، تدخل تحت فسطاط نظامه جميع المسائل الروحية والأديان والأفكار. فمثل هذا التدرّج في الصعود والهبوط شمل جميع الحضارات والدول والممالك ومؤسسات السياسة والحُكم؛ والكهنة ورجال الدين ليسوا استثناءً خارج نطاق قانون التدرج هذا، وبالتالي كان لا بد أن نجد

أدوارهم الفكرية والروحية تتذبذب بين العظمة والقوة والضعف والهزال، ولا غرو أن يكون أكثر رجال الدين من الجهلة والمتعصبين في نهاية حياة أديانهم، لكن في فترة شبابها وفي قرونها الأولى كانوا أساس تطوّر العلوم والمعارف، بل يمكن القول أن تطور العلوم جاء منهم بالتحديد، على اعتبار أن القراءة والكتابة كانت مقصورة عليهم داخل معابدهم. وقد سبق وقلنا أن البشرية ما زالت تعيش آخر مراحل فترات المراهقة والجهل بشكل عام،[1] دليل ذلك ما يسود العالم من ظلم وجور ومَشاهد عدم اكتراث بتعليم ومساعدة جموع الفقراء والمساكين. لكن علينا النظر الى بداية شروق نهضة الأخلاق والضمير العالمية التي لا تغفل العين عن مشاهدة آثارها واللذان ظهرا خلال القرنين الأخيرين حيث بدأت حملة استنكار لعدم احترام رجال ونساء العلم وأصحاب الكلمة والرأي والعقيدة والمطالبة باحترامهم وعدم رميّهم في السجون والمعتقلات، مما أوجد حركة فكرية عالمية لها آثارها الواضحة.

أما اقتباسه مقولة "جون آدامز":- *(لو لم يوجد الدين لكان هذا العالم أفضل ما يمكن أن يكون).*[2]

هذا نوع من التخبط الواهم وقراءة سيئة لعلم الأديان وأدوار قوة روحانيتها الايجابية، فلو لم يوجد الدين والأنبياء والكهنة والسحرة ، لما تعلَّم البشر أي شيء واستمروا على حالتهم البدائية حتى يومنا

1 تطور الوحي حسب تطور الإنسانية هي التي راجت في فلسفة التنوير عند كانط وهردر وخاصة عند ليسنغ عندما أعلن في "تربية الجنس البشري" مرور الإنسانية بمراحل ثلاث: مرحلة الطفولة التي تقابل اليهودية "إله الأمر" مرحلة المراهقة التي تقابل المسيحية "إله الحب" ثم مراحل العقل التي تقابل فلسفة التنوير أي استقلال العقل البشري والإرادة الإنسانية، ويمكن أن يقال: إنها المرحلة التي عبر عنها الإسلام كما يعبر عنه المعتزلة وابن رشد. (اسبينوزا. صفحة 50.).

2 صفحة 45.

هذا، ولما تمتعنا بالمخترعات والاكتشافات والتقنية على الاطلاق، ولبقيت هراواتنا بين أيدينا.

أراه متشبثًا بآراء آدامز، فينقل عنه مرة أخرى قوله:- *(المسيحية كما فهمتها كانت ولا تزال روحانية. فما هو السبب أن الملايين من الخرافات والقصص والأساطير قد مزجت بالروحانية اليهودية والمسيحية لتجعلهما أكثر الأديان التي وجدت دموية)؟*[1]

سبق وجئنا على هذا الموضوع. ولكن بالمختصر، إن من أسباب ذلك، أن هذين الدينين ودين الاسلام من بعدهما، ظهرت في عهود شاع فيها استعمال القوة والسيف كنظام عام متبع للتعامل بين البشر منذ أقدم الأزمنة، ولولا هذا الأسلوب - إن كان في الدفاع أو الهجوم - لما بقي لهذه الأديان من أثر ، ولكانت البشرية قد فقدت أعظم مصادر سبل تطورها . بل يمكن القول إنها كانت "السبيل الوحيد" للتطور. لكن قانون القوة والسيف هذا، أصبح اليوم أمرًا مستهجنًا ومرفوضًا بدليل ارتفاع الأصوات في أنحاء العالم لإدانته والتخلي عن الحروب والمطالبة بنزع السلاح واحلال سيف الكلمة بدلا سيف الحديد.

كان على اليهود في أول أمرهم، انتهاج منهج القسوة في تعاملهم مع غيرهم من الأمم مثلما تعاملت معهم بقية الشعوب والقبائل من حولهم بسبب اتصال تاريخ جميع البشر الوثيق مع الحالة البدائية العامة. أما في حالة الديانة المسيحية، فالأمر مختلف، لأن اليهود لم يمهلوا السيد المسيح(ع) الوقت الكافي لاستكمال مشروعه الديني وتقديم أحكام شريعته الجديدة ، فعمر كرازته لم يمتد أكثر من ثلاث سنوات ونيّف؛ من هنا، وجد المسيحيون أنفسهم بحاجة الى أحكام

---

1 صفحة 45.

تشريعية لإدارة شؤون أمتهم، وبذا لم يكن أمامهم إلا العودة للعمل بأحكام شريعة آباءهم، شريعة التوراة. وبهذا استمرت عملية القسوة في التعامل الاجتماعي حيث انسحب ذلك الى جذور الموروثات التي سجّل التوراة جزءا من مناهج الأساطير وقوانين أديان تعدد الآلهة على بعض صفحاته. من هذا عندما توصف شريعة التوراة ومن بعدها شريعة القرآن، بصفات القسوة والعنف، فهذا يعود الى مستوى البشر الاجتماعي في ذلك الوقت، حيث كان لا بد لأحكامهما الاتصال بما سبقها من أحكام أمم عاشت في عصور الوحشية والهمجية والتأثر بها. ينقل الفيلسوف ديورانت صورة عن الأمم الهمجية القديمة وكيف كانت تتعامل بقسوة شديدة فيما بينها، قال:- (تقاتل الناس على الطعام والأرض والمرأة قد روى الأرض بدماء البشر، ولم ينج من ذلك جيل واحد من الأجيال؛ كان الإنسان البدائي قاسياً إذ كان حتماً عليه أن يكون كذلك؛ فقد علّمته الحياة أن تكون ذراعه على استعداد للضرب دائماً، وأن يكون له قلب يستسيغ "القتل الطبيعي"، وأسوَد الصحائف التي تصادفك وأنت تقرأ علم الأجناس البشرية، هي تلك التي تروي لك عن التعذيب الذي يسود الحياة البدائية، وعن الفرح الذي ينتشي به كثير من البدائيين رجالا ونساء إذا ما أنزلوا بأحد ألماً). ويكمل السرد:- (في بعض القبائل ترفض المرأة أن تتزوج من رجل لم يقتل أحداً في قتال، سواء في ذلك أكان القتال سليم الأساس أم فاسدة؛ ومن هنا نشأت عادة اصطياد الرؤوس التي لا تزال باقية في الفلبين حتى اليوم؛ وعند قبيلة "دياك" Dyak يكون للرجل الذي يعود من مثل هذا الصيد البشري بأكبر عدد من الرؤوس، أن يختار من يشاء من بنات القرية... وحيث يغلو الطعام ترخص الحياة، فأبناء الإسكيمو لا مندوحة لهم عن قتل والديهم إذا ما أصبح هؤلاء من الشيخوخة بحيث لا يقوون على شيء، ولا يصلحون لشيء،

فالامتناع عن قتلهم في مثل هذه الحالات يعتبر مجافاة لواجب البنوّة).[1]

ومع كل ذلك التاريخ المتّسم بالقسوة والعنف والنضال، يمكن ملاحظة الناحية الروحية والأخلاقية في الديانة المسيحية، بل وفي جميع الديانات، من خلال ما كان لأدوار القديسين والرهبان ورجال الدين في قديم الزمان من مآثر التضحية بأرواحهم في سبيل تربية أخلاق البشر، ناهيك عمّا قدمه ويقدمه المجتمع الغربي المسيحي اليوم من مساعدات ومعونات للمهجّرين والمشرّدين واللاجئين القادمين من دول الشرق المضطربة، فمشاعر الرحمة والعطف وما شابه ، تعلمها البشر من الأديان وأنبيائها، فالإنسان لا يخلق أو يوجد المشاعر القلبية والضمير من ذاته ، بل يتعلمها ، وإلا فهو ميّال لسلوك سبيل الطبيعة الشرسة والعنيفة.

يسخر من أحد المسيحيين المتعصبين في قوله إن الدعاء يشفي مرضى السكري والسرطان.[2] مثل هذه المعتقدات والأفكار لا تقتصر على أمة من الأمم الدينية بعينها، فالجميع لديهم نماذج من هذه المعتقدات توارثوها عن أجدادهم. ولقد ظهر في العراق أخيرًا بعض دعاة الدين وهم يوزعون قطع حلوى على أتباعهم مدّعين أنها تحصنهم من وباء الكورونا، بعد أن يلوثها رجل الدين بالبصاق.

وعندما ينقل دوكنز عن السيد "نهرو" أمله في اختفاء ظاهرة التديّن من بين الشعوب، لأن دعوات رجالها في غالبية الأحيان مبطنة برغبات ومصالح شخصية.[3] فهذا رأي سليم لأن الأديان القديمة قد ماتت وفقدت روحانيتها وما عادت تحمل قوى روحية تناسب الزمن

1 قصة الحضارة. المجلد الأول. ويل ديورانت صفحة 49.
2 صفحة 46.
3 صفحة 47.

الحالي؛ لذلك فمن الطبيعي أن تخلو أرواح غالبية رجالها من حقيقة روح الايمان.

قال:- *(وعلى اي حال فإن نظرية الله بأي شكل من أشكالها ليست ضرورية).*[1]

وهي كذلك فكرة غير ضرورية للحيوانات والحشرات والخنافس والنبات، فجميعها تنمو وتتزاوج وتأكل وتشرب وتنام ولا تدرك علاقتها بالله تعالى، لأنها لا تملك عقلًا لتعرفه أو تميّز إعجاز ابداعاته في خلقه . أما حين التساؤل عن موجد هندسة الأكوان والنظام الذرّي ونظام التطوّر العام ، فعلينا مجاراة رأي الكاتب، والقول: إنها الطبيعة الفوضوية التي خلقت هندسة هذا النظام البديع المتماسك.!

قال:- *(دعونا الآن نلتفت للا أدرية والفكرة الخاطئة عن أن وجود أو عدم وجود الإله هو سؤال عبثي ، لأن العلم لم ولن يتمكن من الوصول الى جواب له).*[2]

حسب قانون الأضداد، مثلما تثبت الأمور والمسائل المادية بالعلم، كذلك ليس للعلم مجالا في اثبات الروحانيات.

قال:- *(السؤال عن الحياة خارج الكرة الأرضية سؤال مفتوح على الطرفين وهناك آراء جيدة في صالح الجهتين).*[3]

من الوارد وجود مخلوقات عاقلة أو غير عاقلة على كواكب أخرى تبتعد بمسافات تقارب المسافة بين شمسنا وقوة إشعاعها وأرضنا ونوعية تربتها، أو بذات نسبة حجميهما . فالتقدم العلمي

---

1 صفحة 48.
2 صفحة 48.
3 صفحة 49.

والتقني وظهور مزيد من المخترعات كفيل بإيجاد سبل معرفتها أو التواصل معها مستقبلا.[1]

يتساءل:- *(لماذا يحترم العلِم بشكل عظيم طموح رجالات الدين؟)*.[2]

الجواب: إنها مسألة قديمة متوارثة، نبعت بسبب انحسار العلوم بين أيدي الكهنة والسحرة ورجالات الدين منذ بداية ظهور الوعي عند الانسان، فكانوا هم القائمون على خدمة الناس والمخبرون عن أحوال الطقس والمناخ وتفسير الأحلام والممارسون للطب البدائي والعلاج وشفاء المرضى وترتيب طقوس الدفن اضافة الى ممارسة علوم التنجيم واختراع الكتابة؛ كل ذلك وغيره كان مقتصرًا عليهم مما أدى الى إرث احترامهم.

لا يوافق دوكنز أن الأديان هي مصدر الأخلاق . وينتقد أحكام القتل في التوراة للزناة ولمن عاق والديه ولمن جمع الحطب يوم السبت.[3]

إن الأخلاق في أصلها، أمر معنوي غير ملموس، وبذلك يصعب على الإنسان البدائي أو الطبيعة المادية أن يكونا مصدرها؛ لذا .. لا بد أن جاءت عن مصدر فوقي. أما عن ممارسة الأحكام القاسية، فلقد كانت مرحلة تاريخية ممتدة من مرحلة قسوة همجية البدائيين. أما عن تحديد أيام الأسبوع السبعة، فلقد ورد في التوراة: (وفرغ الله في

---

1 ورد في كتاب "سحر الواقع" لذات المؤلف. اشارته لوجود مخلوقات على كواكب أخرى تبعد عن شموسها ذات المسافة بين شمسنا وأرضنا. قال:- *(يمكننا القول إنه لو كان هناك شيء ما مماثل لنوع حياتنا، على الأقل، فمن المحتمل أن يكون على كوكب يبعد مسافة ظاهرية من نجمه مساوية تقريبا لبعدنا عن الشمس)*. صفحة 144. وفي موقع آخر من ذات الكتاب، يعود ليؤكد وجود حياة أخرى في كواكب بعيدة:- (أقول نعم توجد حياة، ومن المحتمل وجودها على ملايين الكواكب.). (صفحة 193).

2 صفحة 58.

3 صفحة 59.

اليوم السابع من عمله الذي عمل... وبارك الله اليوم السابع وقدّسه)،[1] فنظام الأسبوع من وضع الشريعة اليهودية. لقد كان الإنسان منذ القِدم يعمل بجدّ وارهاق في المهن اليدوية المتعبة طوال الوقت لا يعرف معنى الراحة والهدوء، فكان لا بد من فسح مجال له للابتعاد عن مشاغله اليومية للاهتمام بصحته وشؤون أسرته وفسحة للتفكير والتأمل والإبداع.

يقترح:- *(لعل علينا الاختيار القيم التي تناسبنا من بين ديانات العالم. ما هي المعايير التي نستعملها؟).*[2]

نلاحظ هنا اعترافه الضمني أن الأديان هي مصدر قيم الأخلاق. أما عن مشاعر استهجان قوانين الأديان القديمة ورفض الناس التعامل بها، فلقد أصبحت اليوم حالة منتشرة بين شعوب الأرض، لا فرق بين أمة وأخرى، وغالبية الشعوب ابتعدت تدريجيًا عن قوانين شرائع أديانها وتقربت من القوانين الوضعية وتطبيق قانون حقوق الانسان. وانتباه دوكنز لهذه النقطة، لا يعد سابقة فكرية تحسب له، بل يشاركه بها كثير من المفكرين وعامة البشر. وطالما أن هذا الرفض أصبح مفهومًا عامًا، فهي إشارة واضحة الى تقدم الفكر والمشاعر الإنسانية النبيلة بشكل عام. وكانت ساعة البداية لهذا التغيير الشامل بحلول القرن التاسع عشر، حينما تبدلت أرض العلوم وسماء المعارف بغير أرضها وسماءها، فتنوّرت الأرض ببزوغ نور شمس علوم ومعارف حديثة كان من نتائجها ظهور أفكار ومبادئ ونظريات عالمية متطورة، غيّرت كثيرًا من نظم الشعوب الاجتماعية وتفكيرها، تمخضت أخيرًا عن ظهور قوانين الأمم المتحدة ومشروع حقوق الانسان.

---

1 سفر التكوين 2:2.
2 صفحة 59.

ويتساءل:- *(لماذا لا نستبعد ذلك الوسيط ونختار قيمنا بمعزل عن الدين؟)*.[1]

الجواب: علينا العودة الى أساس هذا الموضوع لنأخذ فكرة واضحة عنه عندما كان الانسان البدائي في العصور القديمة جاهلًا لا يستطيع التمييز بين التصرفات السيئة والجيّدة، خاصة وقد ورث عادات وتقاليد الطبيعة الشرسة فلم يعرف سوى مطاردة الحيوانات واصطيادها والتقاط الثمار وقطفها.[2] فمن ذا الذي علّمه حسن التصرف طالما كان جميع البشر قد خرجوا من رحم الأرض بمستويات عقلية بدائية متقاربة، بل ومتساوية؟ لا يوجد تفسير علمي معتبر لذلك، إلا إذا توجهنا نحو أعمال الآلهة أو أنبياء الأديان قديمًا، فهم فقط من جاء بتعاليم الأخلاق والعلوم للبشر . وقد جاء سؤال دوكنز في هذا الزمن المتقدم بعد تطور العقول وانتشار العلم والتعليم وشيوع تعاليم الأديان وتطبيقها في كل مكان. ورغم نسيان مصدرها الحقيقي، إلا أن ذلك لا يعني الغفلة أو التنكّر لأولئك الروّاد الحقيقيون. فكل ما قد يختاره ويبتكره دوكنز أو غيره من المفكرين من قيم الأخلاق ومبادئها الحسنة، قد سبق ووردت من قبل في تعاليم الأديان قطعًا، فهي المصدر الأساس للأخلاق.

قد يصح القول أنَّ في الإمكان اعتماد البشر على أنفسهم اليوم في معرفة الخطأ من الصواب، والحلال من الحرام، وما يجرّمه

---

1 صفحة 60.

2 من المستغرب أن يتبنى دوكنز رأيًا، لا أظن أحدًا من القراء يوافقه عليه. حينما قال أن قدماء البشر كانوا يعملون في ظلمات الليالي لكسب عيشهم، رغم أن الحوادث والمعوقات والأخطار تكون أكثر أثناء الليل. فكيف كانوا يطاردون الطرائد ويمسكون بها أثناء العتمة؟ وكيف لهم التقاط الفواكه والتمييز بينها؟ وكيف عرفوا القريب والغريب والصديق من العدو؟ وغير ذلك من الأمور الكثيرة. قال: *(من **المحتمل** أن المهن الليلية ترجع وراءا الى أسلافنا كلنا نحن الثدييات. فمن **المحتمل** أنه وقت أن كانت الديناصورات تهيمن على اقتصار النهار، فإن أسلافنا من الثدييات لم يتمكنوا من الإبقاء على حياتهم إلا لأنهم وجدوا طرقا لكسب العيش بالكاد في الليل.)*. (صانع الساعات الأعمى. صفحة 46).

القانون أو يسمح به، فوسائل الاتصال والتثقيف دخلت كل زاويا البيوت؛ إلا أن علينا أن لا ننسى أنه حتى كبار قدماء الفلاسفة فشلوا في محاولة تربية واصلاح أخلاق مجتمعاتهم، وكل ما استطاعوا فعله إصلاح سلوك أعداد قليلة من تلاميذهم.

يقول الفيلسوف فولتير:- (في أيامنا! وفي زمن حققت فيه الفلسفة كل ذلك القدر من التقدم! وفي وقت تَنشر فيه مئة أكاديمية بيانات تدعو إلى تهذيب الأخلاق والتخفيف من قسوة الأعراف! ولكن يبدو أن التعصّب الذي ساءه ما حققه العقل من إنجازات، راح يتخبط تحت وطأته بمزيد من الغيظ والحنق.).[1]

وهنا نتساءل: ما هي هذه القوة العجيبة والقدرة الكامنة فيما أطلق عليه (روح القدس، أو جبريل، أو النار المقدسة) التي استطاعت تقويم أخلاق البشر من مختلف الخلفيات والأجناس والقوميات واللغات؟ أليس في ذلك معجزة مكررة تلفت انتباه المتبصرين؟

وحينما يقول إننا كعلماء لا يمكننا التصريح بنفي أو تأكيد وجود الله تعالى.[2]

إن الذات الإلهية غيب منيع غير مادي الخواص، وبهذا فمن المستحيل الاستدلال عليه بالطرق المادية أو العقلية إلا من خلال تفحّص اعجازات موجودات الطبيعة ومخلوقاتها. كما أن في قول السيد دوكنز، إخفاء لجانب من الحقيقة، فغالبية فلاسفة الفرس والإغريق واليهود والمسيحيين والمسلمين إضافة الى أساطير آلهة الحضارات العراقية والمصرية، صرّحوا بوجود خالق خفيّ للطبيعة وموجوداتها. فإثبات وجود الله تعالى لا يتحقق بكسب اختصاص علم محدد، بل بوجوب امتلاك روح إنسانية متنورة. ومن المؤكد أنك

1 فولتير. رسالة في التسامح. صفحة 14
2 صفحة 60.

تتفق معي عزيزي القارئ، أن الانسان لم يخلق نفسه بنفسه، ومن المؤكد أن صفاته وقدراته العقلية لم تأت من الطبيعة، فلقد ثبت أن الانسان أقوى منها ومسيطر عليها، فكيف يكون الجزء (الانسان) له قدرات وكمالات أكثر من الكل (الطبيعة). أما لو كان للإنسان إحساس روحي لاستغنى عن دليل لإثبات وجود الله تعالى.

ثم يطرح مجموعة من الأسئلة عن السيد المسيح(ع):-

(هل كان للمسيح عيسى أب إنساني)؟[1]

سيكون الجواب من باب (اتفاق الدين والعلم): **نعم** . كان للسيد المسيح أب وأم من البشر . وتأكيد ذلك نأخذه من كتاب الإنجيل ذاته، فقد ذُكر أنه كان مشهور النسب بين قومه:- (أليس هذا هو يسوع بن يوسف، الذي نحن عارفون بأبيه وأمه؟).[2] وتؤكد كذلك الآية التالية وغيرها الكثير على ذات المفهوم:- (فقالت الجموع: "هذا يسوع النبي الذي من ناصرة الجليل").[3] إن القانون الوضعي يتقبل شهادة رجلين لإثبات أمر حادثة ما، فما بالنا بشهادة جموع من البشر.

أما لماذا بقيت مسألة بشرية السيد المسيح وألوهيته معلقة لم يجزم بأمرهما، فذلك لأن طرفي النزاع، القائلين: (بإلوهيته أو بشريته)، قد تماديا في الاثبات والنفي حتى جاوزوا حدّ المعقول. وإلا فعند الرجوع الى ذات الإنجيل نجده قد عاش في حارة صغيرة ويعرفه ويعرف والديه جميع سكانها حيث كانت البيوت آنذاك صغيرة ومتلاصقة ومتداخلة، وبالتالي كانت كل عائلة تعلم أدق أسرار عوائل الجيران الأخرى ولا تفوت عنهم فائتة، وبهذا لن يخفى على سكان أو نساء حارة أو زقاق صغير خبر حبل أي سيدة بينهم

---

1 صفحة 61.
2 إنجيل يوحنا. 42:6.
3 إنجيل متى. 11:21.

أو ختان أي طفل أو مرض شيخ وموته أو سفر أحدهم، حيث لم يكن لتلك العوائل في ذلك الزمن القديم ما يتسلون به ويمضون به أوقاتهم سوى أخبار عوائلهم وعوائل الأقرباء والجيران في حواريهم الصغيرة. وبهذا لا يعقل أنهم غفلوا ولم ينتبهوا عن خبر السيدة مريم إذا كانت قد حبلت أم لا من زوجها يوسف النجار . كما نجد من معارف السيد المسيح(ع) شهادة أخرى عن أصل نسبه في الإنجيل:- (أليس هذا هو النجار ابن مريم، وأخو يعقوب ويوسي ويهوذا وسمعان؟ أوليست أخواته ههنا عندنا؟).[1]

أما ما يحجب دوكنز وغيره عن إمكانية تصور أحوال تلك الأمم القديمة، هو الفرق الكبير بين أحوالهم وأحوال مجتمعه الغربي بما هو عليه من تقدم حضاري، حيث لا علم للجار بأخبار جاره، والجميع يحرص على التكتم وسريّة أمور عوائلهم ويغلقون أبواب بيوتهم لا يتزاورون إلا بمواعيد مسبقة؛ فهذا أحد أسباب عدم تمكّنه من تصور أحوال الناس في المجتمعات الشرقية قبل ألفيّ سنة وكيف كانوا يعيشون . لكن - نحن أهل الشرق وسكان ذات المناطق والحارات القديمة الباقية - ما زالت أحوالنا الاجتماعية تشابه بشكل من الأشكال أحوال تلك الأمم، فالبيوت مشابهة لأبنية تلك الأنماط، والمهن اليدوية القديمة ما زالت آثار بقاياها، ونفوس الناس وطباعهم وعلاقات التعاون وحالة القيل والقال والتدخل في شؤون الآخرين وغير ذلك الكثير؛ كلها ما زالت من سمات أهالي هذه المناطق الشعبية. فأبواب البيوت قديماً تبقى مشرَّعة طوال ساعات اليوم لمن يدخل ويخرج، ونساء الحارة والجيران يتزاورن دون مواعيد أو مقدمات مسبقة، وتبادل أدوات الطبخ وحاجات البيت والمشاركة في أعمال المنزل

1 إنجيل مرقس 3/6.

وإقامة المناسبات والعناية بالأطفال وارضاعهم (اخوة الرضاعة) ورعاية المرضى ، أمر لا تجده اليوم كثيرًا في الشرق أو الغرب. وبذلك يكون أمر خطبة أو حفل زفاف أو مراسيم زواج أو شهور حمل السيدة مريم واستمرار كبر حجم بطنها وضوضاء ساعة الولادة وما صاحبها من آلام وصراخ وضرورة تجمع سيدات الحارة وعجائزهن لتقديم المساعدة ، أمر لم يكن في الإمكان تصور إخفاءه أو التستر عليه، إضافة الى أنها من الأخبار المفرحة التي يحلو للجيران والأقرباء سرعة تناقلها ونشرها.

والأمر الأكثر أهمية، أن يكون يوسف النجار هو والد السيد المسيح بالفعل، وإلا لأتهم بجريمة الزنى ووقع تحت طائلة حكم القتل حسب شريعة التوراة. وبالتالي لن يقتصر تكذيب وتشكيك الملحدين بحق ولادة أو وجود السيد المسيح على ما ورد في الإنجيل فقط، بل سيمتد لتكذيب كتاب القرآن الذي ذكر حادثة الحمل بكلمات تحمل معاني روحانية سامية.

أما عن مسألة إلوهية السيد المسيح(ع) أو بشريته، فلقد بقيت هذه المسألة معلقة ومتداولة للجدل والنقاش والتصادم أكثر من ثلاثة قرون، ولم يجزم بأمرها أنصار الفريقين حتى انعقاد مجمع نيقيا سنة (325م)، حينها انتصر الرأي الأول، ومن ساعتها عمَّ الأخذ به بين غالبية المسيحيين، ولو قدِّر للرأي الثاني بقيادة القديس أريوس أن ينتصر، لوجدنا اليوم غالبية المسيحيين يعتقدون ببشرية السيد المسيح، وأنه رسول من عند الله تعالى.

(هل كانت أمه "السيد المسيح" عذراء يوم ولدته؟).[1]

1 صفحة 61.

علينا قبل كل شيء تناول المقصد من كلمة "عذراء" في معناها الديني الشرقي القديم، فهي تعني امرأة شريفة طاهرة، ولا تعني كلمة "ثيب"، مثلما كان يطلق في الشرق أيضًا على الزوجة المصونة المحترمة، صفة (المعصومة)، فليس المعنى كما يُفهم منه ظاهريًا أن السيدة مريم كانت باكرًا أثناء الولادة. فهذا أمر لا يتفق مع قانون الطبيعة ولا يقبله علم ولا عقل.

(هل أقام المسيح لعازر من الموت؟).

إذا كان السيد المسيح قد اقام لعازر أم لم يقمه، فلقد عاد ومات ليعازر مثل غيره ولم يخلد حتى يُخبر ما كان من أمر قيامته. لكن يمكن استشفاف معنى روحاني آخر بالقياس من آية إنجيلية أخرى مقاربة المعنى:- (اتبعني، ودع الموتى يدفنون موتاهم).[1] فإذا لم يكن لهذه الآية معنى غير حرفي، فهل يمكن التصديق أن الموتى يدفنون موتاهم؟ إلا أن يكون المعنى على سبيل المثال: دع موتى الأيمان يدفنون موتى الأجساد. أو كما ورد في القرآن الكريم:- (كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم اليه ترجعون).[2] فالإشارة في الكتابين تعني موتى روح الأيمان، وليس موتى الأجساد، لأن الكافرين لم يكونوا أموات أجسادٍ فأحياهم الله تعالى ثم ماتوا مرة أخرى. وبهذا يتشابه المعنى في آيتي الكتابين. وإلا فليس من المعقول أن يكلم الله تعالى بشراً على قيد الحياة ويقول لهم: كنتم أمواتاً. فهذه الآية وما شابهها قد تسببت في اعتراض الأعراب على النبي محمد(ص)، لعدم فهم معناها الروحي، ومن الوارد أنهم سخروا وتسائلوا: متى كنا أمواتًا وأحيانا الله؟ أو متى عشنا في الظلمات ونحن سكان صحراء تحرقنا أشعة الشمس طوال النهار؟ أو متى عشنا تحت

1 إنجيل متى 22/8.
2 قرآن. سورة البقرة 28.

طبقات الارض بعيدًا عن أشعة الشمس ونورها؟ كما أن هناك آية أخرى والكثير غيرها، بذات المعنى الروحاني:- (الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات الى النور).[1] هنا جاء البيان واضحًا أن الأيمان يخرج البشر من ظلمات الغفلة والكفر الى أنوار الأيمان والعلم. لهذا لا بد من معرفة طريقة التمييز بين معاني الآيات الروحية والآيات المادية، فما يخالف في معناه الظاهري قوانين الطبيعة والعقل، لا بد أن يكون له معنى روحي آخر.

يبدأ من الصفحة 63 بالكلام عن أثر الدعاء في شفاء المرضى واحتمال وجود مخلوقات أخرى في باقي المجرات ومواضيع جانبية، ويأتي بأمثلة لتجارب جمعيات وتعليقات لأفراد. وقد سبق ورددنا على هذه الاعتراضات، فلا ضرورة للتكرار.

1 سورة البقرة 257.

الفصل الثالث
(الدليل على وجود الله)[1]

(إن الإنسان، في بحثه عن المعرفة في الكون، هو أشبه بحشرة للبطاطة، في ثمرة بطاطة، في كيس يرقد في عنبر سفينة، وهو يحاول أن يستكشف ، من خلال حركة السفينة، طبيعة البحر العظيم).[2]
آرثر أدنغتون

يقول السيد دوكنز إن من السهل دحض الأدلة الخمسة التي عرضها توماس الأكويني في القرن الثالث عشر في اثبات وجود الله تعالى. وبهذا يدفعنا هذا التكرار للعودة الى إدانة هذه المقارنة المجحفة بين علوم القرون القديمة مع علوم اليوم. ثم يأتي على تأييد رأي بعض علماء المنطق، بأن الله لا يمتلك علمًا وقدرة كليّة وغير قادر على التدخل لتغيير مجرى أحداث تاريخ البشر![3]

لم يخبرنا دوكنز، على أي نحو يقترح على الله طريقة أو نوعية التغيير؟ وهذا يذكرنا بمثال السيد المسيح(ع) الذي سبق ذكره عن صعوبة التعامل مع البشر وتحقيق رغباتهم. كما يذكرنا بحالة طفل يصرخ طالبًا لعبة أو حاجة ما، ولا تجد والدته خيارًا إلا تنفيذ رغبته، لكنه يتخلص منها ويهملها بعد وقت قصير. ويعلق الفيلسوف كيرتشر بشأن الانسان الراشد:- (الانسان مخلوق حرّ. فهو يمتلك القوة

1 الصفحة 78
2 أعاجيب الكون السبعة. نارليكار. صفحة 295.
3 صفحة 80.

والإرادة للاختيار فيما يتعلق بأفعاله وتصرفاته، القدرة على الاختيار بين "الخير والشر". قد يمد له الله يد المساعدة، أو قد يغويه الشيطان، لكن الخيار النهائي يكون بيده وحده ولا أحد غيره). بهذا فمن يسأل لماذا لا يتدخل الله في تغيير مجرى التاريخ، يكون بعيدًا عن جوهر المفاهيم الدينية والروحية وغير مطّلع على أبسط مراحل مناهج سبل تدرّج رقيّها، إضافة الى جهله بحقيقة البرنامج الكلي للذات الإلهية في تربية البشر.

ونعود للتعليق: لماذا يريد من الله التدخّل لتغيير مسار التاريخ الذي يصنعه البشر بأنفسهم؟ هل سبق ووعد الله بذلك؟ أم هو مجرد لهو واعتراض؟ إنّ الأمور الّتي تدخل تحت اختيار الإنسان كالعدل والإنصاف والظّلم والاعتساف، وبالاختصار أعمال الخير وأفعال الشّر، من المعلوم أنّ لإرادة الإنسان دخل كبير فيها، ففي استطاعته أن يكون عادلاً أو ظالماً، فهذه الأعمال والأفعال تحت تصرّفه واختياره . وعندما تترجح كفة الشرور على المبرّات ، يكون الإنسان هو المسؤول عنها وعليه تحمل مسؤوليتها، لأن رسل الله سبق ووضعوا مناهج الحياة والأخلاق وشرائع المجتمعات، لكن الانسان تدفعه نفسه الأمارة لرفضها والتمرد عليها لتمسكه بملذات الجسد؛ فإذا نزلت به مصيبة نتيجة أفعاله السيئة أو لخلو قلبه من الأيمان، تمرّد على الله ليحمَّلَه نتائج أفعاله ويطالبه بتصحيحها. إضافة لذلك، على الانسان أن يفهم أن الله غيب منيع لا يتدخل في الأمور المادية، لذا عليه تحمّل نتائج تصرفاته ورفضه وعناده، أو عليه الاستعانة بما جدَّ من تعاليم الرسل إذا كان يبحث حقًّا عن حلول لمصائبه وصادق في رجاءه لله تعالى. إن حالة البشرية اليوم، مثل مراهق عنيد قوي وعنيف، لكنه مريض نفسيًا، فعندما يقدم له طبيب خبير دواءً مناسبًا، يظن بعدم حاجته الى مساعدة أو دواء، فيرفض تناوله؛ وبدلًا من

ذلك، يواجه الطبيب بالعنف والشتائم رغم لطفه ونصائحه، وبهذا لا يجد الطبيب بدًا من التراجع وتركه يعاني من آلامه وأوجاعه، عسى أن ينتبه لمرضه ويعود لرشده ويتناول الدواء.

يعود ليناقش رأيًا لأحد الأساقفة عاش في القرن الحادي عشر.! فيذكرنا ذلك بما ظهر أخيرًا من نهضة فكرية وعقول متحررة بين أهل الشرق تدعو لتجنب أفكار وتفاسير رجال دين ماتوا قبل أكثر من ألف سنة وضرورة التشبث بأهداب العلوم الحديثة.

ينقل عن أحد الموسيقيين - وهنا نلاحظ سفاسف استدلالات المؤلف - قوله:- *(إذا كنت تستطيع سماع موزارت، لماذا تحتاج الله؟)*.[1]

يأنف كاتب هذه السطور متابعة تكرار مثل هذه الأقوال، فمن الواضح أن "دوكنز" يتجنّب عن عمد ما أثبته علماء الحضارات والأنثروبولوجيا بأن كهنة الأديان هم أصل جميع العلوم - رغم أنه أيد ذلك في كتاب آخر -[2] فهم من اخترع الموسيقى وآلاتها وكتبوا النوتة الموسيقية ورتّبوا سلالمها حينما كانوا يرتلون عبارات التعبّد والأناشيد الدينية في معابدهم وينشدونها في مناسباتهم وأعيادهم، وهم الذين علّموا البشر الكتابة والقراءة حيث كانت العلوم والمعارف محصورة في معابدهم، لأنهم كانوا أول حواريو وتلاميذ الآلهة/الأنبياء أصحاب مبادئ العلوم والتعليم الأولي، وبذلك يكون ما ألَّفه كبار الموسيقيين أمثال موزارت وبتهوفن وشوبان، قد نبع بالتدرج والتطوير أساسًا من علوم أولئك الآلهة القدماء، ولولا

---

1 صفحة 88.

2 أشار دوكنز في كتابه "سحر الواقع" صفحة 13، الى مشاركة الكهنة والرهبان في ظهور المخترعات. قوله:- *(في القرن التاسع عشر، أجرى راهب نمساوي يدعى جريجور مندل Gregor Mendel عدة تجارب في حديقة الدير حيث يقيم، لاستنبات حبوب البازلاء بكميات كبيرة.)*.

علومهم الأولية، ما سمعنا روائع الفنون في الموسيقى والشعر والغناء، ولا شاهدنا فنون الرسم والنحت والرقص. لكن الرجل يتجاهل حقيقة تسلسل منابع العلوم، أو هو لا يعرف ذلك.

وفي جدلية عبثية، يذكر أن الإله الموجود لن يكون أعظم ما يمكن تخيله، لأن الإله الغير موجود أعظم وأكثر إثارة للدهشة.[1]

قبل كل شيء، لا يمكن للعقل تخيّل ما لا يوجد في الطبيعة، فحدود التأمل والخيال محصور فيما يتعامل معه العقل والحواس ماديًا. والله تعالى ذاتٌ غير مادي، وبذلك يستحيل على البشر ادراكه، فليس للمخلوق أو المصنوع قدرة على تخيّل الخالق أو الصانع، وقد سبق وأخبرنا سفراءه وأنبياؤه أن ذات الله ذات غيبية ليست مادية حتى يمكن التعامل معها بحواس الجسد ومعرفة شيء عن كنهها، بالإضافة الى أن الواقع المادي يثبت ذلك . والنقطة المهمة الأخرى، إذا كان الله غير موجود، فالعدم لا يصدر عنه أو ينتج منه شيء، فلا بد من موجِد ليوجد الموجودات، فهي لا توجد أو تخلق ذاتها. ثم أن العقل البشري بجميع ملكاته وقدراته عاجز عن تخيّل الله، فكيف لـ "مَلكة التخيّل"، وهي جزء من قواه معرفة ذات الله؟ فمن المؤكد أن الخيال (الجزء) سيفشل في هذه المهمة. حاول بنفسك تخيّل شيء غير موجود في الطبيعة أو تصوّره، وسترى مقدار عجزك وماذا ستتوصل له.

من الطريف أن يخالف السيد دوكنز هذه الحقيقة العلمية ويقول أن في الإمكان تخيّل أشياء غير موجودة في الطبيعة، وفي نفس الوقت يقول: (لكنه بعيد الاحتمال)! فياليته يرسو على شاطئ محدد لنتمكن من تتبع ما يريد قوله:- *(هناك مليون شيء يمكن لنا أن نتخيله*

---

1 صفحة 85.

لكنه بعيد الاحتمال *عن الواقع: الجنّيات والعفاريت، الجان و الحيوانات الخرافية).*[1] وهذا خطأ علمي وفلسفي فاضح، فإذا أردنا تخيل شيء غير موجود، فلا بد من مقارنة صورته بصورة شيء مادي موجود بالفعل داخل الطبيعة (حيوان أو نبات) حتى نعطيه صورة ذهنية، وإلا فمن المستحيل ذلك، لأنه سيبقى اسمًا ووهمًا بدون شكل أو صورة حقيقية. كما أن صورة هذا الخيال، تختلف وتتعدد أشكالها بتعدد الاشخاص، ومع ذلك لن تظهر جميع صورها في العقل خارج مجال موجودات الطبيعة، ولا بد من ربطها بشيء متواجد داخلها.

قال:- *(أعيننا لا تعطي الدماغ صورة صحيحة مثل فيلم دقيق عما يحصل بمرور الوقت في محيطنا.!).*[2]

إذا كانت حاسة البصر - وهي أقوى حواس الجسد - لا تعطي العقل صورة صحيحة عن الواقع المادي، فعلى ماذا استند الانسان للحصول على جميع علومه الصحيحة عبر التاريخ؟ حيث لا بد أن كان هناك مصدر (خارجي أو داخلي) زوده بأوليات العلم الصحيح. وطالما أن قوة حاسة البصر غير موثوق بها، فقد تقدم معلومات خاطئة، واذا تذكرنا ضعف بقية الحواس في اكتساب المعلومات الصحيحة، لذلك كان لا بد من وجود مصدر خارجي غير حواس الجسد، ومن المفترض أن تكون هناك قوة ميتافيزيقية أخرى نقلت حقائق العلوم للبشر.

---

1 دوكنز. سحر الواقع. صفحة 12.
2 صفحة 91.

يقول:- *(الدماغ يقوم ببناء نموذجه بشكل متجدد باستمرار: هذا الواقع هو عبارة عن نبضات كهربائية تمر في العصب البصري، وبذلك تُبنى صورة متغيرة).*[1]

هذه العلاقة التوافقية بين العقل وحاسة البصر، وهذا التصوّر لكيفية تراكم العلوم وترابطها داخل (المخ)، لم يستطع إثبات عمليتها أو تحديد مكانها داخل الجمجمة أعظم علماء التشريح والأعصاب وكبار أطباء الفسلجة حتى اليوم، وما قيل بشأن النبضات الكهربائية، أنها عملية التفكير، إنما هو من باب التصوّر والافتراض دون أدلة علمية محققة، لأن عملية التفكير هي عملية معنوية غير مادية لا يمكن رؤيتها أو لمسها، ولقد ظُنَّ غالبية من لا يؤمنون بوجود الروح، أن الدماغ هو المحطة الأخيرة لتجمّع مسيرة معلومات الحواس الخمسة. ودوكنز يظنَّ هذا الظنّ الواهم أيضًا مثل غيره ويعتبرها حقيقة علمية مسلّم بها، ولو سألنا أي عالم متخصص عن مكان تجمع العلوم والصور والذكريات: هل هي في المخ داخل الجمجمة؟ فلن يجرؤ على الجزم بمثل ما فعل صاحبنا.

يقول:- *(يبني الدماغ نموذجاً للصوت عن طريق المعلومات السمعية المستمرة بالتدفق للأعصاب السمعية... والأحرف الصوتية واللاصوتية تبنى في الدماغ بنفس الطريقة، وهكذا، وعلى مستوى آخر، تبنى الأنغام والكلمات من مجموعة أصوات أعلى).*[2]

هذه مجموعة كلمات مرتبة ذات معاني مضللة تعتمد في أساسها على فرضية غير مثبتة. فقبل كل شيء، إن السيد دوكنز لا يفرّق بين الدماغ والعقل، فالدماغ هو كتلة لحمية مادية (جهاز) أو عضو داخل الجمجمة، بينما العقل هو ذات معنوية غير ملموسة لا يؤمن الماديون

---

1 صفحة 91.
2 صفحة 92.

بوجودها. كما أنه لم يحدد مكان استقرار تدرّج مسيرة الأصوات في عملية السماع، ولم يخبرنا كيف تتبدل اهتزازات موجات أصوات الكلمات الى إشارات يفهمها العقل، وما هو الجهاز المادي الذي يقوم بعملية التبديل والترجمة، وما هو نوع اللغة المستبدلة التي تتحول لها الأصوات والنغمات والإشارات لتصبح مفهومة لعقل السامع؟

ثم أين هو موقع ميزان التمييز بين الأصوات المختلفة وأين مكان تخزينها داخل جهاز المخ (الدماغ) لمعرفة الأنغام عن غيرها حتى نطرب لها ونرددها حين تذكرها والذي حين ازالته أو تعطيله لا يعد بمقدور الانسان تذكّر شيء من علومه؟ وكيف تتركب وتتبدل معاني الأصوات من حالتها الأثيرية الى معلومات معنوية يعقلها العقل ويميّز بينها إذا كانت جديدة أو غريبة أو خاطئة؟ فكل ما نعلمه أن الذاكرة قد تنقطع في حالة حدوث ضربة قاسية في الرأس لا يعد المرء يتذكر بعدها شيئاً من مكتسباته المعرفية. وهنا قد يكون تفسير ذلك انقطاع عصب موصل أو انحراف غضروف عن مكانه فينقطع سبيل التوصيل بين مجمل أجزاء تراكيب عملية السمع داخل الأذن. ثم أية وحدة من الشحميات أو اللحميات أو الغضاريف أو العظام الدقيقة أو الأعصاب إذا أخضع للفحص والتجربة والاختبار، أمكن الحصول منه على خزين علوم الانسان؟ فلو كان ما يقوله السيد صحيحاً، فلا بد من وجود جهاز في الدماغ - حتى ولو كان بحجم رأس إبرة - يكون مقراً نهائيًا لتجمع المعلومات، وإذا تحقق ذلك، لسهل الأمر في استخلاص علوم كثيرة لا يتذكرها الانسان، أو لتمكن علماء الأعصاب من نقل علوم شخص الى آخر، ولحصلت طفرة علمية هائلة في استخلاص العلوم وزيادة كمياتها، مثلما هي طريقة نقل المعلومات عن طريق جهاز (USB Flash Drive) من جهاز كومبيوتر الى آخر. ثم ما هي اللغة التي يستعملها الدماغ حين يستبدل

أصوات الحروف والكلمات وأصوات الموسيقى الى مفاهيم محددّة مفصّلة يعطي كلًا منها معنى خاص حال تجميعها، وأين مكان مقارنة المعلومات الصحيحة بالخاطئة، وفي أي جهاز يتم ذلك داخل الدماغ؟ وهل يتأثر حجم جهاز التخزين بكثرة المعلومات أو قلّتها، فيكون كبيراً لدى العلماء وصغيرًا لدى الجهلاء؟ كل هذا وغيره الكثير يُستدل منه على أن الرجل ابتعد كثيراً عن اختصاصه ودخل في مجال آخر، فراح يتخبط في أمور علمية معقدة من غير اختصاصه معتمداً على ندرة المطَّلعين في هذا المجال.

يتمادى في تقديم أمثلته البسيطة، فيذكر تجربة شخصية حدثت له عندما كان طفلا وسمع أصواتًا ظنّها لشبح يتكلم، وبعد تَتبعه لمصدر الصوت، وجده صوت ريح في ثقب مفتاح الباب![1] ثم يحدثنا عن تجربة أخرى في نفس العمر لرؤيته انطباع وجه عملاق شرّير على ستارة غرفته . وأن الناس شاهدوا (توهموا) رؤية وجه الشيطان على دخان برجيّ نيويورك في الحادي عشر من سبتمبر! ألم أقل أن الرجل يعتمد على تجارب وأحداث فردية، ليبلورها كيفما اتفق الى فرضية تدعم فكرة الالحاد.

يقول:- *(عقل الانسان رائع جداً في إعادة بناء النماذج. وعندما ننام ندعو ذلك أحلاماً، وفي اليقظة ندعوها بالتخيلات أو في حالة كونها شديدة الواقعية ندعوها هلوسات).*[2]

دعونا من هذه التسميات والصفات وما أبدعه اللغويون منها، ولنأخذ جوهر الفكرة. فكل ما ذكره السيد دوكنز من تصورات، تتلاشى حينما نعلم بوجود وقائع حياتية متعددة لكثير من الأشخاص خاضوا تجارب روحية لا يُشك في رفعة مستوى تفكيرهم وسلامة

---

1 صفحة 93.
2 صفحة 93.

عقولهم. ومن المعلوم أن نسبة لا بأس بها من القراء وغيرهم حصلت لهم رؤى روحية أو كشوفات أثناء نومهم أو قيلولاتهم شاهدوا خلالها أموراً أو أحداثاً أو أماكن محددة وَهُم ممددين ساكنين على أسرّتهم ثم تذكروها حين الاستيقاظ وعلموا - دون شك - أنه لم يسبق لهم المرور بمثل هذه المواقف خلال حياتهم، لكن هذه الرؤى بقيت في ذاكرتهم واضحة جليّة رغم تداول السنين، فإذا بهم في موقف مشابه تماما يستحضرون تلك الرؤى ويتذكّرون مشاهدة هذه المواقف في احدى رؤاهم، وأنها لم تكن هلوسات ولا أوهام بل نوع من حالات سفر الروح عبر الزمن.

وهنا يأتي السؤال: كيف استطاع الدماغ المادي السفر عبر الزمان ومشاهدة ما يحدث مستقبلا؟ فالمادة لا توجد في مكانين ولا في زمانين. ثم أين يقع ذلك الجهاز المادي الذي احتفظ بمعلومات وصور وأحداث هذه الرؤى؟ وهل يمكن التعامل معه لاستخراج هذه المعلومات وتناولها بالفحص والاختبار واستخلاص أحداث المستقبل للحذر منها أو الاستعداد لتجنّبها اذا كان ذلك مخزَّن في جهاز محدد داخل الدماغ؟ كيف استطاع الانسان ابن الواقع المادي وابن اللحظة تجاوز كل هذه المُدد الزمنية وهو نائم على فراشه لا يشعر بشيء؟

هناك العديد من القصص والكتب التي تكلمت عن بقاء الروح وعن الحياة بعد الموت، ونختار منها ما هو أكثر دقّة وواقعية لأستاذ علم النفس والطبّ البروفيسور ريمون مودي (Raymond Moody)،[1] جمعها شخصيًا وتأكد من صحتها باعتباره استاذًا متخصصًا يمكنه تمييز الحقيقة من الكذب والخيال والهلوسة. فلو قرأنا كتابه (الحياة ما بعد الموات) (La Vie Apres La Vie)،

1 البروفيسور ريمون مودي. كاتب أمريكي. دكتوراه في الطب، ودكتوراه في فلسفة الطب.

لوجدنا ما يُغني مفاهيمنا في هذا المجال. فمن الأمثلة العديدة التي ذكرها عن تجارب الحياة بعد الموت لعدد من الأشخاص، ها هو يشرح ما يحدث لمن مرّوا بهذه الحالة:-

(هو ذا إذن إنسان يموت، وفيما يبلغ ذروة الضيق الجسدي، يسمع في آن معاً الطبيب الذي يلاحظ موته . ويبدأ حينئذ يُدرك ضجة كريهة ، كمثل نغمة قوية من جرس الأبواب أو نوع من الطنين ، وفي الحين ذاته يشعر بأنه مخطوف بسرعة شديدة خلال نفق معتم وطويل . ثم يتواجد فجأة خارج جسده المادي، ولكن دون أن يغادر بيئته الجسدية المباشرة، فيرى جسده وهو على شيء من المسافة، كما يفعل أي مُشاهد . ويلاحظ، من وجهة نظره المحظية هذه، المحاولات الساعية إلى إنعاشه من جديد، وهي محاولات تعني بخاصة جسده، و يلبث في حالة من التوتر الشديد نفسانياً . وعقب بعض اللحظات، يستدرك نفسه ويتأقلم شيئاً فشيئاً مع غرابة وضعه الجديد خارج جسده . ويُدرك أنه لا يزال يمتلك 'جسداً' آخر لكن هذا الجسد قد اتخذ طبيعة خاصة جداً، ويتمتع بملكات مختلفة جداً عن الملكات التي بقيت مع هذه الجثة التي تركها لتوّه . وبعد قليل، تجري حوادث أخرى: فثمة كائنات من الأرواح تتقدم للالتقاء به، وتبدو أنها تريد منحه المعونة، و يلمحُ 'أرواح' بعض أهله وأصدقائه الذين قضوا نحبهم قبلهُ . وفجأة، يحضر كيان روحي، من نوع مجهول، روح ذو حنان دافئ ، زاخر ينبض بالحب - 'كائن من نور' - ويظهر له . ويقوم هذا الـ 'كائن' بطرح سؤالا عليه، سؤالا منطوقا بغير كلام، و يجعله يقوم بحصيلة حياته السابقة . ويُعينه هذا الكيان في هذه المهمة، إذ يوفر له رؤية بانورامية آنية [فسيحة وشاملة] عن جميع الحوادث التي مهرت مصيره بوسمها . ثم يأتي حين، حيث يبدو المواتي [الميت خلال فترة وحسب] أنه يصادف أمامه نوعاً من

حاجز ، أو حدّ من الحدود يرمز ظاهرياً الى الفاصل الأخير ما بين الحياة على الأرض والحياة المقبلة . لكنه يلاحظ عندئذ أنه يتوجب عليه الرجوع الى الخلف، وأن زمان موته المستمر لم يأت بعد . وفي هذه اللحظة ، يقاوم هذه الضرورة لأنه يبقى عندئذ مفتوناً بتدفق حوادث ما بعد الحياة ولا يتمنى الانكفاء الى حياته الجسدية الدنيوية. وتجتاحه مشاعر عارمة من الفرح والحب والسلام . ورغم كل هذا يتواجد من جديد متحداً بجسده المادي: فيولد ثانية الى الحياة مع جسده على الأرض).[1]

ويذكر احدى هذه القصص الواقعية لامرأة حدث لها ما يوضح حالة الموات، قالت:- (منذ سنة تقريباً، تمّ قبولي في المستشفى في أعقاب اضطرابات قلبية، وفي اليوم التالي، وأنا متمددة على سريري، بدأت أشعر بألم شديد في صدري. فضغطت على زر الجرس قرب سريري أنادي الممرضات، فهرعن مُسرعات حولي . وإذ اعتراني انزعاج سيء جداً وأنا مضطجعة على ظهري، فأردت أن أنقلب على جانبي، ولكن، وأنا أقوم بهذه الحركة انقطع تنفسي وتوقف نبض قلبي، وسمعت الممرضات يعطين إشارة الخطر باللغة المدونة في المستشفى ، وفي الحين ذاته شعرت بخروجي من جسدي وانزلقت الى الأسفل ما بين الفراش وقضيب جانب السرير ـ وبدقة شديدة، بدا لي أني أمرّ خلال هذا القضيب حتى أرض المكان . ثم ارتفعتُ في الهواء وفيما لبثت أصعد، رأيت عدداً آخر من الممرضات يدخلن الغرفة راكضات، وكنّ قرابة اثنتي عشرة . وبالصدفة كان طبيبي في المستشفى وهو يقوم بجولته المعتادة، فنادَينهُ وشاهدته يدخل هو أيضا . وفكّرتُ: يا للغرابة! ما الذي أتى

1 الحياة ما بعد الحياة. ريموند مودي. صفحة 29.

به الى هنا؟ وبقيتُ ارتفع حتى أعلى مصباح السقف (فاستطعت رؤيته جانبياً وبوضوح بالغ)، وتوقفتُ عائمة فوق السقف تماما، ونظري ينحو الى الأسفل . واعتراني الانطباع بأني قطعة ورق أتتها نفخة لتجعلها تطير في الهواء . ومن فوق، حضرت جميع مراحل الإنعاش . ولبث جسدي مُضجعاً هناك، ممدوداً على السرير بشكل واضح، وكانوا يحيطون به . وسمعت صراخ ممرضة تقول: "آه! يا إلهي، قد ماتت!"، فيما تمددت ممرضة أخرى لإنعاشي فمًا بفم . وشاهدت قذال رأسها وهي تزاول عملها . ولن أنسى البتة شكل تسريحة شعرها، وكان شعرها مقصوصاً قصيراً على قذال رأسها . وفوراً عقب ذلك، لاحظت هذه الآلة [هذا الجهاز] التي أدرجوها في الغرفة، وراحوا يُنجزون صدمات إلكترونية على صدري . وفي الحال رأيت جسدي بكامله يقفز ويطفر فوق السرير، وسمعت قرقعة جميع عظام جسدي، وبات المشهد فظيعاً . وفيما بقيت أنظرهم وهم يضربون صدري ويفركون ذراعي وساقي، بدأت أقول لنفسي: 'لكن، لماذا يمارسن على أنفسهن كل هذا الجهد المضني؟ فأنا أشعر أني على ما يرام الآن').[1]

وتشرح امرأة أخرى للدكتور مودي ما جرى لها وهي في حالة الموات:- (كنت أشاهد أناسًا حولي وأفهم ما يقولون . ولم أسمعهم بأذني كما أسمعك الآن . بل لبث الأمر وكأنني أعلم ما يفكرون، وبدقة ما يطرأ على بالهم، أي بالفكر فقط لا بمفرداتهم. ولبثتُ أتلقى فكرتهم قبل ثانية من تحريك شفاههم لكي يتكلموا).[2]

وإليك قصة واقعية أخرى عن حالة الروح بعد الموات:- (حدث لي ذلك عند ولادة أحد أطفالي. وقد كان النفاس عسير جدا، ونزفتُ

1 الحياة ما بعد الحياة. ريموند مودي. صفحة 42.
2 المصدر السابق. صفحة 58.

بغزارة . فعدِل الطبيب عن إنقاذي وأخبر عائلتي أنني مشرفة على الموت. أما أنا فكنت أشعر خلال هذا الوقت بأنني صاحية ، بل اعتقدت أنني سأستعيد للتو وعيي الكامل، وذلك عندما سمعت الطبيب يتكلم عن موتي . وفي ذاك الحين بالذات أدركتُ وجود جمع من الناس، حشد منهم تقريباً يحومون على مستوى سقف غرفتي . وكانوا جميعا أناساً عرفتهم سابقا وقضوا نحبهم قبل ذلك الحين. وتعرّفت ما بينهم على جدتي وعلى إحدى رفيقاتي في المدرسة، وأيضاً على أفراد من أقاربي أو أصدقائي . كنت أشاهد بخاصة وجوههم وأشعر أنهم ماثلون هناك حقاً . وكان السرور يبدو على وجوههم والظرف سعيداً وعلمت أنهم وفدوا إليّ لحمايتي أو لإرشادي . ولبث الأمر يُشبه عودتي الى بيتي وذويّ، وكأنهم أتوا لاستقبالي عند العتبة لكي يرحبوا بي . وظهر لي كل شيء جميلاً وخفيف الظل . وبقيت الدقيقة تلك رائعة وبهية تماماً).[1]

لو ذُكرت مثل هذه القصص الواقعية للسيد دوكنز، لأسماها سذاجة أو هلوسة، ولعلّق عليها كما ذكر:- *(لا تتوقع انه على الآخرين منّا أن يصدقوا ذلك. وخصوصًا إذا كان لدينا بعض المعرفة عن الدماغ وقدرته الجبارة على العمل)*.[2] لكن المؤسف أنه لا يفرّق بين الدماغ (المخ) المادي (The Brain)، وبين العقل (The Mind)، وبين الروح المعنوية (The Spirit)، فبالنسبة له إنهم شيء واحد.

*****

يعود ليتهم السيد المسيح(ع) - معاذ الله - بالكذب والهلوسة والجنون!:- *(طالما زعم المسيح بأنه ابن الله، فإنه إما على حق أو مجنون أو كاذب: "مجنون، سيء أو جيد" أو بشكل آخر، "مهووس،*

---

1 الحياة ما بعد الحياة. ريموند مودي. صفحة 61.
2 صفحة 94.

كذاب أو إله... وكما قلت، ليست هناك أدلة تأريخية جيدة بأن المسيح زعم بأنه قدوس بالمرة).[1]

سبق وذكر في الصفحة 32 كلمات قبيحة بحق السيد المسيح(ع) لم أجرؤ على تكرارها، وها هو يعيد الكرّة بكلمات أقل وقاحة رغم قسوتها. إن ما يجلب الانتباه، أنه ما انفك يذكِّر القراء بأن الأخلاق تنبع من الإنسان ذاتياً ويكتسبها بعلمه ودراسته وذكاءه! فأين ذلك من دعواه حينما يتجرأ بمثل هذا الكلام القبيح ضد ذاتٍ يبجّلها مليارات البشر؟ كان من الأولى به احترام مشاعر كل تلك الأمم، فنور القمر لا ينفي وجوده إلا كفيف بصر . فهل إن حقيقة ما يدعو له من إلحاد أن يكون بهذا النحو من الوقاحة؟! فإذا كان لا يؤمن بالسيد المسيح، فعلى الأقل أن لا يشتمه في كتاب سيبقى موجوداً لسنين طويلة.

كل ما يُستخلص من كلامه هو ابتغاء مفاهيم مادية يجهد في استخراجها من نصوص روحية وبطريقة تلاعب واضح بمعاني كلمات الإنجيل، ويجيز لنفسه هذه الطريقة في التحوير استنادا لمفهومه الخاص، كما قال لتبرير ذلك:- *(إن الكلمات خدم لنا، وليست سادتنا، ونحن نجد أن من الملائم استخدام الكلمات بمعاني مختلفة للأغراض المختلفة).*[2]

لقد وصف السيد المسيح(ع) نفسه: "ابن الانسان"؛ ولم يسمّ نفسه "ابن الله"، وجاءت الأناجيل على ذكر ذلك 79 مرة تقريبًا ؛ بل كل ما ورد أن وصف المؤمنين به بأبناء الله:- (وأما كل الذين قبلوه فأعطاهم سلطانا أن يصيروا أولاد الله، أي المؤمنون باسمه).[3] و (طوبى لصانعي السلام، لأنهم أبناء الله يدعون).[4] بينما نلاحظ أن

---

1 صفحة 95.
2 دوكنز. صانع الساعات الأعمى. صفحة 22.
3 إنجيل يوحنا 12/1.
4 انجيل متى 9:5.

عبارة "ابن الله" جاءت على لسان الحواريين في مخاطبتهم له: (وإذا هما قد صرخا قائلين: "ما لنا ولك يا يسوع ابن الله؟")،[1] و(فأجاب سمعان بطرس وقال: "أنت هو المسيح ابن الله الحيّ").[2]

إذن فصفة "ابن الله" أو "أبناء الله"، اطلقت بشكل عام على كل من آمن بالسيد المسيح(ع)، وليس مثلما حاول دوكنز اظهارها والتركيز عليها. ثم تأتي آية أخرى توضح المقصود من عبارة "ابن الله":- (الذين ولدوا ليس من دم، ولا من مشيئة جسد، ولا من مشيئة رجل، بل من الله).[3] وهنا لو أخذنا المعنى بظاهر الكلام، فسيخالف هذا المنطوق قوانين الطبيعة والعلوم المادية، حيث لا يوجد مخلوق لم يولد من دم أو مشيئة جسد أو من مشيئة رجل؛ كما لا يوجد في المقابل انسان ولد من الله. لكن المقصود أن عملية الإيمان هي ولادة روحانية لا تشابه الولادة الجسدية، أي هي الخلق الروحاني الذي لا يخضع لقوانين الطبيعة. وهذه المعاني الروحية العميقة لا علاقة لها بما يفكر به صاحبنا، مثلما قال الفيلسوف ديكارت:- (إن كثيرين يحبون أن يشتهروا بين الناس بأنهم من أهل الأذهان الجبارة، فتراهم ولا هَمَّ لهم إلا المكابرة في مناقضة أبين الحقائق وأجلاها).[4]

لذلك، إن إشارة "أبناء الله" جاءت لتشمل كل مؤمن بالسيد المسيح، فهو يدعى ابن الله الروحي، وليس ابن الله الجسدي. وبهذا يرتد الى نحر المؤلف ما أطلقه من سهام صفات (الجنون والكذب والهوس)، فهو يمسك مصباحًا بلا نور ليبحث في الظلمات عن أشياء صغيرة ملونة ، لذا من الطبيعي أن لا يرى شيئًا، وبالتالي يبدأ بإطلاق سهام السباب، كما سبق واتهم الكافرون جميع الرسل بالجنون

1 انجيل متى 29:8.
2 انجيل متى 16:16.
3 إنجيل يوحنا. 34:4.
4 ديكارت صفحة 44.

والسحر، كما قال تعالى:- (كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحرٌ أو مجنون.).[1]

ونقطة أخرى جديرة بالذكر، فالقرآن يشهد أن السيد المسيح(ع) قدوس مقدّس:- (إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ).[2] وكذلك:- (وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ).[3] أفليست هذه شهادة عليا من الذات الإلهية تفصح أن السيد المسيح ذات مقدسة بروح القدس؟ إن شهادة رسول لرسول هي أرقى أنواع الشهادة . فلا يشهد لعلم عالم إلا عالم بمستواه أو أعلى منه . والمثل يضرب ولا يقاس.

أما التشكيك بصدقية وجود السيد المسيح(ع) وكتاب الانجيل، فما تركه من أثر يجزم بوجوده، حيث لا يترك المعدوم أثرًا. بالإضافة إلى شهادة شهود زمانه والأعداد الكبيرة من المؤمنين الأوائل ، إذ ليس على الأرض شخصية أو كتاب سيطر على قلوب وعقول البشر بكل هذه القوة والمتانة، إلا الأنبياء وكتبهم.

يشير الى تناقضات كتاب الإنجيل ويستفسر من أتباعه:- *(لماذا لا يلاحظون هذه التناقضات الساطعة)؟*[4]

ما يثبت صحة الإنجيل وبقية الكتب السماوية بالدرجة الأولى، هي قدرة روحانيتها على خلق روح الوحدة وايجاد المحبة بين البشر لآماد طويلة، والتي تعجز أية دعوة بشرية أو كتاب لفيلسوف أو كاتب فذّ مجاراتها في قوتها وتأثيرها على كسب القلوب. أما دقة نقل واقتباس النصوص، فهذه مسألة تأخذ الدرجة الثانية من الأهمية والاعتبار، خاصة وأن أكثرها كتبت بعد حياة الأنبياء بأزمان قد

---

1 سورة الذاريات 52.
2 سورة النساء 171.
3 سورة البقرة 253.
4 صفحة 97.

تصل الى عدة عقود. لكن يبقى الهدف الأساس من ظهور الرسل ونزول الكتب الإلهية، هي وحدة البشر واتحادهم وتأسيس المجتمعات المتآخية . فهذه الوحدة اختصت بها الأديان السماوية فقط دون غيرها من بقية الفلسفات والدعوات الفكرية والسياسات البشرية التي اتسم غالبيتها بالفشل وقصر الأعمار ، فما من أمة دينية بكتاب سماوي ظهرت على الأرض إلا ورافق سموها وعلوها ظهور دولة أو حضارة عظيمة، كالأمة الإسلامية والمسيحية واليهودية و الزرادشتية والبوذية والهندوسية.. الخ. فلنترك شبهات التناقض التي يراها الرجل بعين واحدة ، وليقدم بدلاً من كتابه الداعي الى التفرقة والاختلاف والتشرذم وما يجر خلفه من فتن وحروب، منهجاً تنتهجه البشرية في هذا الزمن المضطرب كي تؤسس قواعد السلام وتبتعد عن خطر الانهيار الاقتصادي العالمي وعن الحروب القادمة، فأهداف ظهور الأديان منذ القدِم هو تنوير عقول البشرية ودفعهم للنضوج والتقدم ، وهذه العملية استغرقت آلاف السنين وخضعت وما زالت تخضع لعملية التطور التدريجي، فوجود الانسان سيستمر الى أزمان لا يُعرف لها نهايات، لأنه مرتبط بوجود الطبيعة والكون، والانسان هو المخلوق الوحيد الذي يمتلك عقلاً دون بقية المخلوقات، ولو اختفى فلن يكون للوجود قيمة ولا معنى، بل سيكون الوجود بحكم العدم، لانتفاء من يفكر به أو يعرفه.*

حتى الان لم نلمس في كتابه شيئًا جديدًا ذا قيمة، فكل ما جاء على ذكره، سبق وذكره الكثيرون بتفاصيل أكثر دقة، حتى أن نقاد من كامبريدج يتهمونه باقتباس أفكاره من القرن التاسع عشر،[1] ومع

1 صفحة 158.

ذلك لم نلمس منه غير التشويش والتشكيك والتكرار الذي لا يبتغى من ورائها نظرية علمية أو معلومة تنفع البشرية.*

ثم ينقل عن بيرتراند راسل:- *(الغالبية الساحقة من الأذكياء المثقفين لا يؤمنون بالدين ولكنهم يخفون ذلك عن الجمهور ذلك لأنهم خائفون على مصدر رزقهم).*[1]

تنتشر التعصبات المختلفة والدينية منها على الخصوص بين عموم البشر لا استثناء لمجتمع دون آخر، وما يشاهد اليوم من انحدار أخلاقي وضعف أيمان هي حالة عامة تقف بالمرصاد لكل من يجاهر برأي مخالف للجموع، فهي من سمات انهيار الحضارة الحالية. وطالما بقيت أغلب تفاسير نصوص الأديان تميل الى الآراء الشخصية، فسيزداد الابتعاد عن الأديان بازدياد كميات العلوم وتوجه العقول نحو التنوير، وبهذا تزداد الهوّة بين الدين والعلم، وهذا ما يدعو المفكرين الى الكتمان وعدم الجهر بما يخالف رأي العامة.

يقول:- (*سأركز على العلماء بشكل خاص، من الذين تستعمل أسمائهم لإثارة الإعجاب كأمثلة دينية في معظم الحالات).*[2]

عجيب أمر هذا الرجل! فهذا الأسلوب هو بالضبط ما فعله حينما ملأ كتابه بأسماء مفكرين وشخصيات استشهد بإلحادهم ومن مقتطفات الصحف والمجلات والندوات والجلسات الجانبية لتأييد رأيه . أما إذا سلك غيره ذات السبيل، فنراه يستنكر وينالهم بأشكال الانتقاد والاستهزاء!

قال:- *(نيوتن بالتأكيد إدعى التديّن، وهذا ما فعله الجميع تقريباً حتى حلول القرن التاسع عشر، حيث قلَّ الضغط الاجتماعي*

---

1 صفحة 100.
2 صفحة 100.

والقضائي عن القرون السابقة فيما يتعلق بالانتماء الديني وزيادة الأدلة العلمية التي تدعو لإهمال الدين).[1]

مرت البشرية خلال القرون الماضية بكثير من مراحل التطورات الفكرية والروحية، وقد شارك الفلاسفة كل بدوره في هذا الرقي، وكلمة "إدعى" توحي بطريقة ما، الغش أو التدليس في اظهار المرء غير ما يضمره، ومن خلالها، يحاول دوكنز الإيحاء بأن نيوتن كان ملحدًا ولم يظهر ذلك . ولكنا عندما نقرأ عن حياة هذا العالم الذي ساهم بتغيير وجه علم الفيزياء، نجده مسيحيًا مؤمنًا. فقد ورد عنه:- (استمر "نيوتن" في الكتابة الى أن قُدّر مجموع ما كتبه في الدين نحوًا من 1,400,000 كلمة، أي أكثر مما كتبه في الخيمياء، وأكثر مما كتبه في الرياضيات، بل وفي علميّ الفيزياء والفلك... لقد بلغ نيوتن في تعلّم كتاب العهد القديم والعهد الجديد مبلغا فاق معظم رجال الدين . وكان تفسيره للكتاب المقدس، شأن أي شيء آخر درسه، مختلفًا اختلافًا جذريًا عما فعله الآخرون.)[2] فهل يدل هذا الإنتاج الفكري الضخم أن نيوتن كان ملحدًا؟ ولو كان كذلك، لما خصص كل هذا الوقت في البحث والتقصّي عن الدين.

إن مسيرة العلم المادية الحالية الجديدة شجّعت كثير من علماء الطبيعة في الابتعاد عن الأديان القديمة والتمسك بروح العلم، فراحت الفجوة تتسع بينهما، وأدى ذلك لظهور العرج في مسيرة البشرية الذي أوصلها الى سبيلين متناقضين، الأول تقدم علمي كبير، والثاني ضمور روحي أكبر، وهذا ما سيؤدي لا محالة الى نتيجة كارثية حينما تمضي البشرية بهذا العرج معتمدة على ساق العلم دون ساق الروحانية وانهيار حتمي للحضارة المادية الحالية حالما تتضخم

---

1 صفحة 100.
2 إسحق نيوتن. صفحة 97.

مشاكل البشر الأخلاقية ، وساعتها سيكون عنوان اختبار البشرية المرعب (أكون أو لا أكون) . فما شهده التاريخ البشري من مآسي وحروب وطنية وقومية وعالمية خلال القرنين السابقين سيكون بمثابة لعب ولهو أمام الخراب والدمار القادم - إذا حصل - بسبب الاعتماد على العلم والمخترعات والتكنولوجيا. فإذا لم تعد البشرية الى رشدها وتنتبه لعرجها ولا تتبع سبيل الأخلاق والروحانيات، فهو الدمار لا محالة.

قال:- *(خلال القرن العشرين أصبح البحث عن عُلماء يصرحون بالتدين، عملية أصعب، لكنهم ليسوا نادري الوجود بأي حال).*[1]

هذا ما سبق وأشرنا اليه . والسبب موت روح الأديان القديمة التي يتبعها غالبية البشر اليوم بعد اضمحلال طاقتها الروحية الباعثة على تجدد روح الأخلاق، فكان استمرار العلم في التقدم وتراجع الرقيّ الروحاني أمراً حتمياً. لذلك أصبحت صورة الايمان شكلية مادية لا روح ولا حياة فيها ومسألة تقليد روتينية وممارسة للطقوس ليس إلا ، نراها في زيارات القلّة الى المساجد والكنائس والمعابد.

ويبدي استغرابه لاستمرار وجود مؤمنين من العلماء:- *(فإن ما يظل محيراً بالنسبة لي، ليس أيمانهم بوجود نوع من رجل القانون الكوني، بل أيمانهم أيضا بتفاصيل المسيحية: القيامة، غفران الذنوب والخ...).*[2]

بعد دخول العقل البشري مرحلة جديدة من التفتّح والرقي والعلوم العظيمة خلال القرن التاسع عشر واعتماد علماء الطبيعة على العلم دون الروحانيات في تفسير نظم وقوانين الطبيعة ، التفتوا الى المسائل الدينية التي بقيت معلقة دون توضيح، فحاولوا تفسيرها، لكنهم فشلوا

---

1 صفحة 101.
2 صفحة 101.

لصعوبتها وتعقيداتها مما دفع بهم لتركها جانبًا. كما أن العلم المادي بحد ذاته أصبح مانعًا بشكل من الأشكال عن كشف الحقائق الروحية وحائلا دون تنور أرواح الكثيرين بشمس الحقيقة الروحية، بعدما أصاب الغرور كثير من علماء الطبيعة نتيجة تطور العلوم. ولكن بقيت هناك مفاهيم دينية جديدة قد تساهم بتوجيه شعاع من نور على هذه النصوص القديمة .

أما مسألة غفران الذنوب، فهذا أمر مرتبط بالتطور العقلي والروحي والاجتماعي، فطالما كان البشر يعيشون قديمًا مرحلة الطفولة البشرية، كان لا بد من مخاطبتهم بأسلوب التهديد والوعيد والجزاء والثواب لترغيبهم بالأيمان والتمسك بأحكام الشرائع السماوية، حيث من الصعب على العقل البشري تجاوز عقبات مفاهيم الآيات الإلهية في تلك المراحل البدائية، فالتهديد بدخول النار والحرق (وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ)،[1] كما ورد في القرآن الكريم، وما شابه ذلك في الإنجيل الجليل (البحيرة المتقدة بنار وكبريت)،[2] إنما هو من قبيل التهديد والتخويف بالمعاناة الروحية وليس بالتعذيب الجسدي المادي، كما قال تعالى: (وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا)[3]. لذا فلا غرو من استعمال أسلوب التخويف وتشبيه المعاني الروحية بالتأثيرات المادية مثلما يحذر الوالدين أطفالهم لتشجيعهم على السلوك الحسن، لكنهما لا يقتلوهم حين ارتكاب الأخطاء. ومن الجدير بالذكر أن نجد النبي محمد(ص) اتبع هذا الأسلوب في التشبيه ونصح أتباعه بمخاطبة الناس على قدر عقولهم، لمعرفته أنهم ما زالوا يمرون بمرحلة الطفولة البشرية، قال:-

1 قرآن. البقرة 114.
2 سفر رؤيا يوحنا اللاهوتي8:21.
3 قرآن. الإسراء. 59.

(خاطبوا الناس على قدر عقولهم أتحبون أن يكذَّب الله ورسوله). وكما قال الفيلسوف ليسنغ:- (لا تتم التربية دفعة واحدة ينتقل فيها الصبي من مرحلة الطفولة الى مرحلة النضوج، بل تحتاج التربية الى عمر والى حياة . وتقوم على التطور والارتقاء، وتأخذ الزمن في اعتبارها موطنًا للنضج والنماء).[1]

يوافق العالم 'كيرتشر' زميله ليسنغ، بأن المفاهيم البشرية تتغير وتختلف من زمن الى زمن ومن مكان الى آخر، مما يدعو الى تنوع أشكال التربية، حيث يتصور البشر كلٌ إلاهه من صميم واقعه، قال:- (رأينا من قبل كيف أنّ بدائيي أمريكا الشمالية قد تخيّلوا جنّتهم أو فردوسهم كانعكاس لمحيطهم المادي الذي يعيشون فيه، ورأينا كيف أنّ الفايكينغ الاسكندنافيين، الشعوب الأرقى، فعلوا نفس الشيء ضمن بيئة مختلفة . والآن سنلقي نظرة على المعتقدات الدينية لحضارة مبكّرة: الحضارة اليونانية، أو الإغريق في ذروة عظمتهم الإمبريالية قبل صعود الإمبراطورية الرومانية، خلقوا لأنفسهم مجموعة رائعة وعظيمة من الآلهة والإلهات.).[2] ويكمل القول:- (دعونا ندرس حالة المحمديين "المسلمين". فجنّتهم عبارة عن مدينة. "فردوسهم" أشبه كما يكون بمدينة مكّة سماوية . وكثيراً ما يقول رجال الدين المحمديين للمؤمن الفقير أنّه لا ينبغي أن يشغله الفقر إذ أنّ الله سيعوّضه من كل ما هو محروم منه في الجنّة أضعافاً أضعاف. فعندما يذهب إلى الجنة ستقابله هناك حور عين عذراوات . قد يكون لديه زوجة واحدة وجَمل واحد في حياته على الأرض، لكنّه سيمتلك آلاف الزوجات وقطعان مؤلّفة من الجِمال. سيؤمّن الله له في جنّته

1 لسنج. صفحة 124.
2 كيف وجدت الآلهة. جون كيرتشر. صفحة 26.

كافة الأشياء التي أحبّها ورغب بها على الأرض وسيعيش حياةً ملكية هناك، حياة لا تخلو من المتع والملذّات الشرقية.)[1].

ويكمل قوله عن تصورات اليهود للحياة بعد الموت:- (إنّ البيئة التي عاش فيها الشعب اليهودي هي مصدر فكرتهم عن الحياة بعد الموت التي ستكون شبيهة تماماً بحياتهم على الأرض . فجنّتهم عبارة عن مدينة كبيرة، أورشليم السماوية . كانوا يؤمنون بأنّهم سيصعدون إلى السماء حيث البوّابة اللؤلؤية عبر سلّم ذهبي، ويسيرون على شوارع وطرقات من الذهب الخالص. في البداية سيمثلون أمام مجلس سماوي للمحاكمة ، تماماً كما كانت حالهم على الأرض . فهم لم يأتوا بأفكارهم عن السماء والجنّة من خارج بيئتهم المادية . لقد قاموا ببساطة بأخذ نموذج أورشليم كما هي على الأرض وإسقاطها على السماء . لقد تحوّل الله من راعي قديم إلى قاضي حاكم، أشبه ما يكون بالقاضي سليمان، لكنه من نوع سماوي).[2]

إن مثل تلك التشبيهات وافقت مستوى عقلية المجتمعات في قديم الزمان. ورغم ذلك، نرى القرآن الكريم قد أوضح أن موجودات الجنة لا يمكن للإنسان تصورها:- (فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ).[3] ويوضح ذلك النبي محمد(ص) في حديثه القدسي:- (أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ).

يعود دوكنز ليستشهد برأي صديق آخر - وما أكثرهم - فيقول:- *(سألت واتسون عما إذا كان يعرف أي عالِم مُتدين في أيامنا فأجاب: عمليا لا أحد. أصادف بعضهم بالمناسبات ، وأشعر بالحرج*

---

1 المصدر السابق. صفحة 32.
2 المصدر السابق. صفحة 36.
3 سورة السجدة 17.

"يضحك" لأنني، كما تعلم ، لا استطيع التصديق بأن أياً كان يتقبل بأننا نعرف الحقيقة من خلال الوحي).[1]

سبق وذكرنا أن قلة أعداد العلماء المؤمنين حصل بسبب ضعف تفاسير رجال الدين لنصوص كتبهم . لكن هذا التوافق بين مفهوم الرجلين يشير الى احتمال نسبة اطلاعهما الضئيلة عن أسباب نشوء الحضارات والأديان . فلو عدنا بالتاريخ الى الوراء، لعلمنا أن عقل الانسان كان عاجز عن تخطّي حدود واقعه الطبيعي والتفكير بعالم ما وراء الماديات أو استنباط أفكار غيبية. ففكرة اختراع الانسان لـ "معجزة" النار على سبيل المثال، تعتبر من المسائل المستحيلة التي يعجز الانسان عن اختراعها أو ايجادها في عالم الطبيعة، بدليل أن اليونانيين كانوا يتركون مراقبين قرب النار للمحافظة على استمرار اتقادها ويعاقبون بالموت من فشل في مهمته؛ وكما هو الحال في اختراع فن الزراعة، فهي أيضًا مستحيلة على العقل البشري حتى يتوصل لمعرفة طرقها وعلومها بمفرده. دعك مما يدعيه علماء الطبيعة من حذلقة في الكلام، فللعقل البشري قدرات ومراحل وعقبات وحدود علمية يستحيل اجتيازها إلا بمعونة إنسان أعلى منه علماً، حتى أنت وأنا، فلا بد أن كان لنا من أشرف على تعليمنا في صغرنا، لذلك وجدت المدارس والمعلمين والكتب والمؤلفات، فبدونها يعجز الانسان على التعلم . ودعك من قصة الفيلسوف العربي "ابن طفيل" التي ترجمها الأوروبيين قبل عدة قرون واعتمدوا على أفكارها القائلة بإمكانية تعليم الانسان لنفسه بنفسه والوصول الى مراتب الحكماء والفلاسفة، فهذا أمر محال التحقق، حيث يستحيل على العقل البشري الابتكار والاختراع والتخيل إلا بعد اكتسابه علوم

---

1 صفحة 102.

ومعارف من واقعه المادي ، وطالما كان الواقع البدائي القديم فقير جرزًا من المعارف والعلوم، لذلك بقي البدائيون جهلاء لا يعرفون شيئًا لملايين السنين.[1]

لكن الغريب أن ينسب الدكتور دوكنز الى حيوان الخفاش اختراعه حاسة سماع الأصوات وصداها بنفسه، قال:- *(مجموعات الخفافيش المختلفة تستخدم السونار بطرق مختلفة جذريًا، يبدو أنها قد "ابتكرتها" على حدة وبصورة مستقلة ، تماما مثلما نشأ الرادار على نحو مستقل عند البريطانيين، والألمان ، والأمريكان.)*.[2]

ثم يكمل القول أن العلماء لم يكتشفوا هذا الجهاز إلا في وقت قريب! والسؤال هنا: كيف لحيوان لا يملك عقلا ولا مَلكة تفكير أن يسبق عباقرة علماء البشر في إيجاد مثل هذا الاختراع المعقد *(مبكرا بعشرات الملايين من السنين)*!؟ وكيف تخطى مراحل تدرّج نظرية التطور قبل الانسان؟ أظن أن هذه نقطة خرافية تخالف مفهومه في عملية التطور.

نعود لمحور سؤال صديقه عن عدم وجود عالم متدين . إن ترقي العلوم والمعارف لا يتم إلا بوجود معلومات أولية مسبقة يستند عليها العقل في ابتكاره لأي مخترع أو فكرة جديدة، فهي تشابه عملية خلط مواد كيمياوية أولية بنسب معينة لإيجاد مادة جديدة؛ وطالما ان العقل البشري محدود التفكير ويجهل ماهية دور الوحي في الإيحاء بالعلوم الغيبية للأنبياء، لذلك لا بد من فهم حقيقة أدوارهم قديمًا في تعليم البشر علوم الطب والصيدلة والهندسة والفلك والتنجيم والحساب والفلسفة وحتى علوم السحر والشعوذة . فمن يقرأ لعلماء الحضارات يجدهم - رغم عجزهم عن إثبات تأثير الإيحاء والوحي والإلهام في

---

1 جئنا على شرح هذه النقاط المهمة في كتاب (نظرية المعلم).

2 دوكنز. صانع الساعات الأعمى. صفحة 48.

ظهور الحضارات - إلا أنهم يشيرون بشكل من الاشكال الى مساهمة الآلهة والأنبياء والأديان في رقي العقل البشري عن طريق الوحي أو التنبؤ بالغيب، كما سبق وذكرنا ما قاله الفيلسوف توينبي، وكذلك ما أوضحه المفكّر بشروئي: (اعتقاد قديم يعود الى عصور الحماسة والبطولات. إلا أنه تأكد من بعد بإجماع رأي الشعب الروماني وكل شعب غيره، أن عند البشر مَلَكة لا شك فيها هي القدرة على التنبؤ ومعرفة الغيب... وما لا يمكن نكرانه هو أنه لم توجد أمة لا تؤمن بالقدرة على كشف المستقبل ولا تعترف بامتلاك أناس معينين القدرة على التنبؤ ، وذلك بغض النظر عن كونها أكثر الشعوب علمًا ومعرفة وتنورًا أو أكثرها همجية وجهلًا).[1] لذا كان من الطبيعي على دوكنز وصديقه نكران هذه الموهبة الروحية للأنبياء وصعوبة اكتشافها من قبل علماء الطبيعة، طالما يؤمنان بالعلم المادي التجريبي فقط.

ينقل رأي صديق آخر:- *(**لا اعتقد** أننا موجودون لغاية ما . نحن حصيلة طبيعية للتطور).*[2]

حين النظر الى موجودات الطبيعة نشاهد نظاماً هندسياً عجيباً في كل شيء، بدءًا من بواطن ذرات الأحجار والصخور الى هيكلية النباتات المعقدة، مروراً بأنواع حواس الحيوانات الدقيقة وجمال هندسة قدرات أجسادها ووظائفها في الحفاظ على توازن موجودات الطبيعة، الى هيكل الإنسان بتركيبة أعضاء أجهزة جسده وعقليته التي أحييت الأرض وعمّرتها. أما مسألة وجود نظام الجاذبية بين الكواكب والنجوم، فهو يمثل قوة المحبة بين موجودات العالم واعتماد كل كوكب على غيره في بقاءه ودورانه في مجاله الكوني؛ كل ذلك

---

1 تراثنا الروحي. صفحة 5/21.
2 صفحة 102.

وغيره من عجائب الوجود، لم يكن إلا لهدف استمرار بقاء الوجود بشكل عام والإنسان بشكل خاص، وإلا فسيكون كل هذا النظام البديع لا معنى ولا موجب له.

قال:- *(الجهود التي يبذلها الدعاة في البحث عن عُلماء معاصرين مميزين وصادقين في أيمانهم ينبئ باليأس، يعكس الإحساس بالصدى الناتج عن قشط قاع البرميل).*[1]

استنتاج خاطئ. فمثلما يوجد ملحدون يوجد في المقابل مؤمنون كثر، بغض النظر عن اختلاف معتقداتهم، صحيح أن هناك موجة من الإلحاد بدأت تنتشر بين المتعلمين أخيرًا، إلا أنه يصعب كشف حجمها بعد. ومع أن نفاد قطرات ماء روح الأيمان من آبار الأديان السابقة قد بدأ منذ قرون خلت، كما قال أحد العلماء في اشارته لنفاد روحانية الدين الإسلامي: (لقد كانت الروح العربية في القرون الثاني والثالث والرابع للهجرة قد استنفدت كل قواها وإمكانياتها الدينية الخصبة التي كانت لها من قبل، فكان لا مناص لها بعد هذا أن تنحدر من تلك القمة وتستفرغ إمكانياتها الدينية حتى يغيض عنها موارد التديّن جملة، وهذا ما تم فعلًا في القرن الثالث والقرن الرابع على وجه التخصيص).[2] ويكمل: (إن الإلحاد نتيجة لازمة لحالة النفس التي استنفدت كل إمكانياتها الدينية، فلم يعد في وسعها بعدُ أن تؤمن).[3] لكنه في المقابل، طالما ثبت تاريخيًا أن أمطار العناية الإلهية مستمرة الهطول على شكل شرائع وأديان، لذا لا بد أن يكون هناك ماء "بئر" جديد مليء بالأيمان المعارف، فليس غير الله تعالى يأتينا

1 صفحة 102.
2 من تاريخ الالحاد في الإسلام. صفحة 8.
3 المصدر السابق. صفحة 7.

بماء أيمان جديد، (قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ).[1]

يقول:- *(موقع الأنترنت الوحيد الذي نشر لائحة عن العلماء المسيحيين الحاصلين على جائزة نوبل فيه ست أسماء وذلك من أصل المئات.)*.[2]

لا وجود لإنسان لم ينحدر من عائلة متديّنة الأصل مهما كان شكل تديّنها، فلا موجب لتكرار مثل هذه النتائج.

قال:- *(إن نسبة التدين بين العلماء أقل منها بالنسبة للعامة، والعلماء الأكثر تميزاً هم الأقل تديناً على الاطلاق)*.[3]

هذه حالة ملازمة لأعمار الأديان، فكلما شاخت في أعمارها، زادت نسبة الخرافات فيها وبالتالي زاد ابتعاد العقول النيّرة عنها. بينما نلاحظ في القرون والعصور السابقة أن غالبية أو - لنقل - جميع رجال العلم كانوا من الكهنة أو رجال الدين. لذلك عندما يتفحص رجال العلم حاليا تفاسير رجال الدين وغيرها من مفاهيم نصوص الأديان القديمة بنظرة علمية، يجدونها مخالفة للعقل والعلم التجريبي، وهذا ما يبعدهم عن مجال التديّن. بينما في المقابل ، يأخذ العامة أيمانهم عن طريق التقليد والمحاكاة، ناهيك عن توكيل كهنتهم لفهم دينهم بدلاً عنهم، لذلك تكون نسبة أعدادهم عالية. و يا لغرابة موقف هؤلاء الأتباع، فهم يرفضون بكل شدّة تدخّل أقرب الناس اليهم في أصغر شؤون أمورهم الشخصية مهما كانت صلة قرابتهم لصيقة. بينما على العكس من ذلك، يسمحون بكل قناعة ورضى، توكيل رجال دين غرباء لا يعرفون عن شخصياتهم وتاريخ حياتهم شيئا،

---

1 قرآن. سورة الملك 30.
2 صفحة 102.
3 صفحة 103.

التدخّل في صميم شؤون أيمانهم وأرواحهم وتقرير مصير نعيمهم الأخروي، بل حتى أنهم يسمحون لهم التدخل في أخص شؤون حياتهم الزوجية.

يقدم دوكنز أمثلة استقراء وإحصائيات أجريت في الدول الغربية تبين قلّة أعداد المؤمنين.[1]

ورغم أنه لم يطلعنا على هذه الإحصائيات ولا مصادرها، إلا أن الرد على ذلك، يكون: عندما يجرى استفتاء في مجتمع متقدم علمياً، تنتشر بينهم فكرة الإلحاد، وتُطرح عليهم أسئلة دينية عن وجود الله تعالى، فمن المرجح أن النتائج ستكون في صالح الخيار الثاني . ولو طرحنا ذات الأسئلة في مجتمع متدين، فمن المؤكد أن النسبة الراجحة ستكون للفئة الأولى . وهذا ما يهز جديّة وصدق النتائج. فللجوّ العلمي العام وللحرية الشخصية دورهما المؤثر في المجتمعات المتحررة، كما أن للتقليد الأعمى والجهل تأثيرهما في مجتمعات العالم الثالث. لذلك ليس هناك ما يدعو لتقديم مثل هذه الإحصائيات، حيث لا تقدم نتائج موثوق بها، فلا نفع منها إلا زيادة حشو الكلام.

يقدم سؤالاً سبق وأجبنا عليه بأشكال مختلفة. وهو:- *(هل هناك أي دلائل بأن الملحدين ينتمون الى الفئة الأفضل ثقافة والأرقى تعليماً في المجتمعات بشكل عام؟)*.[2]

عند التوجّه لاكتساب العلم بشكله المجرّد، فلا فرق بين قوة عقل ملحد أو عقل متديّن . ولكن بمجرد وضع الأفكار الدينية ميزاناً أو قاعدة لقبول أو رفض العلوم، هنا سيكون الفرق واضحًا؛ لذلك تعلو نسبة الثقافة بين الملحدين لعدم وجود موانع تقليدية موروثة. وسيكون الجواب: نعم وبنسبة واضحة.

---

1 صفحة 104.
2 صفحة 105.

يقول:- *(التديّن يتناسب عكسياً مع الاهتمام بالعلم و "بشكل قوي" التحرر السياسي).*[1]

قديماً كانت أمور حياة البشر بسيطة تسير بتحكّم شرائع الأديان، لذلك لم يكن هناك تعارض بين العلم والتديّن لأن الكهنة ورجال الدين كانوا هم أصحاب العلوم. ولكن بتوقف الأديان عن التطور الروحي والعلمي وانقطاع مدد مياه الروحانيات عنها - دليل ذلك تفرقها الى شيع وأحزاب، وما ساد تاريخها من تخبط سياسي وحروب - وبما أن علم السياسة ظهر في الأصل لمواكبة أمور المجتمع مع التقدم، وبما أن السياسيين يبحثون عن صالحهم وصالح أحزابهم وأممهم، فلا غرابة أن يستعينوا بالعلم لإدارة شؤون مجتمعاتهم للحصول على نتائج أفضل . كما أن التحرر السياسي فيه خطر كبير على مصالح رجال الدين وعلى سلطتهم في التحكم بعقول بسطاء الناس، لذلك يقفون له بالمرصاد.

يقول:- *(اختصاصيو علم الاجتماع في انجلترا وجدوا بأن واحداً من أصل اثني عشر فقط ينفصل دينياً عن معتقدات والديه).*[2]

هذا ناتج طبيعي، ومن المؤكد أن هذه النسبة ستزداد كلما زاد الوعي العلمي والثقافي بين الشعوب، فلا ضرورة للعجب، فحالات التديّن مستمرة في تناقص نسبتها لتصل الى درجات ضئيلة مقابل زيادة نسبة الذكاء البشري كل يوم، طالما لا جديد يبعث روح الأيمان ويحييها لتغيير هذه النسبة.

يورد مثالاً لعالم الرياضيات الفرنسي "بليز باسكال" في الدعوة للأيمان بوجود الله تعالى، أطلق عليه اسم "رهان باسكال"، قال:- *(مهما قلّت الدلائل على وجود الله، فإن العقوبة التي تنتظر الاختيار*

---

1 صفحة 105.
2 صفحة 105.

الخاطئ هي أكبر. أحكم الطرق هي الايمان بالله، لأنك لو كنت مصيباً ستربح النعمة الكبرى، ولو كنت مخطئاً، فلن يكون هناك فرق. بينما إن لم تؤمن بالله وكنت مخطئاً فأنت محكوم للعنة أبدية، ولو كنت مصيباً فلم يكون هناك أي فرق . وعلى ذلك فالقرار لا يحتاج لذكاء. عليك الأيمان بالله).[1]

رغم بساطة فكرة باسكال، إلا أنها تبقى دعوة مفيدة للتمسك بالدين والأخلاق خلال حقبة تردي المفاهيم الدينية ووفاة روح الأديان القديمة وازدياد قوة العلم. إلا أنها من جانب آخر، دعوة الى التقليد الأعمى المخالف لسبيل منهج العلم وتحث للاتكال على رجال الدين، وهذا أمر مخالف لما تدعو له روح العصر من تقدم وانفتاح عقلي؛ لذا فالاعتقاد والعمل بموجبها اليوم، لا يمكن اعتباره أيماناً حقيقيًا، فلقد كانت طريقة قديمة لم تعد تتفق مع حرية عقل الانسان واستقلاله.

يقول:- *(ما السبب الحقيقي وراء أننا نقبل فكرة بأن الشيء الوحيد الذي يجب أن نفعله لإرضاء الله هو الأيمان به؟ لماذا هذه الخصوصية في الأيمان؟ ألا يجب أن يكافئ الله الطيبة أو الكرم أو التواضع أو الصدق؟).*[2]

تتنزل الأديان لفائدة البشر وتنظيم مجتمعاتهم، وليس لفائدة الله تعالى ومنفعته، وهذا فضل عميم من الخالق تعالى. فالإنسان في حقيقته مخلوق روحاني يستعمل جسده المادي لتطور روحه ورقيّها، لذا فهو يبحث عن كل ما يسمو بأخلاقه وروحانيته وعلمه استعدادًا لشغل مكانته المستحقة في العالم الروحاني القادم. ولقد حار الفلاسفة في سبب وجود الانسان، ومن أين جاء والى أين يذهب، لكن بعدما فهمنا أن الانسان في حقيقته هو روح، وما الجسد إلا وعاء، فلا سبيل

1 صفحة 106.
2 صفحة 107.

لتحقيق الرقي الروحي إلا بالأيمان والعلم وخدمة البشر. أما سبب هذه الخصوصية، فالله تعالى خالق واحد أوحد ولا يوجد إله غيره، إن شئنا ذلك أم أبينا، (لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّـهُ لَفَسَدَتَا)،[1] ومن عظيم رحمته أن أوجد سبيل الأيمان لرقي أرواح من يطع أوامره من عباده، وترك الخيار لهم (فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ).[2]

إن فكرة إرضاء الله تعالى بالأيمان، مثلها - والمثال يُضرب ولا يقاس - مثل إرضاء الوالد حين رؤية أبناءه يفعلون ما يراه حسنًا، فيسرّه ويرضيه، فالفائدة تصب في مصلحة الأبناء وليس في مصلحة الوالد. وكما يرضى الملك على وزراءه وعماله حسن إجراء عملهم، فالفائدة تعود على عموم شعبه. وهكذا يأمل الله تعالى من تقبّل البشر للأيمان بأديانه عودة الفائدة عليهم، فلا أيمانهم ولا كفرهم يزيد أو ينقص من شأنه تعالى شيئًا. فالاتصاف بالمُثل الجيدة والصفات الحسنة والأعمال النافعة، سبيل الترقي الروحاني الوحيد لأرواح العباد، وثمرة ثمينة ينالها المؤمن في العالم الثاني جراء تطبيق مناهج الذات الإلهية.

يقول:- (ماذا لو كان الله عالماً يعتبر الصدق في التحري عن الحقيقة حسنة عليا).[3]

هذا هو بالضبط ما أخبرت به الديانات ونصح به الأنبياء. ولقد ورد عن النبي محمد(ص): "الكلمة الحكمة ضالة المؤمن".

و (عندما سئل بيرتراند راسل عن موقفه بعد الموت والوقوف بين يدي الله الذي سيسأل راسل عن سبب عدم أيمانه به. كانت إجابة راسل "عدم كفاية الأدلة").[4]

---

1 سورة الأنبياء 22.
2 سورة الكهف 29.
3 صفحة 107.
4 صفحة 107.

بالفعل. لعدم كفاية الأدلة بعد الانفصال الواضح بين المفاهيم الدينية القديمة وثوابت العلم الحديث . فراسل يتمتع بدرجة ذكاء عالية مكنته من معرفة عدم كفاية ما بين يديه من أدلة تفاسير الكتب السماوية القديمة بعدما بقيت على حالتها البسيطة لمئات السنين عاجزة عن مسايرة تطور العلوم.

(... ألن يحترم الله راسل على شكه الشجاع هذا؟).[1]

من المؤكد أن ينال هذا الموقف العقلاني شيئاً من الاحترام لعدم كفاية أدلة التفاسير . فلو عُرض ذات الموقف على قاضي عاقل حكيم منصف، فلن يتردد في الحكم لصالح راسل. فما بالنا بأعدل العادلين وأحكم الحاكمين؟

(... وبما أننا لا نعرف موقف الله؟).[2]

خطأ فادح وجهل بنصائح الأديان وعلومها . فنحن نعرف موقف الله تعالى من عباده حيث لن يكون بين يديه مظلوم إلا وينصفه . فمن وصاياه في التوراة:- (لا ترتكبوا جورًا في القضاء).[3] و (العدل العدل تتبع).[4] و (إن جميع سبله عدلٌ . إله أمانة لا جور فيه . صدّيق وعادل هو).[5] وجاء في الإنجيل الجليل:- (لأنه أقام يومًا هو فيه مزمع أن يدين المسكونة بالعدل).[6] وورد في القران الكريم ما يطابق هذه المفاهيم:- (إِنَّ اللَّـهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ).[7] وكذلك (وَرَحْمَتِي

1 صفحة 107.
2 صفحة 107.
3 توراة. سفر اللاويين 15:19.
4 توراة. سفر التثنية 20:16.
5 توراة سفر التثنية 4:32.
6 سفر أعمال الرسل 31:17.
7 قرآن. النحل 90.

وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ).[1] فمن خلال هذه النصوص المباركة، نعرف موقف الله تعالى في رحمته وعدله .

قال:- *(... لنفترض أن الإله الذي تقابله بعد الموت كان بعل، ولنفترض أن بعل غيور تماما كما قيل عن يهوه . أليس من الأفضل لباسكال أن يراهن على عدم وجود إله من المراهنة على الإله الخطأ؟).*[2]

بسبب اختلاف وتعدد اللغات القديمة، وبسبب تماس دين اليهودية مع حقبة تعدد الآلهة، كان لله تعالى أسماء متعددة، كل أمة اطلقت عليه اسم مختلف حسب لغتها ولهجتها. لكن جميع الأديان أشارت الى إله واحد هو مرسل كل الرسل والأنبياء. فجميعهم دعوا الناس للإيمان بذات الإله وذات الرب.[3]

أما صفات الله المتعددة التي تداول الناس بعضها دون غيرها، فمرده الى توافقها مع طباع البشر ومستوياتهم الذهنية والاجتماعية والنفسية؛ ولقد سبق وجئنا على مثال اختلاف جنان وجحيم وآلهة الأمم القديمة التي ناسبت مستويات ثقافاتها الاجتماعية، وكذلك تصوّر أمم الأديان إلاهها كلٌ حسب مستوى حالتها الثقافية وظروفها الاجتماعية.

---

1 قرآن. الأعراف 156.

2 صفحة 107.

3 لا ينكر تعدد الآلهة بالضرورة وجود قوة واحدة أو قانون واحد يحكم الكون كله. في الواقع، تعترف معظم الديانات المتعددة الآلهة وحتى الديانات الأرواحية بهذه القوة العظمى التي تقف وراء جميع الآلهة والشياطين والصخور المقدسة المختلفة. ففي الديانة اليونانية الكلاسيكية المتعددة الآلهة، كان زيوس وهيرا وأبولو وزملاؤهم خاضعين لسلطة قاهرة وشاملة، هي سلطة القدر "مويرا، أنانكي". وكانت الآلهة الإسكندنافية أيضا خاضعة للقدر، الذي حكم عليها بالاندثار في كارثة "غسق الآلهة". وفي الديانة المتعددة الآلهة ليوروبا في غرب أفريقيا، ولد جميع الآلهة من رب أعلى يسمى أولودومار، وبقيت خاضعة له. ويتحكم مبدأ واحد في الديانة الهندوسية المتعددة الآلهة؛ هو أتمان، في مختلف أطياف الآلهة والأرواح، والبشر، والعالم البيولوجي والفيزيائي. ويعتبر أتمان الجوهر الخالد أو روح الكون كله. وكذلك روح كل فرد وكل ظاهرة. (العاقل. يوفال نوح. صفحة 256).

(لنفترض بأننا آمنا بأن هناك احتمالاً صغيراً لوجود الله. وعلى الرغم من ذلك، يمكننا القول بأنك يمكن أن تحيا حياة أفضل لو راهنتَ على عدم وجوده، فيما لو راهنت على وجوده والذي يعني ضياع وقتاً ثميناً في عبادته وتقديم الأضاحي له والقتال في سبيله والموت لأجله...الخ.؟).[1]

ما يلاحظ أن السيد دوكنز مستمر على مناقشة مبادئ الأديان القديمة ولا ينفك عن انتقادها. إن سعي الانسان في بذل الجهد في الدراسة واكتساب العلم لمواجهة مسيرة الحياة، لا يعد مضيعةً للوقت، وكذلك السعي لتطوير روحانيته، فالحياتان بحاجة الى سعيّ ومثابرة. وما يُصرف من وقت في التعبد والصلاة وقراءة الأدعية والمناجاة، وجد في المقام الأول لتنقية النفس وخدمة البشر وإصلاح العالم وهي من سبل رقي الروح البشرية استعدادًا للوفود الى عالم الأرواح الخالد والوقوف بين يد الله تعالى . فالإنسان مهما تطورت وتحسنت حياته المادية، لن يصل الى مستوى سعادة الطيور وبقية الحيوانات، فهذه المخلوقات الدانية فاقدة العقل لا تتذمر ولا تشكو من صعوبة الحياة ومشاكلها، ولا من قلّة فرص العمل ، ولا تحزن لسوء تربية أولادها ولا تخطط لكسب قوت غدها ولا تشعر بمضايقات مَن حولها، ولا تجبر على القتال إلا الكواسر منها . إن السعادة الدائمة التي يبتغيها الانسان في هذه الدنيا أمر مستحيل، إذ لا بد أن يكدر حياته ويتعسه أمر ما طالما يتمتع بالعقل والمشاعر الوجدانية ومجبر على مخالطة من حوله، فالحياة مليئة بالمتاعب والمنغصات، ومهما طالت ، فلا بد من نهاية لها . واستنادًا الى نظرية الأضداد، فطالما

1 صفحة 107.

أن هناك سعادة قصيرة الأمد، فهنالك سعادة طويلة الأمد . وإلا فلا معنى لهذه الحياة حينما نأتيها بلا ارادة ونخرج منها مجبرين.

أما ضياع الوقت في العبادة، فهذا مفهوم خاطئ، لأن الانسان بحاجة دائمة الى التذكير بوجود سلطة عليا تحاسبه في نهاية المطاف، وهذا ما يوجِد مجتمعات سليمة مطمئنة مخافة العقاب الأخروي، وإلا فسلطة القانون الوضعي غير كافية وتنهار عند حدوث أول فوضى اجتماعية. إن من يعتبر العبادة مَضيعة للوقت، مثله مثل أعمى يعيش في الظلمات ويقول ما حاجتي للنور والبصر فأنا أعيش حياتي سعيداً مكتفيًا؛ أو مثل جاهل ينتقد من يسعى حثيثًا لطلب العلم، ويقول ما حاجتي للعلم فأنا أفهم كل شيء. ولقد قال الفيلسوف اسبينوزا:- (إن الانسان الغارق في لذّات الجسد لا يستطيع أن يعلم هذه الحقيقة، بل وتبدو له عبثًا، لأنه ليس لديه معرفة كافية بالله تعالى، ولأنه لا يجد في هذا الخير الأقصى شيئًا يستطيع أن يلمسه أو يأكله أو يؤثر في جسده الذي يبحث عن أعظم قدر من لذّاته، ما دام هذا الخير الأقصى ينحصر في التأمل والتفكير الخالص).[1]

وبالنسبة لتقديم الأضاحي، فهذه عادة قديمة متجذّرة في النفوس منذ عمق التاريخ، وكانت بدايتها بتقديم أضاحي بشرية، ولم يكن من السهل التخلي عنها أو تبديلها لولا أن قام النبي إبراهيم بتغييرها الى أضاحي حيوانية من خلال رؤيا وصلته من السماء. لكن الانسان لا بد وأن تتحسن أفكاره مع تقدم العلم ويستنكر هذه العادات ويتركها، وكما سبق وانتهت الأضاحي البشرية وبطل تداولها، سيأتي الزمن لتنتهي الثانية بلا شك.

---

1 اسبينوزا. صفحة 187.

أما القتال في سبيل الله، فكان هذا منهج قديم أيضاً، اتفق مع شراسة البشر في تلك العصور السحيقة؛ ولكن، لولا الدفاع عن المبادئ الدينية وما قدمته من مبادئ الأخلاق والإنسانية لما حصل أي تقدم في حياة البشر. ولو علمنا أن مبادئ الأديان تحوي التقدم العلمي إضافة الى التقدم الروحي، لأدركنا أن قتال أمم الأديان القديمة ومعاركها ضد بقية جماعات البشر أو ضد بعضها، كان ضرورة للدفاع عن المبادئ الخيّرة مخافة ردّة تخلف فكرية أو ظلامية غايتها السعي للقضاء على كل فكر جديد متطور. إن تعاليم الأخلاق الحسنة التي جاءت بها الأديان، تمجّد الحياة وتأمر بخدمة البشر وتفضيل الآخر على النفس ومساعدة الآخرين والعمل من أجل بناء مجتمعات راقية متقدمة علميًا واجتماعيًا، وهذا ما تحقق بالفعل، فهذه المبادئ السامية وغيرها الكثير هي أهداف أساسية لبناء مستقبل متطور جديد للجنس البشري كان من واجب أمم الأديان القديمة الدفاع عنها والمحافظة عليها. فالإنسان عاجز تماما عن ايجاد أو اختراع مبادئ الضمير والأخلاق بذاته.

قال:- *(أطالب القارئ الكريم وضع هذا في ذهنه عندما نناقش العواقب الأليمة التي تترتب على الأيمان ومراعاة التعاليم الدينية).*[1]

أية عواقب أليمة يشير إليها؟ فلولا التعاليم الدينية، لما كان هناك تطور لعلوم البشر وروحانيته وظهور مَلَكة الضمير، فكل ما اكتشفه الانسان من علوم ومعارف كان سببه الدين ورجاله، ابحث في صفحات التاريخ وستجد أن أساس العلوم كلها كان من الآلهة والكهنة ورجال الدين ومن داخل المعابد . إن أهداف التعاليم الإلهية كانت تتطور لتناسب حالة كل أمة في وقتها وزمانها، ولولا طول المسافات

1 صفحة 108.

وصعوبة المواصلات وعوائق الطبيعة واختلاف لغات الأمم وما كان ينتشر بينهم من عداوة وشحناء بسبب مشاعرهم البدائية ومقاومتهم لكل فكر ودين جديد، لانتشرت جميع الأديان القديمة أكثر مما وصلت إليه. إن ما حصل من صطدامات وحروب لم يكن سببه جوهر تعاليم الأديان ، فهي متفقة في فكرتها لصالح الانسان، بل بسبب ما كان ينتاب البشر من موروثات الجهل والتعصب والأفكار الطفولية.

انتهينا من الفصل الثالث ولننتقل الى الفصل الرابع.

الفصل الرابع
(لماذا الاحتمال الأكبر هو عدم وجود الله)[1]

يبتدئ السيد دوكنز هذا الفصل بسؤال مكرر لتوماس جفرسون سبق وأن جئنا على مناقشته، في قوله:- *(رجال الدين من مختلف الطوائف.. يعانون من تقدم العلم كما يعاني السحرة من موعد شروق الشمس.)*.

بالفعل. فالعقل البشري في تطور مستمر وسيدخل سريعاً - أو لنقل قد دخل - أولى عتبات الاستغناء عن رجال الدين والسحرة والمشعوذين الذين يستغلون الجهلة والبسطاء ، إذ لم يعد الانسان الحضاري بحاجة الى مساعدتهم في كيفية تواصله مع الله تعالى في صلاته وصيامه وتعبده وأداء أعمال الخير أو المساهمة في تحسين ظروف حياته وإصلاح المجتمع . صحيح أن دور الكهنة ورجال الدين كان لازمًا وضروريًا في الزمن القديم لمسيرة التربية البشرية بسبب انتشار الجهل والأمية ، لكن اليوم لم تعد هناك حاجة اليهم، فغالبية البشر متجهون نحو العلم والتعليم.

ثم يتحول السيد دوكنز الى نظرية داروين ويكيل لها شتى أنواع المديح. وبغض النظر عما ورد في كتاب "أصل الأنواع" من شروحات مسهبة وتفاصيل وفرضيات متنوعة عن تطور الكائنات ورقيّها والتي هي بحاجة الى علماء متخصصون لمتابعتها وإبداء آرائهم العلمية في موافقتها أو رفضها. نجد في ذات الكتاب فقرة للفيلسوف الإغريقي "أنتكسمندر" (610 ق.م.)، قد يكون هو التفسير الأقرب الى المعقولية في شرح موضوع التطور، قال:- (إن نشأة

---

1 صفحة 113.

الكائنات الحيّة هو نتيجة تأثير الشمس على الأرض، وتميز العناصر المتجانسة بالحركة الدائمة، وأن الأرض كانت في البداية طينية ورطبة أكثر مما هي عليه الآن، فلما وقع فعل الشمس، دارت العناصر الرطبة في جوفها، وخرجت منها على شكل فقاقيع، وتولدت الحيوانات الأولى، غير أنها كانت كثيفة ذات صور قبيحة غير منتظمة، وكانت مغطاة بقشرة كثيفة تمنعها من الحركة والتناسل وحفظ الذات، فكان لا بد من نشوء مخلوقات جديدة، أو بسبب ازدياد فعل الشمس في الأرض لتوليد حيوانات منتظمة يمكنها أن تحفظ نفسها وتزيد نوعها ، أما الانسان فإنه ظهر بعد الحيوانات كلها، ولم يخل من التقلبات التي طرأت عليها، فخُلق أول الأمر شنيع الصورة ناقص التركيب ، وأخذ يتقلب إلى أن حصل على صورته الحاضرة.)[1].

وبالرجوع الى ما ذكره كارل ساغان، نجد توافقا مع هذا الرأي، حينما قال:- (وعموما فقد وجد أن الحياة تنشأ بشكل غير متوقع في مركبات الكبريت في الفجوات ذات الحرارة المرتفعة جدا في قاع محيطات كرتنا الأرضية).[2]

ويكمل ساغان ما يُستشف منه بصورة غير مباشرة أن التفاعلات الكيمياوية لتربة الأرض أدت لظهور المخلوقات ومن ضمنها البشر، وبذلك لا بد أن كانت بتخطيط عقل كلي نتيجة نجاحات سلسلة التطور التي لم يكتنفها الفشل، وإلا فجميع تلك المخلوقات الدقيقة والصغيرة القديمة ليس لها القدرة على التفكير وتطوير نفسها ومن المحقق إنها واجهت صعاب وعقبات لتخمدها وتعيدها الى حالة الموت والفناء، رغم أن ساغان لم يقصد هذه النتيجة. قال:- (لا يوجد سوى عدد

1 أصل الأنواع. داروين. صفحة 52.
2 الكون. كارل ساغان. صفحة 16.

محدود جدا من جزيئات الحمض النووي الصالحة لأشكال الحياة المعقدة كالبشر . ومع ذلك فإن عدد الطرق المفيدة لجمع الحموض النووية بعضها بالبعض الآخر هو كبير الى درجة مذهلة، وربما يزيد هذا العدد على مجموع عدد الإلكترونات والبروتونات في الكون كله. وبالتالي، فإن عدد أفراد الكائنات البشرية الذين يمكن أن يخلقوا هو أكبر بمرات كثيرة جدا من عدد الذين خلقوا حتى الان: إن القدرة الكامنة **المجهولة** للجنس البشري هائلة).[1] وبهذا، فطالما لا تتوافق فرضية الصدفة المتتالية مع عملية التطور الناجحة المستمرة، فالمفهوم البديل لما قدمه ساغان، هو أن الوجود كان بترتيب وبرنامج إلهي استغرقت عمليته ملايين السنين.

ونستفيد من مثال آخر لساغان عن استحالة ظهور المخلوقات على الأرض بدون موجد خالق، قال:- (إذا أردت أن تصنع فطيرة من لا شيء، فيجب عليك أولا أن تخترع الكون).[2]

ونكرر القول: إن الفرضية الأكثر قبولا، هي أن تربة الأرض كانت مهيأة ذاتيا لظهور مخلوقات بأشكال بسيطة وأحجام صغيرة من خلال ما حصل من تفاعلات كيمياوية "طبخت" نتيجة حرارة الأرض والشمس أدى الى تركيب والتصاق مجموعات متجانسة من الخلايا الفردية، كل مجموعة متفقة الخواص، أخرجت نوعا منفردا من المخلوقات، فكان منها ما تشابه في الشكل ومنها ما تخالف. وبمرور ملايين السنين نمت هذه المجموعات وتبلورت وتطورت الى كائنات متعددة كل منها له خواص وصفات مستقلة، فبقي الانسان والأرنب والقط والغزال وغيرها، كل على نوعه يحسّن من نوعه وشكله وهيئته بما ناسب ظروف الطبيعة.

---

1 الكون. كارل ساغان. صفحة 51.
2 الكون. كارل ساغان. صفحة 173.

من الملاحظ أن السيد دوكنز استعان كثيرًا بنظرية دارون وتحذلق بالكلام وتلاعب بالألفاظ وكرر عبارة (الانتخاب الطبيعي) ليحشرها بين ثنايا صفحات كتابه حشرًا، متجنبًا استعمال مفردة "الصدفة" التي هي أساس وغاية مقصده. كنت أتوقف عند كل جملة اتفحصها - مع إن مجمل كتابه يستند على روايات وفرضيات واحتمالات هشّة داخل 'متاهات' متتالية - لكني لم أجد ما يقطع بالجزم ويدعم فكرة تغير الكائنات من نوع الى آخر ومن جنس إلى جنس حسب فرضية التراكم أو الانتخاب الطبيعي التي يدعو لها. لذا فالاحتمال الوارد - ولا أقول الاستنتاج - أن دوكنز لا يملك حجّة واضحة، فهو يحاول إدخال القارئ في حلقة متاهة كبيرة، لا أول ولا آخر لها، ويحاول اظهار فكرته وكأنها فكرة عبقرية معقدة ليربك عقل القارئ ويصعّب عليه فهمها حتى يصيبه بالإحباط ويدفعه للظن بقصور فطنته وذكاءه في فهم هذه الفرضية "الخارقة" فيسقط في يده وينقاد لتبنّي فكرة الإلحاد باعتبارها الهدف الأخير من كتابه؛ كما هو حال من يستمع لشرح فكرة الثالوث المقدس حينما يشعر بصعوبتها وعدم القدرة على استيعابها ، بينما يبقى المتحدث أو الملقن يردد عباراته استظهاراً محاولا بإصرار فرض فكرتها فرضًا.

أخيرًا نجد دوكنز يقدم رأيه في نظرية داروين ويصفها بالبساطة الطفولية، توافقًا مع رأي "جاك مونود". قائلا:- *(الداروينية ... هي حقا نظرية بسيطة الى حد ملحوظ؛ وربما ظن المرء أنها بسيطة على نحو طفولي بالمقارنة بمعظم محتويات علمي الفيزياء والرياضيات).* وبعد ذلك يقول مستغربًا:- *(كيف أمكن لفكرة بسيطة كهذه أن تظل*

زمنا طويلا هكذا دون أن يكتشفها مفكرون من حجم نيوتن، وجاليليو، وديكارت، وليبنتز، وهيوم، وأرسطو؟).[1]

والجواب على هذا الاستغراب: من المؤكد أن هؤلاء العباقرة قد مروا بهذه الفكرة لكنهم استبعدوها لعدم معقوليتها.

ويستمر في الاستعانة بآراء غيره . ففي عنوان جانبي:- *(الانتخاب الطبيعي والوعي)*، ينقل عن دوغلاس ردًا على سؤال أحد الصحفيين، قوله:- *(أنا أفضل الرهبة الناتجة عن العلم، على الرهبة الناتجة عن الجهل في أي وقت).*[2]

رأي متفق عليه، وهذا أمر طبيعي حينما يستعمل الانسان العلم في تمحيص الأمور العقلية . لكن، طالما يفتقر الرجلان لمفاهيم دينية عصرية ويخوضان في بحور تفاسير الأديان القديمة، فمن الطبيعي أن يرجحا العلم على الجهل. أما السؤال الذي يبرز على طاولة البحث: ماذا لو ظهرت مفاهيم دينية جديدة تتفق مع العلم وتوافق المنطق والعقل السليم، فهل سيسارع الرجلان على تأييدها والأيمان بها، أم سيبقيا يمتطيان ذات ركوبة التعنّت والتعصّب؟

ثم نجده ينتقد من لا يستوعب فكرته ويخاطبه بالقول:- *(يبدو بأنك تحتاج لأن تنقع وتغطس وتسبح في هذه النظرية قبل أن تستطيع أن تقدّر فعلا قوتها الحقيقية.).*[3] وهنا يظهر وكأنه الفارس الوحيد (Lone Ranger) الذي يخرج من اللا مكان راكبًا حصانه الأبيض لينقذ أميرتين وليس أميرة واحدة (أميرة بداية الخلق الدينية وأميرة الصدفة العلمانية).

---

1 دوكنز. صانع الساعات الأعمى. صفحة 15.
2 صفحة 118.
3 صفحة 119.

إن ملخص هدف السيد دوكنز من تأليف كتابه هو وضع فرضية (الانتخاب الطبيعي) بديلا لفكرة الخلق الغائية (لكل موجود غاية من وجوده)، وكبديل أيضا لفكرة الصدفة التي يتظاهر في ابعادها كسبب لوجود الخلق، لمعرفته المسبقة أن مفهوم التصادف المتكرر أصبح فكرة فاشلة غير منطقية، وهنا أنقل حرفياً ما حاول به توضيح واثبات فرضية "الانتخاب الطبيعي"، ولنرَ كيف اعتمد على فرضية الصدفة بشكل غير مباشر حيث بقي يدور حولها لإثبات تطوّر فرضية التراكم . ومع ذلك لم يجد مفرًا من التصريح باعتماده عليها في عبارة مقتضبة دسّها بين ثنايا أسطره بحذر وذكاء شديدين رغم إعلانه المستمر بعدم تأكده مما يقدمه . فماذا قصد إذن بالانتخاب الطبيعي؟ لنقرأ له:- *(الانتخاب الطبيعي عملية تراكمية، مما يجزئ مسألة اللا احتمالية لأجزاء صغيرة . وكل منها صغير بحيث أن* ***لا احتماليته منطقية*** *بشكل ما، ولكن ليست من المستحيلات الحدوث. وعند تراكم العديد من التراكمات، فإن الناتج النهائي* ***سيكون لا احتمالياً بشكل كبير جداً جداً بالطبع، لا احتمالي بشكل لا يقبل مجالا للشك*** *أن يكون قد حدث عن طريق* ***الصدفة****. والناتج النهائي الذي يُشكل الكائن الذي يحاجج به الخلوقيين بشكل مرهق بأشكاله المختلفة. الخلوقي يخطئ الهدف. لأنه يصر على أنه يُعامل احتمالية التكوين المعقد كخطوة واحدة، حدث واحد.* ***أنه لا يفهم*** *قدرة التراكم.).*[1]

هذه الفكرة بحاجة الى شيء من التوضيح، لأنه حاول إخفاء كثير من الثغرات لإضاعة فرصة الرد والاعتراض عليه وعليها. فملخص ما جاء به: محاولة ابعاد فكرة حدوث (الصدفة الاجمالية) لمرة واحدة، ليضع بدلا عنها (صُدَف مجزئة عديدة). ولكي يقنع القارئ

1 صفحة 123.

بفكرة الانتخاب الطبيعي، جَزَءَ واحد (الصدفة) الى آلاف الأجزاء. وبهذا لم يبتعد عن فكرة الصدفة التي حاول تجنبها، بل جزءها كي يسهل مرورها.

ماذا يعني ذلك؟ أنه يحاول ابعاد فكرة ظهور الوجود الكوني بهدف غائي متسلسل، ليضع بدلها فكرة الانتخاب الطبيعي المجزئة المتتالية، ليعلل ظهور الخلق بطريقة تدرج ظهور الأجزاء. وهنا بدلا أن تكون هناك صدفة واحدة كبيرة مرفوضة، يفترض - مضطرًا - آلاف الصدف الصغيرة بدلا عنها. والأغرب من ذلك يدخل فرضية "الحظ" في تسلسل حدوث عملية الانتخاب الطبيعي حينما قال: *(الانتخاب الطبيعي يعمل لأنه تراكمي ذو اتجاه واحد للحصول على نوعية أفضل. وهو بحاجة لبعض الحظ ليبدأ بالعمل).*[1]

في النهاية، يتهم الخلوقي (***أنه لا يفهم*** *قدرة التراكم*)! صحيح أن جميع البشر ليسوا علماء أو فلاسفة أو متخصصين ليتمكنوا من المحاجة، إلا أن فكرته تبقى بعيدة الاحتمال تماما.*

*****

مرّت حدود عشرين صفحة محشوّة بالكلام المغلف والعبارات الهلامية ، تتخللها أشكال من لعبة المتاهات استمر في تقديمها حتى قال:- *(نستطيع التوقع باطمئنان بأنه، لو أننا* ***انتظرنا عشرة ملايين*** *سنة أخرى، فإن مجموعة جديدة تماما من الاحياء ستكون متأقلمة تماما لظروفها في الحياة كما هو الحال مع أحياء العصر).!*[2]

أي منطق علمي هذا ! أن ننتظر عشرة ملايين سنة ! ولماذا لم يجعلها تسعة ملايين ونصف؟ أو عشرة ملايين وربع، ألا يظنها مدة مناسبة أفضل؟ يا صديقي إن الأبحاث العلمية والجيولوجية عن عمر

---

1 صفحة 143.
2 صفحة 142.

الكائنات والانسان، لم تثبت بالجزم مثل هذ الزمن الخيالي. فهذا الكلام نوع من أنواع التخريف المخالف للعلم والعقل . ثم ما رأيه إذا لم يحصل؟ فهل سيخرج "دوكنز" آخر ليقول: إن دوكنز الأول قد أخطأ التقدير، ولننتظر عشرة ملايين أخرى؟

ومن الغريب أن لا يكتفي بهذه المدة الخيالية للتحقق من صحة نظرية دارون، بل زادها في كتابه الآخر "صانع الساعات الأعمى" الى عشرة أضعافها، ما يعني مائة مليون سنة أو أكثر، فقد قال:- *(فنحن قد جُهزنا لإدراك عمليات تكتمل في ثواني، أو دقائق، أو سنوات، أو هي في الأعظم تكتمل في عقود . أما الداروينية فهي نظرية عمليات تراكمية بطيئة جدا حتى أنها تكتمل على مدى يتراوح بين* ***الآلاف الى الملايين من العقود.)!***[1]

إن فرضية الانتخاب التراكمي التي يتبناها، تقوم على افتراض شقين من نسب النجاح، الأول زمني والثاني بايولوجي. فهو يفترض الحاجة لمرور ملايين السنين لتحققها. ويفترض أيضا لنجاح فرص التركيب وتراكم الإضافات الصحيحة لتحسين الأنواع والخاصيات الى ملايين المرات من المحاولات، ويزيد بأن الاحتمالين كانا ناجحين لملايين السنين بنسبة 100%. وهذا يعني افتراضه عدم وجود أي خطأ أو ارتداد ولو بنسبة واحد الى عشرات البليارات في هذه العملية التراكمية! وأفضل رد على هذا الافتراض الواهي، ما جئنا على ذكره في الفصل الأول لمثال الفيلسوف رينان عن إفلاس المؤسسات المصرفية. ولأن دوكنز يعلم أنها فرضية أبشع من الخيال، ضَرَبَ لتسويقها مثالا بذات البشاعة في كتابه الآخر، عن

1 صانع الساعات الأعمى. صفحة 16.

استطاعة قرد تأليف جملة قصيرة لشكسبير على آلة طابعة، ثم يعترف أن نسبة حصول ذلك مستحيلة، لكنها قد تحصل![1]

ثم يعاود القول:- *(بدون كيمياء لا توجد حياة. وحسب الفيزيائيين، فإنه لو اختلفت الثوابت الفيزيائية عما هي عليه ولو بشكل ضئيل جداً، فإن الكون سيتطور بشكل تصبح معه الحياة مستحيلة).*[2]

هذا يعني أن الكون قد استمر على نظام واحد في التطور والتركيب الناجح لملايين السنين دون حدوث خطأ واحد أفشل استمرارية توالي هذا الترتيب البديع.! هذا الافتراض "الدوكنزي"، يضعنا أمام حلٍّ لا ثاني له: وهو أن هناك وجود لعناية خارجية غاية في الدقّة ، من قبل ذات عظيمة قادرة؟

أما الفكرة المقابلة بعد كل هذا اللف والدوران فتقول: إن تكوين تربة الأرض كانت مهيئة من بداية وجودها وبدء تجمع عناصرها لعملية تفاعل كيميائية دامت بلايين السنين (إن الأرض يقدر عمرها حالياً بما يقرب من 4,6 مليار سنة)[3] لإظهار أنواع الحياة بأشكالها المختلفة بالتدريج تحت قانون التطور الطبيعي لمرة واحدة لن تتكرر. وما حصل فيما بعد من تطور في أشكال المخلوقات وتغيّر صورها، كان في اطار تطوّر نوع المخلوق المفرد في حدود تكوينه، وليس تحول حيوان الى آخر أو نوع نبات الى آخر. وهذا يعني أن النعامة لم تتحول إلى حمامة، وفرس النهر لم يتحول إلى فيل. بل كل مخلوق بقي كما هو وكان يتطور ويتحسن شكله ويتوافق في تكوينه مع تطور ظروف الحياة الطبيعية المحيطة به. بمعنى أنه من الممكن أن بعض الحيوانات كانت بأشكال مختلفة ولها صور وأحجام أخرى، لكن

---

1 المصدر السابق. صفحة 76.
2 صفحة 144.
3 الدقائق الثلاث الأولى من عمر الكون. ستيفن وينبرغ. صفحة 43.

صفات ونوعيه وخاصية كل منها بقي كما هو ، فالأسد بقي أسدًا، وصفات وخاصيات القرد بقيت قردًا . وهذا يعني بالنتيجة أن تفاعل عناصر ذرات مواد تربة الأرض قد استنفدت فاعلية كيميائيتها الأولية في إيجاد وإنتاج المخلوقات التي رافقت تكوّنها، ولم يعد بمقدورها انتاج مخلوقات جديدة. أما ما يُشاهد من حشرات أو نباتات أو طيور جديدة، فإما أنها كانت موجودة ولم نتعرف عليها من قبل بسبب محدودية التواصل والاتصال بين البشر، أو إنها كانت مدرجة أصلا في عملية الخلق الكيميائية الأولى، ولكنها تأخرت في النمو والكمال أو الظهور الى أزمان قريبة. وكما هو متفق عليه علميًا، فالنباتات هي أول ما ظهر على الأرض ثم الحيوانات ثم كان ظهور الانسان في المرحلة الأخيرة. وكما قال ساغان في ذلك:- (إن أكثر الاختبارات بدائية للسماء تكشف عن أننا متميزون، فالكون يبدو مصنوعا من أجل البشر. ويصعب التفكير مليا في هذه الظروف وتأملها دون المرور بخبرة الإثارة المصاحبة للشعور بالافتخار والوثوق. إن الكون بأكمله مصنوع من أجلنا! إذن لا بد أن نكون بشرا مهمين حقا.)[1].

هناك احتمال علمي وارد، وهو أن علماء الأحياء قد يصلون الى ترتيب أو تجميع أو تركيب أو صنع خلايا بسيطة حيّة بنسب كيمياوية دقيقة وصحيحة تتفق بدرجة عالية من الدقة مع مركّبات تكويناتها الأصلية، وفي لحظة اكتمال تجميع وربط ودمج ذلك التصنيع والتخليق البشري، سيستقطب هذا المكوّن من اللا مكان – مثل المغناطيس - روحًا خاصة به تناسب نسب امتزاج مواد خليته الحيّة، لتحلّ فيها وتبعث الحياة والحركة بداخلها في تشابه مكرر لمخلوق

1 كوكب الأرض. كارل ساغان. صفحة 28.

سبق ووجد طبيعيًا من ذات الصنف في أول بدء الخلق؛ وهذا احتمال وارد الحصول، مثلما استطاع العلماء إيجاد أصناف جديدة من النباتات أو أنواع من البذور.

وبهذا نعود للقول بأن ما حصل من تفاعل كيمياوي لمواد الأرض، كان بترتيب وإرادة عليم مقتدر، قدّرَ فيها هذه النتيجة النهائية للخلق . وليس للصدفة أو الحظ أي علاقة بالموضوع.

يقول:- *(إن أي إله قادر على تصميم كون، بشكل دقيق وببصيرة كاملة بشكل يؤدي لتطورنا فيه، عليه أن يكون على درجة من التعقيد واللا احتمالية مما يجعل وجوده يحتاج لشرح أكبر من الذي يفترض إنه يقدمه؟)*.[1]

لا حاجة للإطناب في شرح هذه النقطة الغيبية. فالعقل البشري عاجز تمامًا عن ادراك خالقه . ولقد حار عظماء الفلاسفة والأنبياء في معرفة الله أو تعريفه، وكل ما توصلوا له واتفقوا عليه، أن الله تعالى هو غيب منيع مطلق لا يمكن للعقل البشري معرفته أو ادراكه، وأن أفضل طرق وصفه، هي بنفي الصفات عنه، فهي الوسيلة الوحيدة لتعريف ذاته، لأن الكلمات هي أقصى ما يمكن للعقل استعماله، ومع ذلك هي عاجزة عن الوصول الى وصف صفات الله تعالى. ومرة أخرى، وحسب نظرية الأضداد، طالما هناك ما يمكن معرفته ووصفه، فهناك ما يجهل ولا يمكن معرفته أو وصفه.

عند وصول "دوكنز" لهذه النقطة في محاولته لتفهّم كيفية وجود هذا الكون المعقد التصميم، قال أن عملية فهمه وفهم ظهور المخلوقات ومن ثم ظهور الوعي أو العقل عند الانسان، هي عملية غير مفهومة لشدة تعقيدها و *(إن نظرية التصميم لا يمكنها تفسير*

---

1 صفحة 149.

الحياة).[1] وهذا ما يجعلنا ندرك أن الخالق جلَّ وعلا هو أعقد تصميماً و (*وجوده يحتاج لشرح أكبر*) من قدرتنا على شرح هذا التعقيد في تصميم الكون وظهور الخلق.

قد تجيب "نظرية الأضداد" على هذا التساؤل، فالحالة العامة للقدرة والعجز بين المخلوقات ظاهرة بنسب وأشكال متدرجة ومختلفة بينها، تبدأ من أعظمها الى أصغرها، مثلا: يقابل الحركة السكون، والنطق يقابله البكم، والنظر يقابله العمى، والضخامة تقابلها الضئالة، والوجود يقابله الخفاء، والمُعرّف يقابله المجهول. فهذه الحالة في قانون الأضداد موجودة ضمن قوانين الطبيعة، وما دامت صفة الضعف والعجز موجودة عند بعض المخلوقات، كذلك ستكون صفة القدرة موجودة عند غيرها. وبهذا يكون الوجود الإلهي وقدرته على خلق الكون وإيجاد الوعي والضمير، يقابله عجز الانسان على معرفة ذلك أو حتى تفهّمه . إنها عملية طبيعية تندرج تحت قانون حالة العجز عن فهم اللا مفهوم. إن الطبيعة بذاتها مبنية على قانون الأضداد ونظام "القدرة والعجز". فعلى سبيل المثال، إن فهمَ المختصين لسبب حصول عملية الإبصار للعين والشم للأنف، لا يعني فهم سبب استمرارية أجهزة القلب والرئة والكبد وبقية أعضاء الجسد في حركتها اللا إرادية المسببة لاستمرار الحياة. والاقتراح المقدم للدكتور دوكنز، هو السعي لفهم إعجازية استمرار حركة أعضاء الجسد اللا ارادية - وهذا مجال قريب من اختصاصه - ثم الانتقال لفهم تعقيدات خلق الأكوان، فمن الطبيعي أن تبدأ عملية الفهم بالقريب وما هو تحت اليد ثم الانتقال الى البعيد ثم الأبعد. إن علماء الحضارات مع كل الاكتشافات الأثرية ومع مساعدة جميع نتائج

---

1 صفحة 143.

العلوم الأخرى لم يستطيعوا التوصل الى فهم السبب الحقيقي لظهور الحضارات مع انها عملية مادية في ظاهرها، ولو تفحصنا ما قدموه من بحوث، نجدها تقتصر على أسباب انهيارها وزوالها وليس عن سبب انبثاقها وظهورها، يقول الفيلسوف توينبي: (أخفق تاريخ التطور التكنولوجي كما فشل تاريخ التوسع الجغرافي، في تزويدنا بقاعدة تفسّر ارتقاء الحضارات)،[1] ومن الوارد أن نسمع اعتذار السيد دوكنز جوابًا لهذا الاقتراح بالقول: أن لكلٍ اختصاصه وجانب عمله. وهذا أمر صحيح، لذلك غفل عن نظرية "القدرة والعجز" ونظرية "التضادد"، ولم ينتبه لما وقع فيه من خلط، أو لنقل ما حاول التغطية عليه.

إن فكرة خلق موجودات الكون بكل تعقيداتها، قد يُضربُ لها مثال لعبة التوالي والتدرج، حينما تهبُّ نسمة ريح خفيفة على حبة حمّص مستقرة على جانب مستوي قلق دقيق، فتحركها بمقدار طفيف لتسحب حركة طرف المستوي الآخر خيطاً دقيقاً، يسحب بدوره عتلة المنيوم دقيقة مرتبطة بعود ثقاب لتميله الى جهة محددة فيحرف سطح قطعة زجاج أفقية حرجة بدرجة قليلة مما يدحرج كرة مطاطية أكبر مستقرة فوقها لتقع على سطح حلزوني وتبدأ في مسيرة لفٍّ ودوران، وعند النهاية، تبدأ بقلقلة لوح بلاستيكي قائم، ليسقط على آخر ثم آخر بترتيب كقطع الدومينو لتزيح آخر قطعة منها عتلة باتجاه معين، يؤدي الى إزاحة عتلة أخرى تسدّ فتحة أنبوب خزان مياه، مما يفسح المجال لقطرات ماء في السقوط بترتيب زمني منظم لتسقي تربة أصيص، فينتج عنه في النهاية ظهور وردة زاهية.

---

1 مختصر دراسة للتاريخ. توينبي. ج 1 صفحة 331.

فلو جئنا بالسيد دوكنز ليقف عند مرحلة الزهرة الأخيرة وحجبنا عنه كل ما كان من مراحل الحركة والتتابع والتدافع والتوالي، وطلبنا منه شرح سبب ظهورها؟ فمع كل علمه وذكاءه، لن يتمكن من تخمين أكثر من مرحلة أو مرحلتين على أقصى تقدير، ولن يخطر في ذهنه كل ذلك التسلسل لعمليات الهندسة والفيزياء ومحصلات الأوزان وما كان من أمر الحركة الميكانيكية، ولن يتصوّر إن كانت هناك فواصل زمنية أو أبعاد مكانية وارتفاعات وانخفاضات وأنواع المعادن والأشياء المختلفة غير المتوافقة وأشكالها وما سبب حركة حبّة الحمّص في البداية وكيف تكاتفت العمليات التدريجية وتناسقت لسقي تربة الأصيص وظهور الزهرة في نهاية الأمر.

بهذا، فمن الوارد ان تكون هندسة خلق الوجود قد بدأت بحركة أو انفجار كوني ذري تسلسلت تفاعلاته الكيمياوية والفيزيائية لإيجاد الكوّن وكل ما يحتويه الان.[1] في هذه الحالة يكون مسبب حركة جزء الثانية الأول، بعيد عن التعرّف والتصوّر وعن الخيال البشري لكثرة عدد الحركات والتفاعلات والوصلات التي يصعب حصرها وملاحقة بداياتها وأسبابها، وذلك للبعد الزماني الذي يستحيل تصوره. فالعجز عن ملاحقة تتبع كل ما حصل خلال بلايين السنين، لا ينفي وجود المسبب الأول ولا ينفي وجود عملية توالي تسلسل التفاعلات الكيمياوية والتأثيرات الفيزيائية. وكما قلنا إن العجز عن المعرفة، هو قانون طبيعي يقابله القدرة على المعرفة، والعجز عن اختراق قِدَم الزمان أمر وارد حيث من الجائز انقطاع وصلات التأثيرات لتفرقها وعدم تشابه حركاتها التي انقطعت مظاهر تواصلها

1 بدأت المادة والطاقة بالالتحام في بنى معقدة تدعى الذرات، ثم اتحدت لاحقًا مكونةً الجزيئات. تسمى قصة الذرات والجزيئات والتفاعلات فيما بينهما الكيمياء. (العاقل. يوفال نوح. صفحة 13.).

بسبب اختلاف مهامها وتباعد أزمانها ومواقعها وعدم القدرة على تصوّر العلاقة فيما بينهما.

وهنا يمكن القول إن العجز عن معرفة الجواب، هو عين الجواب. إنه جواب منطقي لا يدعو للاستغراب . لكن كل ما يهمنا في عملية التفكير والاستنتاج، هو معرفتنا أن هناك موجد مبدأي وحركة أولية محرّكة وتوالي أسباب ومسببات، وهناك فواصل وفجوات بين موجودات مختلفة لا ترتبط تركيبات موادها الكيمياوية والفيزيائية بعضها مع بعض، فيأتي "طفل" الانسانية ليركّز نظره على آخر نتيجة لآخر حركة وتفاعل، فيتعجب منها ويبدأ المحاولة في تصوّر ومعرفة كيف وصل الخلق والايجاد الى هذه النتيجة الهندسية النهائية. ولا غرابة أن يجد نفسه عاجزاً عن تعليل سبب التسلسل، ولكن هذا العجز لا يوجب القول أو الظن أنه لم يكن هناك مسبب أو قوة نظمت كل هذا الترتيب المسبق للوصول الى هذه النتيجة.

من الوارد الجهل بمجريات تسلسل خلق الأكوان، طالما تقف البشرية اليوم على أول عتبة من سلّم حضارتها الكونية العالمية الجديدة؛ وقد تتطور عقول مشابهة لعقل السيد دوكنز وفي ذات الاتجاه فيصلون الى قناعة في استحالة توصيل حلقات توالي حركة الإيجاد أو القدرة على الربط بين أجزائها. وكذلك قد يتطور العقل البشري ليكتشف من خلال تفحص موجودات وقوانين الطبيعة الى إثبات وجود الله تعالى وأنه المُسبب والمُحرك والمُهندس والمُفكّر والمُصمم والباعث والمُبدع والعقل والخالق والمرتب والمنشئ و و و، وأنه واحد أحد لا ثاني له بطريقة محققة لا شك فيها، وبهذا تختفي فكرة الإلحاد والوجودية واللا أدرية بعد ظهور دلائل قد تصل الى درجة اليقين.*

عندما يذكر السيد دوكنز أن الاعتقاد الديني يعارض العلم. فهذا أمر فيه شيء من الصواب إذا بقينا نتبع تفاسير رجال الأديان، فالقصص والروايات التي تقارب الخرافات في فحواها وتخالف قوانين الطبيعة في مضمونها تسبب تخلفًا فكريًا وعرقلة لمسيرة التقدم العلمي. وهذا ما وافق عليه آينشتاين أيضًا حينما قال:- (العقيدة التي لا تقوم هي نفسها على المعرفة، خرافة يجب لذلك مقاومتها).[1] لكن علينا أن نتذكر أن الكتب السماوية كلمت البشر على قدر مستواهم العلمي.

يقول:- *(العديد من المناقشين في كامبردج زعموا بأن الله تكلم معهم، داخل رؤوسهم، بشكل واضح تماما كما لو كان شخصا آخر.)*.[2]

قد تكون هذه حالة من الخيال أو الهلوسة، فدرجات قدرات عقول البشر مختلفة بقدر أعدادهم، وتتسلسل من أعلى درجات الفلسفة الى حالات الجنون. لكن، طالما توجد طريقة للكلام والسمع عبر الفم والأذن، فلا بد أن تكون هناك طرق أخرى للمخاطبة حسب قانون الأضداد، مثلما نسمع في المنامات والرؤى؛ إذ لا بد من وجود "الضدّين". ومن لم يخضْ مثل هذه التجربة، فلا تثريب عليه أن يكذّبها ولا يتمكن من تصوّرها، إنها تجربة روحية تختص بشفافية الروح مع من رحلوا من المتوفين وأنبياء الله وقديسيه.

يقول:- *(لو أن الله فعلاً تكلم مع أشخاص فإن هذا بحد ذاته يؤكد بأن الموضوع لا يقع خارج نطاق العلم)*.[3]

---

1 أفكار وآراء آينشتاين. صفحة 246.
2 صفحة 156.
3 صفحة 156.

بالفعل... كل شيء داخل نطاق العلم، فالله تعالى هو العقل الكلي وهو خالق قوانين الطبيعة وموجد عقول البشر ويعلم ما ستصل اليه من مستويات العلوم والمعرفة. وكما يقول الفيلسوف ديكارت في حتمية وجود خالق:- (العدم لا يمكن أن يحدث شيئًا)[1]. من هنا لا بد أن تكون المعجزات الميتافيزيقية خاضعة لقوانين الطبيعة ومستندة على العلم، وحسب قانون 'الأضداد'، فطالما هناك سامع، هناك أصمّ، وطالما هناك عاقل، فهناك مجنون، وطالما كانت قدرات سمع الانسان والحيوان محدودة، فهناك سامع كامل القدرة. كما أن الله غيب منيع لا أحد يعلم عن ذاته شيئًا وليس هناك ما يثبت أن له فمٌ ليتكلم أو ما هي الكيفية التي يتواصل بها مع أنبياءه وخلقه. وبهذا لا بد أن تكون له طريقة في المخاطبة مختلفة عن خلقه نتعرف عليها من خلال المنامات أو الرؤى أو الوحي أو الإيحاء يستحيل تخطئتها. فهل علينا تكذيب الوقائع التاريخية المسجلة لحالات السماع الروحية للأنبياء لمجرد الظنّ أنها تدخل في مجال الشك؟

وكما جئنا على ذكر تجارب الدكتور مودي، كذلك يذكر البروفيسور "كولن ولسن" في ذات المجال، مؤيدًا قول أحد العلماء:- (يقدّم جاينز في هذا الكتاب نظرية غير عادية تقول بأن أسلافنا القدماء كانوا يسمعون الأصوات بصفة مستمرة... فإذا ما صدر الأمر لأحدهم بأن يذهب ليبني سدًّا على النهر فسيصعب عليه أن يتذكر لماذا هو سائر ذهابًا وجيئة على شط النهر هكذا.).[2]

وورد عن الموسيقار العظيم موزارت، أنه (ذكر يومًا أنه لاحظ النغمات تدخل في رأسه بكامل هيئتها).[3]

---

1 ديكارت 143.
2 ما بعد الحياة. كولن ولسن. صفحة 9.
3 المصدر السابق. صفحة 11.

ولقد ذُكر كثيرًا في العهد القديم وفي الإلياذة:- (أن الناس كانوا دائمًا يتلقون خبرًا ما ليفصلوه بواسطة أصوات مقدسة... وأن الانسان يسمع مثل تلك الأصوات منذ بداية البشرية).[1]

ونقرأ أيضًا للكاتب السويدي الصوفي إيمانويل سويدنبرج، أنه:- (استطاع أن يقدم بعض الأدلة الواضحة على أنه كان على اتصال بالموتى. فلقد طلبت ملكة السويد من سويدنبرج أن يبعث بتحياتها لشقيقها الراحل - ربما فعلت ذلك من قبيل التهكم أو الدعابة، ولما حضر سويدنبرج حفل الاستقبال التالي الذي أقامته الملكة، أبلغها ردّ التحية من شقيقها الراحل، وقال إنه يعتذر لأنه لم يردّ على خطابها الأخير. حينئذ امتقع وجه الملكة وقالت بتعجب شديد: "لا أحد يعلم بهذا الخطاب إلا الله وحده").[2]

يقول سويدنبرج:- (الانسان روح تسكن في جسد، تمامًا مثل القائد الذي يجلس في السيارة. عندما يموت الانسان يترك جسده ويغادره، ولكن يظل باقيًا متواجدًا في شكل غير مجسّد. فعندما يتوقف نبض القلب تنتقل الروح، وهي الانسان ذاته، الى مستوى آخر من الوجود.).[3]*

نعود الى دوكنز حيث يقول:- *(الله يأتي زاعقاً من عالم يقع في مجال آخر حيث يسكن عادة ويقتحم عالمنا حيث يكون بالمستطاع فهم رسالته من خلال الدماغ البشري، تلك ظاهرة ليس لها علاقة بالعلم؟).*[4]

بل هي ظاهرة لها علاقة بالعلم، لأن ذلك يحصل في حدود عالم الطبيعة ولابد أن يكون لها تفسير علمي، فإذا لم تفسر اليوم، فستفسر

---

1 المصدر السابق. صفحة 11.
2 المصدر السابق. صفحة 16.
3 المصدر السابق. صفحة 23.
4 صفحة 156.

غدًا مع تقدم العلوم. لكن خالق الكون لا يأتي زاعقاً ، فلا شيء يدعو للظنّ أنه يملك جسدًا مشابهًا للبشر، بل هي أرواح الأنبياء التي تكلمنا بلغة هادئة وبصوت مسموع في المنامات والرؤى، لامتلاكهم قدرات فوقية، فنفهم ما يقولون؛ وهذه الطريقة في السمع هادئة لطيفة حتى إنها لا توقظ النائم وليست بحاجة الى صراخ و 'زعيق'.

يقول متهكمًا:- *(الله القادر على ارسال الملايين من الاشارات المنفردة في نفس الوقت واستقبال رسائل منهم في نفس الوقت أيضا، لا يمكن أن يكون بأي شكل من الأشكال بسيطاً مهما كان... ربما أنه لا يملك دماغاً من النيوترونات أو ذاكرة من الرصاص ولكن القوة التي تعزى له تجعله ممتلكاً لأشياء مبهرة وليست عشوائية أبداً وأعظم من أكبر الحواسيب التي نعرفها).*[1]

ولمَ كل هذا العجب والاستغراب؟ فوجود العجز بحد ذاته دليل على وجود القدرة، وسماع صوت واحد دليل القدرة على سماع أصوات متعددة. إن اختراع خطوط أجهزة التوصيل السلكية واللاسلكية بقدراتها العجيبة على نقل واستقبال ملايين الأصوات والرسائل في جزء من الثانية، هو من المعجزات التي لم يكن بمقدور أرقى العقول تصورها قبل قرن من الزمان، وهو دليل حسب "نظرية الأضداد" على وجود من يمتلك قدرات لا محدودة لفعل أعظم من ذلك؛ فمن المحتّم أن مثل هذه المخترعات البشرية هي نفحة بسيطة من أفضال الله تعالى ليرفع بقوة العلم والعقل مقام الانسان مخلوقه المميّز. أما محاولة معرفة جميع قدرات الله تعالى والاطلاع عليها، فمهما تطور وعلا شأن عقل المخلوق، فلن يعرف قدرات صانعه

1 صفحة 156.

وخالقه، وإلا لأصبح قادرًا على الخلق مثله. وهذا أمر محال، فالسبيل مسدود والطلب مردود.

وحينما يقول:- *(من الممكن أن تكون هناك نظريات أخرى تنتظر الاكتشاف).*[1] ستساعد في "معرفة" الله. فالقول الصحيح هو: أنها ستساعد في الاطلاع أكثر على معرفة قدرات الله تعالى والتأكد من وجوده، وليس معرفة ذاته. وفي المجمل أن هذا اعتراف ضمني من دوكنز بعدم كمال العقل البشري وعدم الوصول الى قمة العلوم حتى الان، وأن المستقبل ما زال يخبئ الكثير من التقدم العلمي.

صرح جميع الأنبياء والرسل أن معرفة كنه ذات الله تعالى، أمر محال، مع أنهم كانوا الأقرب اليه. ومع كل هذا القرب، لم يكشف الله لهم حقيقة ذاته وكنهه، وجميعهم تركوا هذا العالم وهم في حسرة التعرف على حقيقته، مع أنهم نشروا أديانه وخدموا أمره وضحّوا بحياتهم وتحملوا كل أنواع الأذى والعذاب في سبيل تنفيذ ارادته. فالله تعالى ذات مقدسة يتصل بالقلوب الصافية النقية عن طريق الإيحاء أو الوحي، فكلما تجلّت وتنقّت مرآة القلب، كان ذلك سبيلا للتواصل مع الله تعالى. (قلب المؤمن عرش الرحمن).

قال:- *(**ربما** يكون هناك مصمم خارق ولكن في هذه الحالة... يجب أن يكون لتراكم العديد من أعمال الروافع والمصاعد، **ربما** نسخة داروينية في كون آخر).*[2]

منطقٌ مُمْكَر بصبغة الغرور وألوانها. فلو قضى هو وجهاز الحاسوب بكل برامجه الذكية مجمل حياته في التفكير والتأمل، فلن يتمكن من معرفة ذات كينونة الله تعالى . أما إشارته الى عدم تصديق ترتيب وهندسة كل ما في الوجود مسبقًا، فدعنا ننظر الى الطبيعة

---

1 صفحة 158

2 صفحة 158.

ونرى على سبيل المثال، الفارق بين فوضوية الغابات وترتيب وتنسيق الحدائق أو البساتين وبين البيوت البدائية والقصور الفخمة، فلو تُرك الكون دون تصميم فمن أسهل النتائج أن لا نرى شموساً وكواكب وأفلاك وأجرام معلقة في الفضاء كل يدور في مجاله وفلكه لا يحيد عنه مقدار أنملة. فلو كان هناك خطأ واحد في ترتيب وتصميم هذا الكون، لانهارت جميع الكواكب والنجوم والمجرات ولجذب وتصادم أحدها مع الآخر في فوضى عارمة، بل لما وجد الوجود وما فيه أصلا، ولن يكون هناك وجود لشخص يؤمن أو يرفض الاعتراف بوجود مصمم مبدع خلاّق لجميع هذه الأعاجيب الهندسية المادية. يقول الفيلسوف اسبينوزا:- (من ذلك يتضح أنه كلما ازدادت معرفتنا بالأشياء في الطبيعة كانت المعرفة التي نحصل عليها بالله أعظم وأكمل . وبعبارة أخرى "لأن معرفة المعلول عن طريق العلّة ليست إلا معرفة لخاصية معينة للعلّة"، فكلما عرفنا أشياء أكثر في الطبيعة كانت معرفتنا لماهية الله "وهو علّة الأشياء جميعها" أكمل.)[1].

يستمر دوكنز في اللف والدوران خلال صفحاته التالية ، ويعاود مناقشة الحمل العذري للسيدة مريم وتفاصيل فكرة القيامة.[2] وقد سبق له تناول هذا الموضوع ولا موجب لتكراره، وإلا فهنالك العديد من العلماء المؤمنين لا يصدقون بالحمل العذري.

انتهينا من الفصل الرابع، ولننتقل الى الفصل الخامس.

---

1 اسبينوزا. صفحة 186.
2 صفحة 159.

الفصل الخامس
(جذور الدين)[1]

استهل دوكنز هذا الفصل بموافقته لرأي 'مارك كوهن' في قوله إن المبالغة في أداء الطقوس الدينية إنما هي مضيعة للوقت.

نعم رأي عقلاني صائب، ففي وقتنا الحالي تأخذ الطقوس الجماعية القديمة كثيرًا من الوقت لا تتناسب مع سرعة الحياة وكثرة مشاغلها. فمثلًا ما يقام من احتفالات دينية جماعية تمارس الحركات العنيفة والغريبة مثل المشي على النار واستعمال السيوف لجرح الأجساد والغطس في الماء واحترام أنواع من الحيوانات وارتداء أزياء غريبة واستعمال التمائم، وحينما يترك المهندس عمله قائمًا دون متابعة أو يترك الطبيب مرضاه يعانون من آلامهم ليذهبا الى مسجد قريب تأدية لفريضة الصلاة، أو يتمهل الموظف في تأدية عمله بحجة الصيام، فهذه تصرفات تستحق الإدانة والجزاء؛ فخدمة الانسان وصحته ومصالحه أهم من تأدية فرائض الدين الشخصية، فهي عملية تصب في قالب الأنانية والمصلحة الشخصية ومفهوم كسب الحسنات. أما ما كان من سبب وجودها وأمر تشريعها في قديم الزمان فكانت تناسب مهن الزراعة والرعي والأعمال اليدوية البسيطة التي تسمح بتركها لبعض الوقت دون حصول أضرار، ونوعًا من أنواع تعليم طفل البشرية مشاعر الاتحاد والأمان الجمعي والحثّ على ضرورة حسن معاملة الآخرين والمحافظة على النظام العام وإيجاد نوع من الالتزام بالحفاظ على تماسك لَبنات المجتمع من خلال الاعتقاد بوجود إله يعلم ويرى أعمال البشر.

---

1 صفحة 162.

أما قول "كوهن" أن *"الأديان تبدو قابلة للتكيّف"*. فهذا أمر واضح للعيان أيضًا، حيث رأينا أن أداء الطقوس والممارسات الدينية قديمًا كانت طويلة ومرهقة وقد نراها مملة، لكن مع استمرار مجيء الأديان وتجددها بدأت فروضها تخف ومددها تتضاءل كلما ظهرت ديانة تالية، وهذا التوالي بحد ذاته دليل على التكيّف مع حالة التقدم الاجتماعية.

يعود لينتقد الأديان 'القديمة' من خلال تصرفات أتباعها.[1]

هناك فَرق كبير بين أهداف الأديان ومبادئها وبين تصرفات أتباعها، ومن الخطأ البيّن الخلط بينهما. كما إن مبدأ الشدّة والعنف لا يختص بدين أو حزب أو فريق محدد، فقد كان سلوكًا عامًا للبشر حسب مقتضيات الطبيعة قديمًا. أما محاولة ربط الشرور بأتباع الأديان حصرًا، فهو استنتاج خاطئ، فلقد مارسها الانسان منذ أول وجوده بغض النظر إن كان يعتقد بدين أم لا. إن مبدأ القوة والشراسة الذي قام عليه نظام جميع كائنات الأرض أمر لا غرابة فيه فلقد بدأ منذ وجود المخلوقات على الارض، ومع ذلك فهو بدوره خاضع لنظام التطور، أنظر الى المبدأ الذكوري في ظلم المرأة ومبدأ عبودية الانسان وما حصل جرائهما من ظلم شديد للبشر، فطوال عصور وقرون كانت الشراسة والظلم هي المبادئ القائمة بسبب الحاجة الى الأيدي العاملة إرضاءً لروح التسلط المتجذّرة في النفوس حتى بات بعض العبيد يفضلون العبودية على التحرر مخافة الضياع والجوع، ولم تظهر روح الحرية وفكرة التحرر الحقيقية إلا في القرن التاسع عشر والعشرين، حينما بدأت الثورات الاجتماعية تتوالى والأنظمة السياسية تتغير من حكم العائلات الى نظام الاعتماد على نتائج

1 صفحة 164.

صناديق الاقتراع بعدما بدأت ترمي خلف ظهرها مبادئ التعصب للدين والجنس واللون والقومية. كل ذلك حصل خلال قرنين فقط، بينما عاشت البشرية ملايين السنين في بدائية تامة دون الانتباه لهذا الظلم الشديد. فماذا حصل للعقل البشري حتى يتنوّر بهذا الشكل العجيب في فترة تعتبر أقل من لمحة في عمر تاريخ البشرية المديد؟

لو نظرنا الى تاريخ البشر نجدهم قد عاشوا ملايين السنين في بدائية تامة مثل بقية الحيوانات يسكنون الجحور والكهوف والأوجار والمغارات حتى خرجوا من العصر الكباري حيث سمة الحياة العامة صيد الطرائد وجمع الثمار ثم لتدخل الى العصر النطوفي قبل حوالي 12,000 ألف سنة تقريبا، عندما عرفت جماعات البشر مزاولة الزراعة والاستقرار وبناء قرى صغيرة مما زاد أعدادها لتحسّن غذائها، وهناك من قال أن هذا التحول في حياة البشر رافقه ظهور نوع جديد من العبادة والتديّن (يبدو أن الثورة الزراعية رافقتها ثورة دينية.)؛[1] وبهذا دخلت البشرية في العصر البرونزي ثم العصر الحديدي ثم جاء اختراع الكتابة الذي غير مجرى تاريخ الانسان بشكل عجيب، كما وبدأ ظهور المخترعات الأولى مثل أدوات الحرب والعجلة وإنشاء قنوات الريّ واستخدام الحصان وغير ذلك الكثير.

وهنا يظهر السؤال الذي حيّر الباحثين: لماذا استمرت البشرية طوال ملايين السنين راكدة على حالتها البدائية، وفجأة بدأ التغيير الهائل في حياتها خلال حقبتين محددتين، الأولى قبل اثنا عشر ألف سنة، والثانية خلال القرن التاسع عشر؟ في الحقيقة لا نجد جوابًا لهذا السؤال عند المختصين من علماء الأنثروبولوجيا (علم الانسان) ولا عند علماء الاجتماع والحضارات والتاريخ طالما يبحثون عن

1 العاقل. صفحة 254.

الجواب في جسد الانسان وبين الآثار واللقى المادية. لكن لو أمعنا النظر في الآثار الروحية المتبقية رغم ندرتها، قد يلقي ذلك بعض الضوء على هذا اللغز المحيّر؛ ففي المرحلة الأولى كان بدء ظهور الأديان الكبرى وأنبياءها (معلمو البشر)، حيث بقي الانسان لا يعرف الاستفادة من مكونات الطبيعة طوال ذلك التاريخ القديم إلا بعد دخوله هذه المرحلة. وبما أن الانسان لا يعرف التفكير ذاتيًا إلا حين اكتسابه معلومات أولية، وطالما لم يستطع الحصول على العلوم من الطبيعة طوال ملايين السنين، ففي هذه الحالة لا يكون هناك سبب لنهضة العقل البشري إلا بسبب بدء ظهور هؤلاء المعلمين، حينها فقط بدأت حركة العقل والفكر البشري بالتحرك وايجاد الاختراعات والآلات والأدوات اليدوية. أما حينما ينسب بعض العلماء ذلك الى انتقال الانسان الأولي الى مرحلة الانسان العاقل Homo Sapiens، فهذه مجرد تخمينات غير مؤكدة، حيث لا يوجد دافع مادي - إن كان داخل الجسد أو داخل الطبيعة - يمكنه التأثير على العقل ليدفعه للتفكير والابداع، إلا إذا كانت هناك مبادئ علوم أولية بدأت بوضع أولى لمساتها في العقل البشري. وبما أن الطبيعة كانت خالية منها، فبذلك يستبعد احتمال أن يكون مصدرها الطبيعة، حيث لم يتغير شيء في الطبيعة أو في كيان الانسان وعقله، ولا يمكن نسبة ذلك أيضًا الى التغييرات في شكل جمجمة الانسان، فهذه التغييرات ليس لها علاقة بالتفكير، فهي تغييرات جسدية، بينما التفكير حالة معنوية. وبعيدًا عن التعصب والغرور الديني أو العلمي، لا نجد خلال فترة التغيير تلك سوى ظهور الأنبياء وابتداء ظهور أديان التوحيد.

وبالعودة الى النقطة الأولى، فمن هذا، إن تصرفات البشر السيئة لا تقتصر على أتباع الأديان، لأنها موروث اجتماعي عام جاء من

عمق التاريخ البشري، بل قلّ إنها لم تبدأ بالتحسن وظهور الصفات الإنسانية إلا بعد دخول البشر مرحلة ظهور الأديان العامة.

قال:- *(الدين يلتهم المصادر الانسانية وغالباً على درجة هائلة).*[1]

لإدارة أية مؤسسة أو شركة أو مصنع أو معرض أو حكومة وغيرها، لا بد من مقر دائم يحظى هيكل بناءه بمظاهر الجمال والعناية والإشادة للدلالة على قيمة المُنتج ونفاسة جوهر الهدف، ومن الأمثلة على ذلك أيضًا عناية الانسان بمظهره ولباسه حينما يتقدم لطلب وظيفة أو خطبة فتاة، أو عند تزويد مكتبه وبيته بأجمل وأغلى أنواع الأثاث والأجهزة ابتغاء التقدير والاحترام. فالناس لا تمارس أعمالها على قارعة الطرق أو الساحات العامة. لذلك حظيت مقرات الأديان بنوع من الأبهة والفخامة لتناسب جوهر مقامها الروحاني باعتبارها تتعامل مع أنفس وأغلى ما في وجود الانسان، ألا وهما الروح والدين. وأرى أن كان من الأفضل لو انتقد مصروفات الأسلحة والدمار وما تكدسه الحكومات من عتاد والآلات حربية لا تستعمل إلا في قتل البشر.

قال:- *(كاتدرائية من العصور الوسطى ربما استهلكت مئة رجل خلال قرن من الزمن لبنائها ولم تستخدم كمسكن أبدا أو لأي سبب مفيد آخر يمكننا معرفته).*[2]

مرة أخرى يعود للمقارنة غير المنصفة، فلو عدنا الى طراز بناء المعابد ودور العبادة والمساجد والكنائس والكاتدرائيات في قديم الزمان نجدها أبنية بسيطة خالية تقريبًا من وسائل التزيين والبهرجة ولا تحتوي إلا على ضروريات أداء الطقوس، فقد كانت مراكز روحية مخصصة لإدارة شؤون المؤمنين الدينية والدنيوية، وكانت

---

1 صفحة 164.
2 صفحة 164.

ملتجئًا للأيتام والجياع والمرضى وعابري السبيل وتعليم الناس، ومشافي لعلاج جرحى الحروب وغير ذلك من الأمور الانسانية. أما زمن الاهتمام بزخرفتها وتزيينها باللوحات والرسوم الفنية والذهبية، فقد بدء تقريبا في القرون الأخيرة من عمر الأديان حينما بدأ الملوك والأمراء يخضعون لسلطة البابوات وكبار رجال الأديان الذين باتوا يتحكمون بعروشهم، وحينما بدأت تترافد على البابوات قطع النقود والنفائس الذهبية والفضية من جميع أطراف أوروبا، راحوا يبنون هذه الكاتدرائيات الفخمة ويزينوها لتناسب مقدار سلطتهم وسطوتهم ولتوازي أو تزيد في فخامتها قصور الملوك وقلاعهم. كما أن بناء هياكل هذه الأبنية خضعت لمقدار تقدم درجات تقنية عملية هندسة الإعمار، فالقديم منها يختلف تماما عن أبنية العصور المظلمة فيما بعد، لذلك رافق عملية بناء القديم خسائر بالأرواح البشرية. أما اليوم فيمكن بناء مبان بعشرات الطوابق دون خسائر تذكر، نظرا لتطور قوانين العمل ونظام السلامة العامة. إضافة لذلك، من الطبيعي أن تكون للأديان أماكن ومراكز مخصصة لمخاطبة جمهور المؤمنين تناسب مقدار قدسيتها. وعلينا أن نتذكر أيضا، إذا انقلب الاهتمام من الدين والعبادة الى الأموال والأبنية والزخرفة، فهذا ليس خطأ في مبادئ الدين، بل في ممارسات رجاله. وأخيرا لم يخبرنا السيد دوكنز ما هو اقتراحه تجاه هذه المعالم التاريخية الفنية، هل يفضل إزالة هذه الآثار التاريخية وهدمها؟

قال:- *(المتعبدون قُتلوا في سبيل آلهتهم وقتلوا آخرين من أجله وأدموا ظهورهم بالسياط).*[1]

1 صفحة 165.

إنها تصرفات بشرية قديمة ممتدة من طبيعة البشر البدائية ومن قرون التمادي في تقديس الآلهة، والواضح أن المؤلف تناسى حروب دول أوروبا وشعوبا منذ زمن الرومان والفايكنج مروراً بنابليون وهتلر وستالين، ناهيك عن اجتياح الاسكندر وجنكيز خان وهولاكو البربري وتدميرهم كل ما مرّوا به من عمار، فهذه الفواجع الرهيبة لم تكن بسبب الأديان.

ينتقد حياة العزلة لرجال الدين:- *(أقسموا أن يعيشوا البتولية أو في عزلة أو صمت وكل ذلك من أجل الدين).*[1]

إنه مفهوم خاطئ في طريقة نشر تعاليم الأديان وأهمية دور الانسان في التعبير عن أيمانه وعبادة الله، وهو مبدأ يخالف فطرة الانسان الطبيعية والاجتماعية. ومن الأهمية بمكان أن يخرج هؤلاء الرجال والنساء للاختلاط ببقية الناس لنشر مبادئ الأخلاق والخير، فالمفروض أنهم خميرة الصلاح والايمان بين البشر. كما أن السيد المسيح لم يأمر بالبتولية والانزواء عن البريّة، فلقد عاش فقيراً لا يملك شروى نقير، ولم يتزوج لتفضيله البتولية، بل لعسر اليد ولاهتمامه بشؤون البشر.

(لم كل ذلك؟ ما فائدة الدين؟).[2]

لولا ظهور عقائد الأديان، والآلهة والطواطم والشامان والكهنة والقديسين والأنبياء، وتقديمهم نماذج مختلفة في طرق تربية البشر كل حسب زمانه ومستوى مجتمعه، لما تعلم الانسان أي علم ولما قامت للشعوب أية حضارة . فالدين أساس ظهور العلوم، ولولا ظهور الأديان لبقي الانسان مثل الحيوان لا يفقه من حياته ووجوده شيئاً ولما قامت للبشر أية حضارة، فتتبع آثار ظهور الاديان حتى أعماق

---

1 صفحة 165.
2 صفحة 165.

التاريخ، يبعث على التساؤل من ذا الذي أوجدها وكيف تمكَّن ذلك الانسان البدائي "حيوانيّ الطباع" من اختراع أمور ومبادئ روحية غيبية صرفة، وقد عاش في عالم مادي بدائي تمامًا.

إن دعوة الإلحاد تعتمد في جوهرها على تولية العقل شؤون إدارة الحياة وتنحية الدين عن شؤون سياسة المجتمع أو على الأقل انزوائه، باعتبار أن العقل هو القائد والموجّه الأول وموجد حضارات البشر وجميع الاختراعات والاكتشافات والعلوم. لكن ما غاب عن أصحاب هذه الدعوة أن الانسان مَلك جهاز الدماغ منذ أول وجوده، فأين كان تأثير قوته وقدرته على التفكير خلال العصور الحجرية والبدائية وما سبقها وتلاها حتى عهد قريب؟ فلو كان الدماغ هو السبب الرئيس لظهور موجات العلوم، فالبشرية ملكت الدماغ منذ القِدم، فلماذا حصلت الثورة الفكرية في عصور متأخرة ولم تحصل في العصور الأولية؟ فأين كان العقل آنذاك، ولماذا انتفض العقل هذه الانتفاضة الثورية خلال القرنين الماضيين؟

إن تعليل ظهور الثورة الفكرية بنسبتها الى قوة العقل وقدراته أو الى تراكم العلوم، قد يصح في القرون الأخيرة حيث ازدادت العلوم بشكل عجيب. لكنه لا يصح مع أحوال البشر البدائيين حيث تنتفي عملية التراكم. وبذلك فهو افتراض خاطئ وغير مقنع يعوزه التعمق في أساساته، وطالما أثبتنا ارتباط جميع نهضات الأمم وحضاراتها بظهور عقائد وديانات سماوية، فلا بد أن تكون نهضة الفكر العالمية الحالية قد ارتبطت بظهور أمر روحاني جديد أطلق مثل هذه النفحة الروحية والفكرية في العقل البشري عمومًا مثلما حصل من قبل.

قال:- *(واقع وجود الدين في كل مكان **ربما** يعني بأنه ذات فائدة في شيء ما... **ربما** كانت الفائدة لأفكار الدين ذاتها).*[1]

أولا، نراه يستعمل كلمة (ربما) كثيرًا، وهذا دليل عدم التأكد مما يقول. وثانيا، نجد بين ثنايا عبارته ما يشير الى الاعتراف بصورة غير مباشرة بوجود فائدة من الأديان يجهل تحديدها. ولكن عندما نعلم أن الأديان والأمور الروحية وجدت منذ وجود جماعات قاطفي الثمار وصيّادي الطرائد وانسان النياندرتال وعند القبائل القديمة في الشرق والغرب وما دأبوا عليه من احترام الأصنام والطوطم والتابو، يتضح أن الأديان ليست اختراع بشري لأنها أمور روحية معنوية ليس في مقدور البدائي ولا غيره اختراع فكرتها. ولولا أن وَجد البشر فيها فوائد روحية ودنيوية تمس مشاعرهم الروحية، لما أولوها كل ذلك الاهتمام. أما قوله أن المستفيد من وجود الدين هو الدين بذاته، فهذا منطق يكسوه شيء من الهذيان، فليس للأديان علاقة بالأمور المادية حتى تستفيد منها أو تكسب لنفسها شيئًا. ودعنا نصحح عبارته، فقد يكون: فيها فائدة مادية للكهنة ورجال الدين. وهنا يكون الأمر أكثر صوابًا. مع العلم أن رجال الدين لم يخترعوا الأديان، بل كانوا مروجون لها.

قال:- *(الصيادون والقاطفون كما الحال في القبائل الاسترالية الأصلية، يعيشون بطريقة أقرب ما تكون لطريقة أسلافنا الأقدمين).*[2]

ليس بالضبط تمامًا. مع أنه أمر متفق عليه، فكلما عدنا لعمق التاريخ لتفحّص طبيعة أحوال البشر، نجد زيادة نسبة البدائية والجهل وتساوي مستويات معيشتهم، ومن المؤكد أن القبائل الاسترالية حين

---

1 صفحة 165.
2 صفحة 165.

اكتشافها قبل عدة قرون كانت تختلف بنسبة ما، ولو بشكل بسيط، عن أجدادهم السابقين قبل مئات الألوف من السنين.

قال:- *(مع أن التفاصيل تختلف عبر العالم ولكن ليس هناك حضارة معروفة لم يكن فيها نسخة من الطقوس "الدينية" المستهلكة للوقت والصحة ومثيرة للعداوة والتخيلات المخالفة للواقع).*[1]

هذا تأييد آخر لما بقينا نقوله بأن الأديان والأنبياء هم سبب ظهور العقل والتفكير عند البشر وسبب ظهور العلوم والحضارات. فلو لاحظنا أن جميع حضارات الأمم تُنسب الى اسم نبي، حتى أديان الشرق الأقصى كان لها علاقة قديمة بأديان الشرق الأوسط، أما فلاسفة الرومان والإغريق قد أخذوا نسبة من علومهم الروحية من كهنة وسحرة أهل حضارات (مصر، فارس، فلسطين، سوريا والعراق).

أما ما نسبه من نتائج سلبية لطقوس الأديان، فهي ملاحظة غير منصفة، لأنها كانت الوسيلة الوحيدة ليتعلم من خلالها الانسان الالتزام بالقوانين الاجتماعية التي تفرض النظام والتربية وحسن التصرف كأفراد وجماعات. أما بالنسبة للصحة، فلقد كان رجل الدين أو الساحر هو القائم على شؤون العناية بأجساد البشر. أما عن إثارة العداوات، فلا نتوقع من أطفال لم يدخلوا المدارس، التصرف بأدب وذوق مثل طلاب جامعة أكسفورد، فالعداوات يتوافق ظهورها مع وجود الجهل وفقدان التربية والأخلاق. أما عن التخيلات، فهذا أمر طبيعي لدى جميع البشر لا يختص بفئة دون أخرى، خاصة عند توفر أوقات الفراغ وانعدام فرص العمل والمدارس.

---

1 صفحة 166.

قال:- *(ربما أن بعض المثقفين أهملوا الدين ولكن الجميع تربى في حضارة دينية وكان عليهم في وقت ما أن يتخذوا قرارا لتركه).*[1]

لو دقق دوكنز وأنصف قليلا، لعلم أن الدين هو مصدر القوانين والأخلاق منذ القدم، وبسببه وصلت البشرية الى هذا المستوى من الذوق والرقي في التعامل الحسن بعد اختبارات وتجارب امتدت طويلا لاختيار الأنسب منها، ولما فكر أن يكون هناك احتمال لترك الدين في الأزمان الماضية، فلقد كانت أحكام شرائع الأديان هي قوانين الشعوب الوحيدة ولا يوجد غيرها. أما اليوم، فالدعوة الى ترك الدين هي دعوة خطيرة حيث ليس بإمكان طائر البشرية الطيران في عالم الإنسانية بجناح العلم فقط ولا بد أن يتقوى جناح الأخلاق والروحانيات ليتمكن من الطيران بشكل سليم، فالعلم لا يتفق مع الأخلاق دائما، بل يخالفها في مجالات كثيرة ، فمثلما يصنع العلماء الأدوية والأمصال، يصنعون السموم والمخدرات، ومثلما يصنعون أحدث وسائل النقل، يصنعون أحدث وسائل التدمير، ومثلما يسمو العلم نحو البناء والرقيّ، كذلك يوجّه الى اختراع وسائل القتل الجماعية. إن الدعوة لترك الدين نداء باطل وخطير، لأن الدين غذاء معنوي للروح والنفس مثلما الأكل والشرب غذاء للجسد. فالروح البشرية لم تكن قادرة على الإبداع والاختراع لولا وجود الأديان وتعاليم رجالها منذ العصور القديمة.

لا يدرك السيد دوكنز مدى خطورة الدعوة لترك الدين، ولو تفحص جميع مذابح وحروب التاريخ، فسيجد أن أعظم أسبابها هو الجهل والتعصّب وخلو روح الانسان من تأثيرات روح الأديان. نعم هناك الكثير من الحروب أشعلها أتباع الأديان باسم أديانهم، لكن

---

1 صفحة 166.

غالبية هؤلاء لم يعرفوا من الدين إلا اسمه ومن كتبهم المقدسة إلا رسمها، لأنهم كانوا يعيشون في مرحلة طفولة الجنس البشري، ومن الطبيعي أن تخلو تصرفاتهم من النضوج؟ إن طفل البشرية لم يتدرج في نضوجه إلا بتعاليم الأديان، ومهما كانت تصرفات تلك الأمم القديمة مقيتة وسلبية، يبقى لها كثير من التأثيرات الإيجابية، فكم كانت أعداد الملايين من البشر الذين توقفوا وامتنعوا عن القتل والسرقة والاغتصاب والاجرام بسبب ومضة رحمة أو لمحة مخافة من الخالق خطرت على قلوبهم أو عقولهم؟ إن الذين فلتوا ونجوا من الموت والفتك بسبب تلك اللمحة الروحية الوجدانية، لا يمكن إحصاء أعدادهم، وبذلك حصلوا على فرصة للحياة والزواج والإنجاب وممارسة تعمير الارض، ولولا تلك الومضة، لما وجدنا أنت وأنا وغيرنا، فلسنا بحاجة لترك الأديان بقدر ما نحن بحاجة الى دين عصري يتناسب مع روح التقدم الحضاري العالمي الجديد خاليًا من رجال الدين.

لقد ظنَّ فلاسفة عصر التنوير - كلٌ في زمانه - تحقق كمال تربية الجنس البشري، وأن هناك إمكانية للتخلي عن الأديان، فلقد قال الفيلسوف ليسنغ:- إن ما رآه (يواكيم الفيوري قد تحقق في القرن الثالث عشر عصر الروح القدس، يراه ليسنغ وقد تحقق في القرن الثامن عشر، عصر فلسفة التنوير، كما يراه هيجل وقد تحقق في القرن التاسع عشر، عصر المثالية المطلقة، كما يراه هوسرل قد تحقق في القرن العشرين عصر الفينومينولوجيا التي يكتمل فيها الوعي الأوروبي. فكل فيلسوف يرى أن الإنسانية قد اكتملت في العصر الذي عاش فيه . كما أن الوحي الإسلامي يرى أن الإنسانية

قد اكتملت عقلًا وإرادة في أوائل القرن السابع الميلادي).[1] ومع هذا الرأي الفلسفي، إلا أن واقع الحال يثبت بوضوح أن البشرية ما زالت في حاجة الى مربي ومزيد من التربية والأخلاق حتى يستمر اكتمال نضوجها، بدليل كثرة مشاكل البشر ولجوئهم الى العنف والقتال لحل مشاكلهم الاجتماعية والدولية.

يقول:- *(والنكتة الايرلندية، 'هل أنت ملحد كاثوليكي أم ملحد بروتستانتي؟').*[2]

مرة أخرى يؤيد هذا السؤال ما سبق وجئنا عليه، فهذه المذاهب والشيع والانقسامات في جميع الديانات لم تكن موجودة حين أول ظهورها ولم يدعو لها مؤسسوها، بل ظهرت فيما بعد وهي من اختراعات الكهنة ورجال الدين وتعود في أصلها الى المصالح الشخصية وحب الذات وتفضيل النفس ومشاعر التفاخر والتعصب والكراهية التي طالما بقيت الأديان تحذر منها وتدعو لنقاء النفوس منها. فلا موجب لإلقاء تبعات ظهور المذاهب على جوهر تعاليم الأديان، بل على من يظهرون في كل زمان بأفكار مشوّهة تشتت جموع البشر وتبعدهم عن صميم الفضائل والأخلاق.

قال:- *(لماذا يصوم الانسان ويسجد ويركع ويضرب نفسه بالسوط ويومئ برأسه بشكل جنوني أمام حائط ويتطوّع في الحروب الدينية؟).*[3]

خلط واضح بين شرائع الأديان وتصرفات البشر. فالصوم تشريع ديني، بينما كل ما ذكره من بعد هي تصرفات بشرية. ولأن الآلهة/الأنبياء كانوا هم أول معلمو البشر، نصحوا بالحمية والصيام

---

1 ليسنغ. صفحة 151.
2 صفحة 166.
3 صفحة 166.

لفترات محددة حفاظا على الصحة العامة، فالناس في قديم الزمان لا يعرفون مضار التخمة، أو الحد من أخطارها إلا بالتزام ما نصحت به الأديان. وقد قال الطب كلمته مؤخراً بأن التخمة وإدخال الطعام على الطعام سبب رئيس لكثير من أنواع الأمراض، ولو سمعت ما قاله ذلك النبي البدوي الأميّ(ص) قبل أكثر من 14 قرناً في نصيحته لأتباعه للحفاظ على صحة أبدانهم، لأدركت أن له علم غيبي لا يمكنك مع جميع كتبك وثقافتك أن تتخيّل ظهور مثل هذه النصائح الطبيّة منه في ذلك المجتمع البدوي الجاهل. فمن أقواله:- (نحن قومٌ لا نأكل حتى نجوع، وإذا أكلنا لا نَشبع). فهذه نصيحة طبية بضرورة أكل القليل من الطعام والابتعاد عن التخمة. وكذلك نصيحته:- (كُلّ بيمينك). وهذا أمرٌ يوليه الطب الحديث كثيرًا من الاهتمام، فهي دعوة للعزل الطبي والابتعاد عن التلوّث. فقد خصَّ اليد اليمنى لتناول الطعام، بينما ترك اليسرى للاستعمالات المختلفة الأخرى، حيث لم يكن في ذلك المجتمع الصحراوي مياه كافية أو مواد تنظيف أو صابون، ولا معقمات تقي الانسان مضار الجراثيم وتحد من انتشار الميكروبات. أما أمر غسل الوجه واليدين والقدمين (الوضوء) خمس مرات في اليوم، فكان سبباً عظيما في الحفاظ على نظافة البدن وصحته في ذلك الوضع البدائي. وبهذا عليك ان تتصور كم حافظت هذه النصائح على حياة كل من أحب واتبع أوامر النبي محمد(ص). والأهم من كل هذا، عليك أن تدرك مدى قوة تأثير كلماته على ملايين أتباعه، حينما يلتزم الجميع محبةً بتنفيذ ما أمر ونصح به دون فرض أو استعمال قوة. بينما لا نرى تأثير كلمات أعظم الفلاسفة على قلوب الناس وعقولهم بهذا المقدار العجيب.

أما عن حالة الركوع، فلقد اتُّفق منذ قديم الزمان إنها دليل التبجيل والتقديس للذات الإلهية، ثم مورست لتحية الملوك وحتى الوالدين كما هو الحال في الهند وغيرها من شعوب العالم.

أما عادة ضرب الذات بالسوط، فهي حتمًا ليست من الدين بشيء.

أما الإيماءة وحركة الرأس عند قراءة نصوص الكتب المقدسة، فهي عادة قديمة جاءت قبل اختراع الكتابة، حينما لم تكن هناك وسائل أو سبل لحفظ آيات الأديان القديمة والمحافظة على نصوصها إلا باستظهارها عن ظهر قلب. أما استمرارها حتى الوقت الحاضر - رغم ظهور مخترعات أجهزة التسجيل التي عوضت ذلك - فهذا نوع من الطقوس الموروثة التي لا فائدة منها، استمرت ظنًّا من ممارسيها أنها طقوس مقدسة أصيلة يجب الحفاظ عليها، كما هو الحال مع تقديم الأضاحي وفروض الاحترام للأصنام والصور والبقر.

أما بالنسبة للتطوع في الحروب الدينية، فرغم أن الكهنة كانوا المتسببون في إشعال كثير من الحروب والصدامات باسم أديانهم، إلا ان لكل زمان ظروفه الخاصة، كما أنه من الصعب أقناع انسان يعتقد بدين قديم التوقف عن القتال. أما مسألة استعمال السلاح بشكليه الفردي والجماعي، فما زالت آثاره موجودة حتى اليوم بين مجتمعات تدعي الرقيّ والحضارة، ناهيك عن دور بعض الكهنة ورجال الدين في إثارة الكراهية والنعرات الطائفية بين الناس، فهم أول المستفيدون عند النصر، وأول الهاربون عند الخسارة.

وعن علاقة الأديان بالإنسان، يقول إنها:- *(تصرفات مكلفة قد تستهلك موارده المهمة لحياته).*[1]

---

1 صفحة 166.

من الواضح أن من لم يعرف مشاعر الرحمة والشفقة والإيثار، سيعتبر مسألة التبرعات والزكاة والإثرة ومساعدة الآخرين أمر عارض لا موجب له . فمن لم يسبق له رؤية مشاعر العطف والرحمة والإحسان في عيون المحسنين حين رؤية الفقراء والمعوزين يتضورون جوعاً ، أو أيتامًا يستلمون كساء داثر في يوم ممطر قارس البرد، لن يستطيع تصور مقدار تأثير الاحسان والإيثار على القلوب الرحيمة. إن مشاهدة رقرقة دمعة ساخنة في عينيّ أم وأنت تقدم لأطفالها المتضورين جوعًا وجبات طعام أو ملابس يسترون بها أجسادهم النحيلة، تهزّ نياط أقسى القلوب. فمن لم يذق طعم الفقر المدقع ولم يعانِ من سياط العوز ولم يقابل محتاجًا يتوسل اليه، يعجز عن فهم قوة التأثيرات والمشاعر الانسانية والرحمة والتآخي التي أوجدتها الأديان في النفوس والقلوب بين الناس .*

ما زال يتكلم عن أتباع الأديان أكثر مما يتكلم عن الأديان ذاتها، وسبق وقلنا لا سبيل للمقارنة بينهما، فهما أمران مختلفان. وحينما يتناول موضوع التداوي بالأدعية وقراءة آيات القران والإنجيل والتوراة أو غيرها، فهي اعتقادات خاصة بالأتباع. أما التداوي بالأعشاب فهي قديمة الزمان، ولقد ورد الكثير من أخبارها في حضارات الشرقين الأوسط والأقصى ، فاستحضروا غالبيتها من أنواع النبات وجذورها وجلود الحيوانات وغير ذلك، فكانت هذه المواد هي أساس ظهور علوم الصيدلة.

يقول:- *(الدين ظاهرة واسعة ويلزمها نظرية واسعة لتفسيرها).*[1]

بالفعل. بدليل أن عالِما مثل دوكنز وأقرانه ومقلديه ما زالوا عاجزين عن تقدير أهمية الأديان وفوائده على تقدم أخلاق البشر.

---

1 صفحة 168.

يقول:- *(السبب المباشر للدين **ربما** كان نتيجة نشاط في قسم ما من الدماغ).*[1]

تخبط واضح فيما يتفوه به ودليل غير مباشر على اعترافه بوجود علاقة بين "الدماغ" والدين. لقد سبق وجئنا على الفرق بين الدماغ والعقل؛ فالدماغ هو ذات المخ، وهو القطعة اللحمية المادية داخل الجمجمة ، وهذا العضو عاجز عن القيام بالعمليات المعنوية المجردة مثل التفكير والتأمل والتصوّر، لأنها عملية خارجة عن مجال المادة . إن الدماغ مثل جهاز اتصالات (بدّالة) يقتصر عمله على نقل ما يأتيه من مؤثرات الطبيعة عبر حواس الجسد ليبلورها بإشارات معنوية ينقلها الى العقل داخل الروح ليفسرها بسرعة فائقة ويتفهمها ويجد لها معاني وحلول، ثم يعيد ارسالها الى الدماغ على شكل أوامر ثم الى الحواس لتتصرف حسب دلالاتها. دليل ذلك عدم عثور علماء الفسلجة والطب والمختصين وعلماء النفس على مكان محدد لعملية التفكير أو مكان تجمّع المعلومات أو صور الأشياء وموجودات الطبيعة داخل الدماغ . لهذا فان عمل الدارات الكهربية والتفاعلات الكيمياوية داخل الدماغ ، إنما هي تفاعلات كهربية وكيماوية مادية تحدث بسبب عمليات الارسال والاستقبال للمعلومات والأوامر، وليست عملية التفكير بحد ذاتها.

يقول:- *(السؤال عما اذا كان الدين قد صمم من قبل رجال الدين أو حكام متهكمين لهو سؤال مهم).*[2]

عمر الأديان قديم جدًا، وإذا أردنا أن ننسب أصوله، فعلينا نسبته الى سحرة البدائيين. ولكن يستحيل أن يكون هؤلاء قد فكّروا بهذا العمق الروحاني، فهو مستوى رفيع لا يقارن بمستوى بدائيتهم.

---

1 صفحة 169.
2 صفحة 169.

وسبق وذكرنا أن الدين في أصله مثل العلم، فهما أمران معنويان وليسا ماديان؛ وبذلك تكون حواس الجسد المادية عاجزة عن اختراع الدين أو العلوم أو استحداثهما. إن الانسان اذا كان شخصًا عاديًا أو من رجال الدين أو من الحكّام، غير قادر لا في الأزمنة القديمة ولا الحالية ولا في المستقبل على اختراع دين له قوة الدوامية والسيطرة على عقول وقلوب البشر وإيجاد قوة المحبة والاتحاد بينهم، لأنه فكرة معنوية تأتي من العالم الفوقي الميتافيزيقي ليس للإنسان سبيلًا للوصول اليه . لقد حاول العديد من الأشخاص اختراع أديان على مر التاريخ وفي مختلف الأزمنة ، إلا أنها تلاشت واختفت بسرعة ولم يتبق لها ذكرًا؛ وحاولت مجموعة من فلاسفة عصر التنوير في أوروبا اختراع دين عصري يستعاض به عن الأديان الإلهية القديمة بعد ما ظنوا أن القديم منها هو السبب في خلق عداوات الشعوب وحروبها، لكن محاولتهم باءت بالفشل رغم ما كانوا يتمتعون به من فلسفة ورفعة علوم ومعارف لا يستهان بها . لهذا فالدين شأنٌ إلهيّ فوقي ليس لرجال العلم والدين شأنٌ بإيجاده.

(وسواء كان التفسير المبدئي للدين استغلالي أو ظهر بشكل عفوي، ما هو التفسير النهائي للرغبة في الآلهة؟).[1]

إن مسألة ظهور الأديان بشكل عفوي ، هو تفسير بعيد عن واقع الحال، فكلمة (عفوي) تعني في منطوق آخر (الصدفة)، ولقد علمنا أنه لا يوجد في الطبيعة قانون للصدفة فكل شيء خاضع لقانون. وبذلك لا يمكن ظهور فكرة الدين من اللا شيء أو من العَدم دون قدح أو حثٍّ للعقل المعنوي؛ وطالما ثبت تاريخيًا أن الأديان رافقت الإنسان القديم منذ عشرات الألوف من السنين، بل والدلائل

1 صفحة 170.

الجيولوجية تشير الى وجودها قد زامن بأشكال بدائية مرحلة الآباء قبل ذلك، فلا يمكن والحالة هذه أن يمتلك ذلك البدائي قدرة معنوية تمكنّه من اختراع دين له قوة الدوامية بأي شكل من الأشكال؛ لأن الدين فكرة معنوية غير مادية ، وفي هذه الحالة، كان لا بد من وجود انسان بقدرات معنوية فوقية ميتافيزيقية لاستحضاره.

أما بالنسبة لظهور الآلهة، فصفة 'الآلهة' هو الاسم القديم للأنبياء - كما سبق وجئنا على توضيح ذلك في قصة الحواري بولس - فهم المصدر الأساس لظهور الأديان البدائية القديمة لأنهم الكائنات المتمتعة بقدرات ميتافيزيقية (رؤى، إلهام، وحيّ، نبوءة) فوق مستويات البشر مكَّنتهم من اكتساب المعلومات من العالم الفوقي، وبذلك كان وجودهم هو الأساس الأول في ظهور الأديان. وبهذا يكون التفسير النهائي للرغبة في وجود الآلهة (المعلمين) هي محبة الخالق لرقي خلقه والعناية بهم.

يقول السيد دوكنز:- *(**ربما** كان السلوك الديني مجرد حادث، مجرد ناتج عرضي لنزعة نفسية خفية، والتي في أحوال أخرى **قد** تكون أو كانت مفيدة).*[1]

لا يخرج هذا الرأي عن نطاق تفسيرين، فإما الجهل التام بشؤون الأديان والتاريخ والروحانيات الى حد جفاف قاع البرميل، أو نوع من مخادعة النفس. إذ أن جميع علماء التاريخ والحضارات اثبتوا بالدلائل المادية والأثرية وجود الدين عند جميع شعوب الأرض منذ أزمان تاريخية عميقة يصعب الوصول اليها وتحديدها ، وكلما تعمقوا كانت آثار الأديان تظهر وتعلن عن نفسها بشكل لا يمكن تجاهله، ولا تستثنى من ذلك أرض أو شعب من الشعوب. فإذا كان انتشار الأديان

1 صفحة 174.

بهذا الشكل العمومي، فكيف يمكن وصفه (مجرد *ناتج عرضي*)! فمثل هذا الوصف لا يستعمل إلا لحالة فردية شاذة لا تتكرر تأتي وتذهب دون ترك أثر واضح. نعم، يمكن وصف الأديان *(نزعة نفسيّة خفيّة)*، لأنها حالة خاصة بنفوس فوقية أوجدت الأديان والمعتقدات في جميع أنحاء الأرض، كما أوضح ذلك الفيلسوف توينبي. أما عن فائدتها، فقد جئنا على ذكر الكثير منها. هذا، ونلاحظ أن أفكار السيد دوكنز تتخللها على الدوام كلمات الاحتمال والافتراض وخالية من التوثيق أو الدلائل العلمية الثابتة.

*(إن النزعة التي انتُخبت طبيعيا في أسلافنا لم تكن ديناً بحد ذاته بل كان لها منافع أخرى، وبلورت نفسها كدين **مصادفة**)*.[1]

قبل كل شيء لم يذكر ما هي المنافع الأخرى، ثم أن الطبيعة المادية لا تنتج أفكارا روحية أو معنوية، وسبق وذكرنا أن الطبيعة تخضع لقانون مادي عام لا يمكنها الخروج عن نطاقه، كما أن ليس لها عقل لتبدع به حتى يستمد الانسان أفكاره منها، إضافة لذلك إن الانسان البدائي لا قدرة له على الاختراع والتفكير. أما افتراض 'الصدفة' الواهي الذي يستعمله الماديون، فكثيرًا ما يستعيض السيد دوكنز بديلا عنه مصطلح 'الانتخاب الطبيعي'، لكنه لم يستطع الاستمرار عليه في تفسير هذه النقطة وغيرها بعد ادراكه لهلامية تعليلاته، لذا لم يجد بُدًا إلا بالعودة الى فرضية الصدفة من جديد. أما قوله: *(لم يكن دين بل كان له منافع أخرى)*! فماذا يرغب أن نطلق عليه من اسم، وما هي المنافع الأخرى؟ فإذا لم يكن لديه تفسير أو جواب، فلا حاجة لتقديم تعاليل واهية كيفما اتفق.*

---

1 صفحة 174.

ولنستمر في قراءة ما 'ينعمه' علينا من 'عبقريته'، ولنرى ما هي هذه المنافع التي بلورت نفسها لتخرج لنا الدين ، ولماذا لم تخرج لنا شيئاً آخر ، وأين دور الصدفة في الموضوع. حيث يقول أن الدين ظهر مثلما يقلّد الأطفال الكبار وما يوصونهم به من جيل الى آخر.![1]

ما يواجه هذه الفكرة من سهام التفنيد، التعرّف على أول موجد لفكرة الدين ، إذ لا بد وأن يكون هذا الأول قد اخترعها ولم تنتقل اليه من آخر. فاذا علمنا أن البشر قديماً كانوا يعيشون متفرقين في جميع مناطق الارض على شكل جماعات منعزلة، وإن كبريات القبائل والشعوب لم تظهر إلا لاحقًا، وإن الانسان البدائي عاجز عن اختراع فكرة علمية أو روحية غيبية، فكيف قلّدت كل مجموعة غيرها في الاعتقاد بوجود ذات غيبية عليا؟ من هذا، لا يبدو في فرضية **المصادفة** التي افترضها مخرج معقول.

وعندما يضرب مثال انتشار الفايروس في جهاز الكومبيوتر وكيف يسري ليدمره وينطلق على شكل رسائل لبقية الأجهزة ليعبث بها كتعليل طريقة انتشار الأديان. فهذا المثال جاء غير موفق أيضًا بسبب اختلاف مواقع استقرار البشر في أقاصي الارض وتباعدهم مما يبعد فكرة انتشار "الفايروس" بينهم، حيث نجد آثار الأديان في أقصى بقاع الارض وبين أبعد جماعات البشر انعزالاً في الجزر النائية.

قال:- *(علينا أن **نتوقع** أيضاً أن الغيبيات والأمور الأخرى الغير واقعية ستتطور محلياً وتتغير عبر الأجيال بشكل عشوائي أو بشكل يتبع نوعا من الانتخاب الداروينـي، حتى نرى ظهور أشكال جديدة من المعتقدات المستحدثة التي تختلف كليًا عن الأصل.)*.[2]

---

1 صفحة 176.
2 صفحة 177.

هذا أمر طبيعي ، فالأفكار والمعتقدات تتغير نحو الأفضل مثلما تغيرت أحوال المجتمعات من قبل، لذلك غالبًا ما نرى طقوس شعوب الأديان القديمة تنكفئ نحو عمليات التكرار والتقليد مع مرور الوقت وتمسي مجرد حركات وطقوس وعادات مكررة لا قيمة ولا رجاء منها، مما دعا الناس لاعتناق كل جديد منها. كما أنه من غير المنصف انتقاد قديمها بعدما أصبح الفارق الزمني آلاف السنين، فتغيّر وتطور الأفكار أمر حتمي لا بد منه. أما القول أن الأمور الغيبية غير واقعية، فحسب نظرية الأضداد، مثلما توجد أمور واقعية لا بد أن توجد أمور غيبية.

ولكن، لماذا لا نقول ان الدين فكرة حيّة منظمة تتوافق مع تطور العقل البشري وتطور مجتمعاته، فتظهر في كل زمن عقائد تتوافق مع تطور أحوال البشر، بدأت من فكرة الأجداد والآباء الى فكرة الطوطم الى الكهنة الى الآلهة الى ظهور الأنبياء الى انتشار الأديان العالمية. ثم ان فكرة الانتشار الطبيعي التي يفترضها، تعارضها مواقف البشر الطبيعية في تصديهم لكل معتقد ديني جديد، فلا يوجد دين على الأرض إلا وقام الناس للاعتراض عليه ومحاربته وقتل أتباعه في أول ظهوره، ولولا امتلاك الأديان لقوة التأييد الإلهية، لما قامت لأي دين قائمة، فكم من محاولات فردية لبشر ادعو نبوءات أو حاولوا انشاء دين بشري، باءت محاولاتهم بالخذلان والفشل. فالدين شأن إلهي محصّن يمنع مشاركة البشر في ايجاده.

في انتقاده لفكرة ظهور القائد والقيادة ومدى تأثيرها على سير أحوال المجتمع، جاء مخالفاً لجميع النظريات التاريخية المؤيدة لضرورة وجود القيادة بسبب انتشار الجهل والأمية وقلّة المعرفة قديمًا. لقد كانت فكرة الأب والقائد والكاهن إحدى الحلول التي اتفقت مع سبل تطور المجتمعات وتنظيمها، حيث نجد نظام القائد موجوداً

حتى بين المخلوقات الأدنى من حشرات وطيور وحيوانات. أما لو لم يكن هذا النظام موجوداً ، لدبَّ الاختلاف وانتشرت الفوضى بين البشر منذ أن كانوا جماعات صغيرة ولما تمكنوا من خلق مجتمعات ولا حضارات ولبقيت أعدادهم قليلة ومتناثرة؛ إلا أن نظام القائد والرئيس وما ترتب عليه من طاعة والتزام وتنظيم ، ساعد في بقاء الكائن البشري وأوصله الى هذا المستوى المعرفي.

يستشهد بمجموعة من "علماء" السلوك ويقول:- *(ذكروا كل على حدة فكرة الأديان كناتج عرضي لعوامل نفسية طبيعية).*[1]

مثلما يوجد المعارض يوجد المتفق. ومن الطبيعي أن يبحث كل صاحب فكرة عمن يؤيد أفكاره ويساند وجهة نظره. وقد سبق وقلنا أن الانسان استمر يعيش حالة البدائية لملايين السنين ولم يخرج منها إلا في القرون القريبة الماضية، فإذا كانت الاستنتاجات الفكرية تخرج كناتج عرضي بهذه السهولة، فلماذا بقيت البشرية واقفة في وادي البدائية طوال ملايين السنين؟ ولماذا لم يحصل أن تحركت 'بالصدفة' بمثل ما قد حصل قبل ثلاثة ألف سنة حينما ظهرت الأديان العالمية؟ ألم يكن هناك ملايين الصدف والفرص لتؤدي الى نتائج عرضية؟ فعندما يصعب على العقل البشري البدائي التوفيق فيما بين العلوم المادية وهي أمام عينيه وبين يديه ويعجز عن اختراع ما يمهد له سبل الحياة الهانئة لفترات طالت ملايين السنين، فمن غير المعقول أن يوجد أو يخترع مثل هذه القفزة والتجاوز الروحاني من عالم الماديات الى عالم الغيبيات في فترة قصيرة؟ إن هذا الموضوع المهم بحاجة الى إعادة تفكير لاكتشاف أسراره.

---

1 صفحة 178.

وعندما يضرب مثلاً بما تعتقده مجموعة بدائية من أهل الكاميرون عن دور الساحرات في تخريب محاصيل الزرع ويعتبره دليلا على ضحالة العقائد الدينية.[1] فهي عودة منه لانتقاد تصرفات البشر البدائية، ناهيك أن مثل هذه الاعتقادات كانت مفيدة في وقتها، فكم عدد الأشرار وقساة القلوب الذين امتنعوا عن ظلم الناس والسيطرة عليهم مخافة انتقام الآلهة والساحرات والعفاريت التي كانوا يعتقدون بوجودها . فمثل هذه الأوهام كانت مجدية في وقتها لحفظ الجماعات وانظمتها البدائية ، حيث كان الانسان غير متعمق في تفاصيل القوانين الدينية وغيرها من بقية العلوم ويفتقر لرجاحة العقل، لذا من الطبيعي أن لا نتوقع منه تصرفاً يماثل تصرفات انسان حديث.

بسبب طول فقراته وكثرة سرده وشروحاته، اختصر مقتبسًا العبارة التالية:- *(بالنسبة لعلماء الانسان خاصة أنهم يهتمون بتنوع الأديان في العالم وتناقضاتها كما هو الحال بما هو مشترك بينها).*[2]

لم يكن مقصده هنا الاشادة بفوائد الأديان، بل قصد التركيز على تناقضاتها. إن وجود تناقضات بين طقوس الأديان القديمة والحديثة وأحكامها، أمر طبيعي، كما هو الحال في اختلاف وتناقض القوانين الاجتماعية بين الشعوب القديمة والحديثة، فلا توجد اليوم أمة على الأرض تتوافق في جميع بنود أحكام قوانينها مع أمة أخرى، فما يعتبر جنحة في مجتمع ما، قد يكون عملا ليس ذا أهمية في مجتمع آخر. كما ان الأديان تتعامل في نصائحها وأوامرها مع حالة الانسان النفسية فردًا كان أم جماعات، وبهذا كان لا بد من وجود اختلافات حتمية بين قوانينها تتوافق مع مستوياتهم . بينما لا يشمل هذا

1 صفحة 178.
2 صفحة 178.

الاختلاف أمور الآداب والأخلاق، فجميع الأديان متفقة عليها رغم نسبيتها . إن نفوس البشر مختلفة ومتباينة، فلا نجد إنساناً يشبه آخر في جوهر نفسيته، وبالتالي لا يوجد شعباً يشبه آخر في السلوك العام.

قال:- *(كل أنواع الأيمان الديني تبدو غريبة لإنسان لم يتربى داخلها).*[1]

قبل كل شيء، لا يوجد شعب ليس له تاريخ ديني . والعبارة هنا تصوّر القاعدة العامة كحالة شاذة . إن الغرابة هي في ظهور من يعزف بنغمات نشاز عن جوقة موسيقية متناسقة ويبحث عن غايات دفينة سعياً وراء شهرة أو ثروة . فما يقوله مخالف لواقع تاريخ مجتمعات البشر تماما، فلم يوجد شعب من الشعوب أو قبيلة من القبائل المنعزلة في أقصى جزر البحار والمحيطات إلا وكان لها معتقد ديني مهما كانت مظاهره بسيطة وساذجة وخرافية.

أما الغرابة الحقيقية، فهي في ظهور مجموعة من علماء الطبيعة الماديين تدعو لترك الأديان بعدما انتبهوا لما يدعو إليه رجال الأديان من تفاسير وهمية ومفاهيم قديمة وصلت في ضررها لتصبح أوبئة اجتماعية خطيرة. فمثل هذا التردي الديني الروحي لا يدعو لاتهام الأديان ذاتها ، فهذا حكم يفتقد للمصداقية ويضرب بعرض الحائط حقيقة توافق وتزامن وجود الأديان وأبديتها وقِدمها مع وجود الجنس البشري، فلقد كانت منذ قديم الأزمان أساسًا للتربية الروحية والاجتماعية وحافظت على النظم الاجتماعية حينما لم يكن هناك رجال قانون وقضاة وسياسيين وأجهزة سلطة تشريعية وتنفيذية كما هو الحال الان . وما دام دور الأديان كان بهذه الفائدة وهذا الاتساع، كان من الضروري استمراره وعدم انقطاعه، فهو الصائن الداخلي

1 صفحة 178.

للنفس البشرية حين تنتابها دوافع الشرور ويغيب عنها قوة النظام الخارجي ويختفي رجل القانون . فالغرابة تكون في انقطاع المدد الإلهي وتوقف استمرار حلقاته، لأن تواصل الأديان ببعضها كان سمة تاريخية عامة غايتها استمرار رفع المستوى الروحي والأخلاقي للبشر (وكم نحن اليوم بحاجة لذلك). وبهذا كان من الضروري التحقق من دور الأديان المفيد وإيجابياته وليس الدعوة للبعاد عنه وتركه والبحث عن نقاط ضعف تصرفات أتباعه، فقد سبق وجرّبت الأديان كدواء اجتماعي لحفظ النفوس والمجتمعات لآلاف السنين، وثبت نجاع اكسيرها.

في كتاب يفترض أنه يستند على عرض المسائل الفلسفية والعلمية والعقلية ويستشهد بأقوال العلماء والكتّاب والمفكرين ، فمن المخجل بمكان تقديم أمثلة غاية في البساطة والسذاجة لتأييد فكرة الإلحاد ودحض الأديان عما كان يعتقده البدائيون عن الساحرات،[1] وكيف كنَّ يجلسن في الليالي على أوراق شجر الموز ليرمين البشر بسهامهن ويخربن محاصيلهم الزراعية.*

يعود مرة أخرى لتناول موضوع ولادة السيد المسيح(ع) من أمٍّ عذراء وعودته للحياة.[2] وقد سبق وجئنا على ذلك.

ويعود لذكر موضوع 'إحياء لعازر'.

لا يمكن فهم جميع ما ورد في الكتب المقدسة إلا بتوافق الدين والعلم، وعندما يكون التفسير خطأ يدخلنا في مجال الخيال والأوهام، كما ومن غير الممكن أخذ بعض النصوص بمعناها الحرفي ، فذلك يؤدي في كثير من الأحيان الى مخالفة العلم والاعتقاد بالخرافات. فلقد قال الفيلسوف اسبينوزا في فهمه لمعنى نار النبي موسى(ع): إنها

---

1 صفحة 178.
2 صفحة 179.

كانت نار الغضب والغبرة.[1] كما أن هناك من فسَّر معنى سفينة النبي نوح رمزيًا بأنها تمثل شريعته أو ديانته.

سبق القول أن هناك حياتان: روحية ومادية؛ وهناك موتان: روحي وجسدي. وأشرنا أن أرواح الرسل والأنبياء لها قوة أعظم من قدرات أرواح البشر حسب قانون الأضداد الطبيعي. فالسيد المسيح وجميع رسل الله تعالى، لهم قدرة تأثير روحية شديدة، يمكنهم متى شاءوا استعمالها بشكل قوي وعميق، وهذه القوة تفسّر سبب انجذاب وطاعة وعبودية رواد المؤمنين لهم مع كل ذلك الاستعداد المتمثل حتى ببذل الأرواح تنفيذا لأوامرهم. فعلى سبيل المثال نرى في آيات الإنجيل التالية مدى رضوخ وإطاعة أرواح رواد المؤمنين للسيد المسيح(ع) دون جدل أو اعتراض:- (وفيما هو مجتاز رأى لاوي بن حلفى جالسا عند مكان الجباية، فقال له: «اتبعني». فقام وتبعه.)؛[2] وحينما رأى أخوين آخرين:- (فقال لهما: «هلم ورائي فأجعلكما صيادي الناس». فللوقت تركا الشباك وتبعاه.)[3] وأيضا في مناسبة أخرى:- (فدعاهما. فللوقت تركا السفينة وأباهما وتبعاه.)[4] فمثل هذه الطاعة والانقياد وترك شؤون الحياة فور سماع كلمة الدعوة، ما هي إلا دليل على قوة كلمة السيد المسيح(ع) وشدة تأثيرها على النفوس، فمثلها لا يمتلكها حتى أعظم الفلاسفة.

إن دعوة السيد المسيح، هي دعوة روحية أخلاقية، وليس لها علاقة بعمل المعجزات المادية، فمثلا من يدعي أنه موسيقي لا يثبت ذلك ببناء بيت، ومن يدعي أنه رسام لا يثبت ذلك بتصليح سيارة معطلة، فالدليل يجب أن يكون من جنس الدعوة، وعملية إحياء

1 اسبينوزا. صفحة 237.
2 إنجيل مرقس. 14:2.
3 إنجيل متى 19:4.
4 متى 22:4.

الموتى ليس لها علاقة بدعوة روحية، ولا تقنع إلا من شاهد الواقعة، أما فيما بعد، فستكون مجرد قصص يقتنع بها المؤمنين، حيث نجد في المقابل بين البدائيين من يروي قصصا عن معجزات لأشجار أو طواطم فعلت أمورًا خارقة، فما الفرق بين تصديق هذه ونكران تلك؟

كما أن امتلاك الرسل والأنبياء للعلوم الفوقية وقدرتهم على اجراء ما يظنه البشر أمورًا مخالفة لقوانين الطبيعة ، هي في حقيقتها استعمال مبكّر لقوى علمية متوفرة في الطبيعة لم يصل البشر لاكتشافها في تلك الأزمنة القديمة ، وإلا فإحياء البشر واعادتهم الى الحياة، أمر يحدث كل يوم في جميع مستشفيات الطب في العالم ويعتبر من معجزات العلم المادية.

"ظهور المسيح بعد أربعين يومًا".[1]

إن اختراع نظام التصوير بأشعة الليزر ، هولوجرامي (Holography) أو هولوغرافي (Hologram) في السنين القليلة الماضية، قدّم نوعًا من الحلّ لحدوث تلك القدرات العلمية المبكرة (معجزات) السيد المسيح(ع) وغيره من بقية الأنبياء. فقد سبق وأوضحنا امتلاكهم لقدرات يمكنهم من خلالها إجراء أعمال علمية معقدة لم يحن وقت اكتشاف البشر لها في ذلك الزمان، وقد يتوصل البشر مستقبلا لاكتشافها حينما تنمو كميات العلوم بالتدريج أو يخترعون التقنيات اللازمة لإجراء ذلك. وهذا يفسر بعض الشيء أنواع بعض المعجزات التي أجراها الأنبياء حينما كانت تبدو مخالفة في شكلها الخارجي لقوانين الطبيعة، بينما هي في حقيقتها استعمال فعلي لقوانين الطبيعة المادية؛ فجميع الاختراعات العلمية المذهلة الحالية تبدو وكأنها معجزات لمن عاش حتى قبل عدة عقود.

---

1 صفحة 179.

السيد المسيح، قادر على *(سماع أفكار كل الناس)*.[1]

سبق وشرحنا قانون الممكن وغير الممكن (قانون الأضداد، وهذه القوانين تحتّم وجود مثل هذه القدرات الخارقة . إن وجود حالة الاستحالة هو بذاته دليل على وجود حالة الممكن، فطالما أن قوى حواس الإنسان محدودة ، إذن هناك من هو مطلق القدرات، وما يستعمله علماء الفضاء من مجسّات صوتية وتنصّت لسماع أصوات الفضاء البعيد، هي معجزات علمية توصل اليها البشر حتى الان ، ومن الوارد جدا أن يخترعوا مستقبلا ما هو أكثر تقنية واعجازًا . إنها علوم حقيقية متوفرة في عالم الطبيعة، دليل ذلك: إن كل ما فكّر به الانسان وتخيله من أمور خارج قدراته الفعلية، تحقق الكثير منها، مثل الغوص في أعماق البحار والطيران وارتياد مجالات الفضاء والنزول على سطح الكواكب.

أخيراً يعلق على أن مثل هذه الأفكار الدينية (المعجزات) لو قدّمت لعالم إنساني محايد، ماذا سيقول عنها.[2]

ليقل ما يقول، وقد يستغرب هذا المحايد أو لا يستغرب، فالعقل البشري ما زال في دور التطور، لكن المشكلة مع من يأخذ هذه القدرات العلمية المبكرة على محمل الهزل والتسلية ويستغلها لكسب المال والشهرة.

يقول إن "التطوريين النفسيين" اقترحوا أن الأديان ما هي إلا ناتج عرضي لعمل مجموعة من الوحدات الدماغية[3].

ها نحن عدنا من جديد، حيث نلاحظ الرجل وهو يحاول جاهدًا إيجاد مبررات واهية لنشوء الدين، ويفترض أن الدماغ (المخ) هو

---

1 صفحة 179.
2 صفحة 180.
3 صفحة 180.

القائم على عملية التفكير، مع إنه ليس هناك دليل علمي ملموس على ذلك حتى الان . أما تصنيف فاعلية الدين على أنها دوافع عرضية، فهذا هو الاجحاف بعينه، فمعنى "العرضي" هو الأمر المؤقت، بينما الأديان لها صفتي التكرار والديمومة.

أما إشارته للتحالفات والعنصرية بين أتباع الأديان، فهذه تصرفات بشرية لا يدعو لها دين من الأديان الحقيقية، إلا إذا كانت نوعا من أنواع الدفاع عن النفس والعقيدة في مجتمعات وحشية تهدد الفكر الانساني وسلامة البشر وتدفع لإعادة الشعوب الى عوالم الظلمات، فالدفاع عن النفس أمرًا لازمًا وحتميًا ومشروعًا عندما لا يكون هناك سبيلا آخر أمام معتنقي الأديان أو غيرهم للدفاع عن أنفسهم. وهذا ليس بالأمر الباطل، فجميع الشرائع السماوية والدساتير الوضعية حللت وأجازت الدفاع عن النفس والعائلة ، ولا أشك أبداً إذا دخل بيته مجرم يريد الفتك به أو بعائلته أنه لن يقاومه بشتى الوسائل.

*****

ثم يفرد المؤلف حدود عشر صفحات في عرض آراء مفكرين يتساءلون: هل الروح داخل الجسد أم خارجه؟ وكل ما أورده مجرد كانت تصورات تخطئ هدفها في النيل من فكرة ضرورة الأديان، وتثبت فشلها في دحض صحة نظرية المثنوية (وجود روح خارج الجسد) أو نظرية الغائية (هنالك سبب لوجود الانسان). وسبق وشبهنا قوة الروح، مثل شعاع نور على صفحة مرآة الجسد.

ومع ذلك قال متندرًا:- (*إذا كان كل شيء له هدف، فلمن ترجع هذه الأهداف؟ الله، طبعا.*)[1].

1 صفحة 182.

كان من الأفضل بدلاً من الانتقاد والتشكيك والسعي للمعارضة دون دلائل علمية ثابتة لمجرد الاعتراض ، تقديم فكرة بديلة مقنعة يستعاض بها عن فكرة وجود الروح. أما طريقة الرفض والاعتراض والهدم والنقض، فهذه من أسهل الوسائل التي يتناولها أي شخص مهما كان مستواه العلمي بسيطًا.

أما ما قدمه من بديل، فهو:- *(حساباتي عن المثنوية الفطرية* ***افترضت*** *أن الانسان يلد مثنوياً غائياً بطبيعته).!*[1]

وهذا افتراض غير مثبت، فالإنسان يولد وعقله وقلبه خاليان تمامًا من أية علوم أو أفكار أو معتقدات، ومن خلال التربية والتعليم فقط يكتسب علومه ومعتقداته من عائلته ومجتمعه.

يقرر:- *(ليست بالضرورة أن المثنوية قادمة مباشرة من المبدأ الغائي بشكل مباشر .* ***ولن أتعمق هنا في الموضوع ولكني اعتقد أنه من الممكن وضع نظرية...).***[2]

عبارة تستند في الأساس على الخيال والهواجس. وقد سبق وذكرنا أن العقل البدائي البشري عاجز عن تجاوز عقبة الاحساس المادي الى عالم الأفكار الروحية المعنوية، وكان لا بد لهذه الأفكار من عقل فوقي متطور أعلى من مستوى البشر يمتلك قدرات ميتافيزيقية ليتناولها من عالم الغيب ويقدمها لعامة الناس على أرض الواقع، ولولا وجود الآلهة والأنبياء المتمتعون بمثل هذه القدرات الفوقية وما قدموه لنا من معاني المثنوية والغائية، لما تمكن البشر إطلاقًا من معرفة هذه الأفكار. وبذلك يكون كل ما نعلمه عنهما مصدره في الأساس من تعاليم الأديان وليس من اختراعات الفكر البشري.

---

1 صفحة 182.
2 صفحة 184.

قال:- *(يبدو **محتملاً** أن اللغات تطورت بما يشبه الانجراف الوراثي العشوائي... وأنا أنطلق من أن الدين كاللغة تطور بشكل **عشوائي** من بدايات غير محددة.. لتعدديتها التي نلاحظها.)*[1].

إن مصطلح "عشوائي"، هي كلمة مرادفة لكلمة الصدفة. وقد ثبت أن لا وجود لهما في قوانين الطبيعة أو في تطور حياة البشر، حيث رافق هذا التطور الأخلاقي رعاية مستمرة من الله ومن أنبياءه، فالإنسان عاجز عن تربية نفسه . كما نلاحظ أن غالبية ما يأتي عليه المؤلف من أفكار، يسبقها بكلمات، مثل: (**محتمل، ممكن، صدفة، قد، إذا، من الوارد.. الخ**)، وهذا نوع من التذاكي لا ينطلي على العقول الحصيفة. وحينما لم يستطع الخروج عن نطاق الفكرة التوراتية المرمّزة في موضوع وحدة اللغات قديمًا وتبلبلها، يضرب مثالا عن سبب تعدد اللغات الأوروبية الى اسبانية وبرتغالية وايطالية وفرنسية.. الخ، بعد أن افترض أن لغة البشر كانت واحدة اتفاقا لما ورد في التوراة. فما استند عليه من مثال، ليس له عمق تاريخي، حيث لا يتعدى بضعة آلاف من السنين، مما يوحي أنه يركّز انتقاده الى فرضية بداية ظهور البشر من رجل واحد وفي موقع محدد من الارض ثم حصلت الهجرات والانتشار . ونتيجة لذلك فهو يظن أن انتشار الأديان وتعددها كان بذات الطريقة، فيفترض وحدتها في البداية (*أديان تحتوي على قواسم مشتركة*)، ثم تعددت. بينما لو افترضنا أن البشر ظهروا من الأرض في كل مكان مثل ظهور النبات، فستبطل فكرة ظهورهم من مكان واحد. وهذا يعلل سبب انتشارهم حتى في أبعد الجزر النائية.

---

1 صفحة 191.

سبق وذكرنا أن أصل جميع الأديان واحد، جاءت من عقل كلّي فوقي غايتها تربية البشر وتعليمهم ، دليل ذلك إن أول معلمو البشرية كانوا من الآباء والأجداد والآلهة والشامان وكهنة الأديان، ونجد إشارة الى ذكر مصطلح "المعلم" في أقدم الكتب الدينية، مثل كتاب "كنزا ربا" للأمة المندائية في قوله: (واعلموا أن معلميكم يُعلمونكم كلمة الحق والحكمة فلا ترفعوا رؤوسكم عليهم).[1] إضافة الى أن الأديان جميعا اشتركت في الدعوة الى تبنّي مبادئ الأخلاق مما يدل على وحدانية أهدافها على أساس أن جميع البشر كانوا على مستوى بدائي واحد وبحاجة الى الأخلاق والتربية . أما فيما يخص اختلاف تعاليمها وأحكامها، فهذا يعود الى خصوصية مراعاة عادات وتقاليد كل شعب على حدة بعدما تكاثرت الشعوب وتنوعت عاداتها. فاذا عدنا الى موضوع وحدة لغة البشر الأولى و"تبلبل" ألسنتهم فيما بعد، - على اعتبار المؤلف ومحيطه الاجتماعي مسيحيّ الأصول - فلا يُستبعد تأثره بها حينما نراه يأخذ بفكرتها ويركّز على انتقادها.

قال:- *(يبدو أنه ليس هناك من شك بأن العديد من مواصفات الدين مؤهلة بشكل جيد للحفاظ على بقاء الدين نفسه وبالتالي البقاء لتلك المواصفات في خليط الثقافات الإنسانية).*[2]

من أين للدين هذه القوة المعنوية في الحفاظ على ذاته للبقاء في عقول وقلوب البشر؟ فالدين فكرة معنوية مجردة ، لا تمتلك بذاتها القدرة على الاستمرار والبقاء والانتشار وجذب القلوب والعقول للاعتقاد بها على مرّ الزمان أو لفترات طويلة، بينما جميع الأفكار البشرية مهما زادت قوتها تأتي وتذهب وتمحى ولا يتذكرها أحد من الناس. فمن أين جاءت قوة الاستمرار للأديان لولا أن تكون كامنة

1 كتاب "كنزا ربا" القسم اليمين صفحة 19.
2 صفحة 192.

في صميم جوهره؟ إن الدين مجرد فكرة أو عقيدة معنوية تأتي بها "شخصية خاصة" ثم تنتشر بسبب توافقها مع أفكار الناس ومشاعرهم . فمن ذا الذي يبتدعها بهذه القوة في كل مرة؟ إلا أن تكون هناك قوة إلهية فوقية مفكرة عاقلة تعطي الأديان سمة الإدامة دون غيرها من بقية الأفكار الوضعية؟

*****

نمرّ على عشر صفحات من حشو الكلام.*

ثم يتحول الى موضوع الميمات (وحدة المعلومات الثقافية) فيقول أن المعتقدات الدينية تنتقل **بطريقة ما** بين عقول البشر. مثل:- (*ستحيا بعد موتك*).[1]

إن فكرة الحياة بعد الموت، هي فكرة غيبية أصيلة لا يمكن للإنسان العادي استنباطها من واقعه المادي، حيث ليس للطبيعة قدرة على إمداد العقل البشري بوصلة أو عروة تمكنه من ربط الطبيعة المادية مع الغيبيات، خاصة في العصور البدائية، حيث كان انسان النياندرتال يدفن موتاه مع حاجياته البسيطة باتجاه محدد اعتقادًا منه بوجود حياة أخرى، فمن أين له هذه الفكرة الفوقية؟ أما موضوع الحياة بعد الموت، فقد جئنا على تناولها، علمًا أن التجارب العلمية الحديثة بدأت تتوجه نحو التفكير في احتمالية أن تكون هناك حياة روحية بعد الموت؛ بعد أن ظهرت الكثير من الأدلة المتوافقة.

قال منتقدًا الفكرة الاسلامية:- *(لو مت شهيداً فسيكون لك مكان خاص في الجنة الرائعة حيث تستمتع باثنين وسبعين حورية عذراء)*.[2]

---

1 صفحة 201.
2 صفحة 202.

خلال السنوات القليلة الماضية، بدأت دعوات ومحاولات لتنقية أحاديث النبي محمد(ص) مما لا يتوافق مع الدين والعقل، حيث بدأ ينادي كثير من المفكرين المسلمين المعاصرين بعد يقينهم أنه لا بد أن أدخل الكثير من الروايات المغلوطة في التراث الإسلامي خلال تاريخه الطويل. وأصل ذكر موضوع الحوريات، ورد في القران الكريم، وأخذه رجال الدين القدماء ليعطوه معاني مادية اعتمادا على قدراتهم العقلية؛ وبما أن القران صعب الفهم والتفسير - دليل ذلك وجود المئات من كتب التفسير - لذلك انتشرت فكرة الحوريات الاناث في عقول الرجال حسب مفاهيم رجال الدين.

قال:- *(الايمان بالله هو أهم عبادة).*

فكرة دينية أزلية كان لها أعظم الفوائد للالتزام بالقوانين العامة المنظِمة للمجتمعات والشعوب البدائية القديمة ، ولم يكن لها ضرر اجتماعي بدليل ما أوصلت العقل البشري اليه من قدرة على التفكير والإبداع والتنظيم. وقد سبق وقلنا أن العبادة لا تفيد الله تعالى بشيء، فالفائدة تعود للبشر في ترتيب وتنظيم أحوال مجتمعاتهم.

(الأيمان "الاقرار بدون أدلة" عبادة).

نعم.. إنها طريقة أبوية في التربية طالما يعجز الإنسان عن تربية نفسه بنفسه. فقد ثبت من قبل أنها وسيلة تعليم ناجعة لمواكبة استمرار تطور الأمم لمن يعجز عن استيعاب دلالاتها في حينه، حيث لا موجب لشرح أهداف الأيمان ونتائجه المستقبلية على المجتمع وما سيجنيه من نتائج مفيدة بعد قرون أو آلاف السنين. فمثل هذا الشرح والتبيين سيكون باعثا على الإحباط والملل والتندر أو الانتكاس والارتداد . لكن ما حصل أن الايمان بدون أدلة قد حقق هدفه وأمسى البشر أصحاب علم وحضارة.

قال:- *(الجميع وحتى هؤلاء الذين بدون معتقدات دينية، يجب عليهم بشكل مباشر وبدون أي تساؤل احترام هذه الأشكال من الأيمان).*[1]

احترام معتقدات وأفكار الآخرين، مبدأ انساني عام يسعى علماء الاجتماع اليوم لنشره وتعميمه، فعقول ومشاعر البشر مختلفة بقدر تعدادهم.

(هناك حقيقة أشياء غريبة 'الثالوث المقدس، القيامة، الصعود للسماء' والتي لم نخلق لفهمها).[2]

سبق وجئنا على جواب ذلك والعديد من النقاط المشابهة . فبسبب طفولية عقل الانسان القديم وعجزه عن فهم المعاني الروحية و المعنوية، غُلِّفت الأفكار الروحانية بالأمثال الماديات ليسهل تقبلها. فضرب مثال مادي هو أفضل طرق التوضيح للمفاهيم المعنوية عندما يكون السامع عاجز عن المواكبة والاستيعاب. وهذا أسلوب سبق واستعمله السيد المسيح(ع) حينما سأله حواريوه: لماذا تكلمهم بالأمثال يا معلم؟ وسبق وأخذ به النبي محمد(ص) حينما أوصى أتباعه: (كلموا الناس على قدر عقولهم)؟

أما بخصوص مفهومي الثالوث المقدس، فقد جئنا عليه. أما الصعود الى السماء، فهو مفهوم روحي وليس مادي، فالقانون الطبيعي يمنع ذلك.

(الموسيقى الجميلة والفن والآداب هي في واقعها رموز ناقلة للأفكار الدينية).[3]

---

1 صفحة 202.
2 صفحة 202.
3 صفحة 202.

ثبت علمياً علاقة الموسيقى والفنون بالمشاعر المعنوية المتصلة بالأرواح، وإلا.. فلا شيء مادي يخرج من آلة الموسيقى ليدخل أذن السامع حتى يؤثر فيه ويدفعه لاتخاذ موقف المتأمل الهادئ أو ممارسة الرقص أو الاهتزاز والتمايل . كما من الملاحظ دائما أن الجمل والكلمات وأبيات الشعر تثبت في الذاكرة بشكل أفضل إذا قدّمت مع الموسيقى والألحان ، وهذه اكتشاف ديني قديم استعمل داخل المعابد خلال أداء المراسيم والمناسبات.

(الروم الكاثوليك والاسلام مثلا لم يصمما من قبل أفراد).[1]

منطق غاية في الغرابة والخطأ في التجاوز على ثوابت الأديان والتاريخ! فمن غير السيد المسيح(ع) أو النبي محمد(ص) أوجداهما؟

(الأديان المنظمة يقوم عليها أشخاص: قسس ومطارين وحاخامات وأئمة وآيات الله).[2]

لا خلاف على ذلك، إذ لا بد من وجود منسق ومنظم لها. إن ظهور مثل هذه الشرائح الدينية كان ضرورة اجتماعية بسبب انتشار الجهل والأمية والتخلف في قديم الزمان، وبما أن تقدم المجتمعات البدائية حصل من خلال تطبيق أحكام الأديان، كان لابد من وجود قائم على شرح أحكام الشريعة وما فيها من طقوس الزواج والولادة والدفن والصلاة والصيام والحلال والحرام وغيرها. فالشخص الجاهل أو الأمي لا بد له من معلم يساعده أو يشرح له مناهج الحياة والدين . ثم إن شريحة رجال الدين لم تخلق الدين، بل وجدت بسبب الحاجة لتنظيم حياة الناس من خلال نشر تعاليم الأديان، لذا كان من الضروري أن يوجد لكل منهج عملي قادة ومدراء ورؤساء، وإلا فلن

1 صفحة 203.
2 صفحة 203.

يتحقق هدف التقدم المطلوب. أما المؤسسون فكان هنالك على الدوام شخص واحد وليس أكثر لظهور أي ديانة.

*(الأديان كما يبدو ولو بجزء **ما** مصممة بذكاء، كما هو الحال في المدارس والموضة في الفن).*[1]

اعتراف واضح على وجود مصمم ذكي للأديان أوجد هذه الطريقة التربوية لمختلف أجناس وشعوب البشر ونجح في تطبيق وتحقيق هدفه.

(الدين الوحيد الذي صمم كلياً وبشكل مقصود بذكاء هو السينتولوجي..[2] *والمثال الآخر عن الدين المصمم كلياً هو المورمن. جوزيف سميث، العبقري الكاذب الذي اخترعه، ذهب لحد تأليف كتاب مقدس جديد بشكل كامل "كتاب المورمن").*[3]

من الغريب أن نجده يتحامل على صاحب فكرة أخرى لا يتقبلها، ويصفه بـ (العبقري الكاذب)! مثلما تحامل على الإله يهوه والسيد المسيح. إن المرمونية مذهب أو فرقة (وليس دين) بشريعة، مثلما هو الحال مع بقية مذاهب الأديان الأخرى، استغلَّ مخترعها روح كتاب الانجيل لنشر أفكاره، فتقبلها البعض وانضمَّوا لها.

قال:- *(يستطيع "الدين" الظهور للوجود تقريباً بين ليلة وضحاها).*[4]

من المؤكد أن هناك يوم محدد لظهور وإعلان أي دين بل وأية فكرة. لكن إذا كان مقصده هو سرعة انتشار الأديان عمومًا ، فهذا ما

---

1 صفحة 203.

2 - العلمولوجيا أو السينتولوجيا Scientology تشكل مجموعة من التعاليم الدينية والمعتقدات، تستند الى فلسفة علمانية تأسست عام 1952 من قبل المؤلف رون هوبارد L. Ron Hubbard من ثم أعاد نفس المؤلف صياغتها باعتبارها "فلسفة دينية تطبيقية". صفحة 204.

3 صفحة 204.

4 صفحة 204.

لا تؤيده أحداث الأديان وتواريخها، فالمسيحية استغرقت أكثر من ثلاثة قرون لتصبح ديانة معترف بها، والبوذية والزرادشتية[1] احتاجتا الى مدد أكثر من ذلك؛ بينما بقيت اليهودية في نطاق محدود بين بني إسرائيل حوالي 1300 عام حتى جاءت المسيحية وقامت بنشرها عالميًا. الدين الوحيد الذي يستثنى من المدد الطويلة، هو دين الاسلام وذلك لاختلاف وسيلة النشر.

يستغرب من انتشار فكرة المخلص ويوم القيامة حتى بين سكان أبعد جزر الأرض، قال:- *(عُلماء الانسان تمكنوا من ملاحظة عوارض لحالتين مختلفتين ظهرت في كاليدونيا الجديدة، أربعة جزر في بحر السالمون وأربعة في فيوجي وسبعة في هيبريد الجديدة وحوالي خمسين في غويانا الجديدة، الغالبية كانت مستقلة وليس هناك علاقة بين احداها والأخرى. غالبية تلك الأديان تدّعي بأن هناك مُخلصاً ما سيأتي بشُحنة في يوم القيامة الموعود).*[2]

من الغريب أن يمر الكاتب على هذه المعلومة مرور الكرام ولا يتعمق في تأملها أو تناولها بالبحث والشرح والتفسير حينما يجد فكرة "المُخلص" منتشرة ليس فقط عند أمم الأديان العالمية بل حتى في أبعد شعوب الجزر المنقطعة عن العالم المتحضر، ومن الغريب أيضًا أن لا يتساءل من أين لهؤلاء البدائيين مثل هذه الفكرة الغيبية بنفس مقدار القوة عند بقية شعوب الأرض. ألم يلاحظ قوة رسوخها وسعة انتشارها في عقول البشر، بينما أديانهم ومعتقداتهم قديمة قدم التاريخ، ومن أين جاءتهم؟ فليس من المعقول أن لا يجلب انتباهه مثل هذا الانتشار العالمي لفكرة المُخلص أو فكرة القيامة ، ويدّعي أنهما اختراع بشري؛ وحتى لو قلنا إنهما كذلك، فلن يكون انتشارهما إلا

1 530-350 قبل الميلاد، الى 224-651 بعد الميلاد.
2 صفحة 206.

بشكل محدود وليس عند جميع الأمم وفي جميع قارات الأرض حتى لنجدهما عند بعض قبائل الهنود الحمر في أمريكا وكندا. ألا يدل ذلك على قوة غيبية فوقية داعمة أمدّت هاتين الفكرتين بقوة الاستمرارية والانتشار؟ لذلك نراه وقد ابتعد عن التعمق في تأمل سبب انتشار معتقدي القيامة والمُخلص، لأنهما سيؤديان الى اهتزاز ودحض دعوته الى الإلحاد ويتحقق من ضعفها.

ومن القصص التي ذكرها عن سعة انتشار فكرة المُخلّص، قصة لسكان احدى جزر سليمان النائية في جنوب المحيط الهادئ بأنهم قلَّدوا الأمير فيليب زوج الملكة اليزابيث عند زيارتهما لجزيرتهم ومنحوه مرتبة إله لتشابه شكله مع الإله الذي ينتظرون ظهوره منذ قديم الزمان.[1] وما يُستنتج من هذه القصة، سعة انتشار عقائد الأديان عمومًا وقِدَم وجودها. وقد سبق وأوضحنا أن فكرة الدين، وأمور الروحانيات، هي أفكار ميتافيزيقية ممتنعة النزول من عالمها الغيبي الى عالم الواقع إلا بوجود عقل انسان فوقي - إله أو نبيّ - ذو قدرات ميتافيزيقية تلقاها من عالمها العلوي عن طريق الرؤى أو الأحلام أو الإيحاء أو الوحي حتى قدمها للبشر. صحيح أن مجتمعاتنا تمتلئ بالأباطيل والأكاذيب والتزوير ، إلا أن هذا لا يدفعنا لتكذيب حتى ما يرتبط بأدلة محققة على أرض الواقع.

يحاول التقليل من شأن القوة الروحية التي كانت السبب في انتشار الديانة المسيحية، ويذكر في المقابل العديد من الدعوات الدينية المزيفة ظهرت لشخصيات في فلسطين فيما بعد زمن السيد المسيح(ع)،[2] غايته بثّ الإرباك في قلوب المؤمنين. ثم يفسّر دوامية وثبات الديانة المسيحية على أنها كانت بعامل "الصدفة".! فنسأله في

---

1 صفحة 208.
2 صفحة 209.

المقابل: وماذا عن انتشار بقية الأديان مثل البوذية والزردشتية والكونفوشية والإسلام واليهودية، هل كانت بالصدفة أيضًا؟ وبهذا فهو يعارض وجود قوة إلهية مؤيدة ساندت انتشار هذه الدعوة الحقيقية. وباعتباره مسيحي الأصل، فهو يتناسى وعدَّ السيد المسيح عن حتمية استمرار بقاء دينه، فمن أقوال حضرته: (السماء والأرض تزولان ولكن كلامي لا يزول).[1]

ومن الغريب أن يروي دوكنز عن حالة نادرة لصبي كفيف البصر له قدرة خارقة على الرؤية مستعينًا بأذنيه، فيقود دراجة هوائية.! مع أنه جاهد خلال مجمل كتابه تكذيب ونفي هذا المفهوم الروحي. قال:- *(يبدو أحيانا أن العميان من البشر يكون لديهم حس خارق بالعقبات التي في طريقهم. وقد سمي ذلك "الرؤية الوجهية" لأن العميان يقررون أنهم يشعرون بشيء يشبه نوعا الإحساس باللمس على الوجه. ويروي أحد التقارير أن صبيا أعمى تماما كان يستطيع ركوب دراجته الثلاثية بسرعة جيدة حول مجموعة المباني القريبة من منزله مستخدما "الرؤية الوجهية"... وقد ثبت في النهاية أن الإحساس "بالرؤية الوجهية" إنما يأتي حقًا من خلال الأذنين. فالعميان، دونما وعي بالحقيقة، يستخدمون بالفعل "أصداء" خطواتهم أنفسهم هي وأصوات أخرى، للإحساس بوجود العقبات).*[2]

وتمادى دوكنز بتقديم أفكار خرافية أخرى حاول تمريرها بعدما مَكرها بصبغة العلم. فقد ذكر:- *(حيلة بارعة استخدمت في بعض الطائرات المقاتلة أثناء الحرب العالمية الأولى. فقد كانت مدافعها الرشاشة تطلق نيرانها "من خلال" المروحة، في توقيت متزامن*

---

1 إنجيل مرقس 31:13.
2 دوكنز. صانع الساعات الأعمى. صفحة 47.

تزامنًا حريصًا مع دورة المروحة بحيث تمر الطلقات دائما بين ريش المروحة ولا تصيبها قط).[1]

ونتوقف قليلا لنتأمل صور "الرسوم المتحركة" هذه، ولا أقول الخبر، ونتساءل: لماذا اختير موقع المدفع خلف المروحة مباشرة بينما المجال مفتوح على كامل هيكل الطائرة دون مخاطرة؟ كيف تمَّ ترتيب تزامن اختراق الطلقات بين رياش المروحة والاثنان ينطلقان بسرعات عالية؟ وما الدافع لهذه المجازفة، والاحتمال كبير لحصول اختلاف بين تناسب سرعة حركة اصطدام الهواء مع المروحة عند التفاف جسم الطائرة مع سرعة اندفاع الطلقات الثابتة، ناهيك عن تأثير الغيوم والأمطار والعواصف؟

في الحقيقة، لم أرغب في ذكر هذه الحكاية ولا حكاية الخفاش مخترع الرادار ، إلا لأظهر مستوى تذبذب أفكاره وبساطتها. ولن اعلق على قصة الصبي الكفيف سوى أنه لا يستطيع سماع أصداء خطواته، لأنه كان يستقل دراجة بإطارات مطاطية. لكني - في المقابل - استغرب تكذيبه لآلاف الشواهد على معجزات الخلق الإلهية، وعشرات البراهين النقلية والواقعية من ثقاة الرجال والنساء لوجود قوى الوحي والإيحاء والرؤى الجليّة والمنامات الصافية والحياة الروحية بعد الموت، ومع ذلك يبقى مصرًا على نكرانها ، بل ويستغرب لماذا لم يكتشف كبار فلاسفة أوروبا قبل الآن فكرته "العبقرية" في الانتخاب الطبيعي:- *(كيف أمكن لفكرة بسيطة كهذه أن تظل زمنا طويلا هكذا دون أن يكتشفها مفكرون من حجم نيوتن، وجاليليو، وديكارت، وليبنتز، وهيوم، وأرسطو؟).*[2]

---

1 صانع الساعات الأعمى. دوكنز. صفحة 54

2 المصدر السابق. صفحة 15.

وأخيرًا قال:- *(الأخلاق بدون شك سبقت الأديان... **ربما** كانت ناتج عرضي لشيء آخر).*[1]

نلاحظ مرة أخرى استعماله لكلمة (ربما) دلالة على التخبط وعدم التأكد. أما أن تكون الأخلاق قد سبقت الأديان في الظهور، فهذا ما شرحناه سابقا بأن الانسان القديم لم يكن له مصدر للعلوم والروحانيات إلا عقله والطبيعة المادية، والاثنان لا يملكان مثل هذه الملكات والمزايا العقلية والروحية. وطالما أن الانسان كان يعيش مع الوحوش، فلا مجال إطلاقًا لاكتشافه الأخلاق وتداولها . وبهذا كانت الأديان هي السبب الأول والمباشر في ظهور الأخلاق.

يعد بمناقشة موضوع الأخلاق في الفصل التالي. فلنذهب ونرى ماذا يقول.

1 صفحة 209.

الفصل السادس
(منشأ الأخلاق: لماذا نحن صالحون)[1]

(الوحي بالنسبة للجنس البشري قاطبة بمثابة التربية بالنسبة للفرد الواحد... وكما يحتاج الفرد الى تربية، تحتاج الإنسانية أيضًا الى تربية. و التربية في جوهرها إذكاء للشعور وإظهار له... والإنسانية التي ترجع الى الوراء ، بالقضاء على عقلها ومحو إرادتها، إنسانية تعمل ضد الوحي و على النقيض منه... وكما أن الأنبياء هم مربو الإنسانية، فكذلك المربون هم أنبياؤها).[2]
الفيلسوف ليسنغ

يبتدئ السيد دوكنز هذا الفصل بمقولة للعالِم آينشتاين مرة أخرى عن سبب ظهور البشر على الأرض:- *(غريب هو وضعنا على كوكب الأرض. كلٌ منا يأتي في زيارة قصيرة. لا يعرف لماذا ولكن نشعر في بعض الأحيان بأن هناك غاية . من الحياة اليومية نعرف بأن هناك شيء مؤكد: وهو أن الانسان هنا من أجل الانسان الآخر وقبل كل شيء لأجل هؤلاء الذين سعادتنا تتوقف على سعادتهم وابتسامتهم).*

هذا مفهوم جميل لو أدركناه وعملنا به لتحققت خطوة كبيرة نحو السلام على الأرض . لكن ما يلاحظ في هذا التوصيف، أن آينشتاين تناول ما استطاع رؤيته من أهداف الحياة ، إلا أنه لم يستطع اختراق

1 الصفحة 210
2 ليسنغ 121.

عالم الغيبيات ومعرفة الهدف الأساس من وجود البشر على الأرض رغم أنه تعرّض شخصيًا لتجربة رؤيا روحية تتعلق بما توصل اليه من نظريته النسبية (قصة المزارع وأبقاره). فمن الصعب فهم مسألة الروحانيات مهما ارتقينا في مجالات العلم (قل الروح من أمر ربي)،[1] لأن جوهر الروح متعلق بالمفاهيم الغيبية، وهذا أمر متعلق بعالم الأرواح حتى أنه من الصعب على العقل التعامل معه رغم إن العقل هو أقوى قوى الروح . وهنا نرى أن عبقرية آينشتاين بتمامها لم تستطع التوغل للكشف عن هذا السرّ الإلهي، لأنه رجل بقدرات عقلية بشرية . فمجال الروح من اختصاص الرجال الفوقيون (الأنبياء) لامتلاكهم قدرات روحية عالية تمكّنهم من اختراق حواجز عوالم الغيبيات وقطف ما يناسب عقلية الانسان من أزهار العلوم الروحية والعلمية، رغم المشهور عنهم عدم تعلمهم، فمن المعلوم أنه لم يرد دليل أو إشارة في التاريخ تثبت أن الرسل كان لهم معلمون؛ وهذا أمر صحيح، ففي الحقيقة لا حاجة لهم للتعلم، لأن أصل مصدر علومهم هو شأن إلهي ذاتي (لدنّي) غير مكتسب ، وكل ما يقال عن تعلمهم على يد آخرين، ورد بسبب اعتقاد البشر شمولهم بقانون "لا بد للإنسان من معلم ليتعلم"، فغالبية العلماء المعاصرين لا يؤمنون بالقدرات الغيبية للأنبياء لدرجة أن الفيلسوف اسبينوزا حاول تحديد قدرات الأنبياء حينما قال:- (لذلك، فلا جدوى على الاطلاق من أن نلتمس لديهم معرفة بالأشياء الطبيعية والروحية. والنتيجة التي ننتهي اليها اذن، هي أننا لسنا ملزمين بالأيمان بالأنبياء إلا فيما يتعلق بغاية الوحي وجوهره).[2] لذلك انتشر التشكيك بعلوم الأنبياء الذاتية "اللدنيّة" ومحاولة تفنيدها، وتناسوا أو غفلوا عن قانون التناقض

1 الاسراء 85.
2 اسبينوزا. صفحة 162.

والأضداد الطبيعي حيث لا بد من وجود من لا يتعلم بمعلم طالما أن هناك من يتعلمون بمعلم. أما سرُّ حجب عالم الروح عن البشرية، فمن أسبابه هو الحفاظ على استمرار وجودهم على الأرض، فلو كُشف لهم الغطاء عن روعته وجماله ، لتمنى الجميع ترك هذا العالم للانتقال اليه، فالفرق بين هذا العالم المادي وعالم الأرواح، أوسع وأجمل من الفرق بين عالم الرحم وهذا العالم المادي. ومن أسباب حجب حقيقة عالم الأرواح عن عيون البشر هو لإبقائهم في هذه الدنيا كي يكملوا قدراتهم العقلية والروحية لحاجتهم اليها في العالم الروحاني استعدادًا للانضمام مع بقية أرواح البشر الذين سبقوهم. وهناك مثال آخر عن هذا التباين، فكما هو الحال مع عالم الحيوان، حيث يستحيل على أرقى أنواعها إدراك أو فهم ماهية العقل الذي يتمتع بها الانسان . فإذا كان مثل هذا الفرق والتباين موجودًا في عالم الطبيعة ولا يمكن للحيوان اختراقه، فما بالنا بالفرق بين هذا العالم وعالم الأرواح.

وللتعرف على جانب من قدرات الروح الغيبية ، ورد عن آينشتاين أن أصل اكتشافه للنظرية النسبية التي غيرت مجرى علم الفيزياء، رؤيا شاهدها وهو في سن العشرين. كان ينظر الى مجموعة من الأبقار وهي محاطة بسور من الأسلاك، لكنها كانت تخرج من بين بينها بحذر وبطء شديدين، بينما قال له صاحب المزرعة - في الحلم - إنها خرجت كعادتها بسرعة وانسيابية . وعند يقظته، أدرك آينشتاين أن مسألة حركتها وخروجها كان أمرًا نسبيًا يتوافق مع رؤية كل منهما. وهكذا اكتشف النظرية النسبية.

وفي رؤيا غيبية أخرى عن قدرات الروح، أن مُخترع إبرة ماكنة الخياطة، بعد أن عجز وأسقط في يده ولم يستطع التوصل لحلِ معضلة ادخال الخيط في الإبرة، إذا به يرى في المنام أن سكان

المنطقة من الزنوج هاجموا بيته وكانوا يرمونه برماحهم. فلاحظ أن أسنّة الرماح كانت مثقوبة من وسطها . وعند صحوته تذكّر حلمه وانتبه لفكرة الابرة المثقوبة من الأعلى. وبذلك تحقق اختراعه نتيجة رؤيا، والذي كان مستحيلا على عقله الوصول اليه أثناء يقظته.

و يُذكر أن ابن سينا، الفيلسوف المشهور، كان إذا صعبت عليه مشكلة، توضأ وصلّى ثم نام، فيرى حل تلك المشكلة في أحلامه.

وتروى مثل هذه القصص عن "ديكارت"، فقد كشف كشوفاته العظيمة - كما يقال - وهو نائم في فراشه صباحًا.

وكذلك يروى عن مكتشف "الانسولين" انه اكتشف عقاره أثناء النوم. فبعد أن قرأ كثيرًا عن مرض السكر ، حيث كان يعدُّ محاضرة لليوم التالي، تملّكه الاعياء وغلبه النوم . وفي الساعة الثانية بعد منتصف الليل استيقظ فجأةً وأضاء المصباح وكتب ثلاث عبارات في مذكرته . فكانت هي المفتاح لاكتشاف سرّ هذا العلاج الرائع لمرض السكر.[1]

وتعليل ذلك، أن العقل الإنساني المعنوي باعتباره أقوى قوى الروح ، يتأثر بأحداث المحيط المادي الحياتي العام وينشغل بها في يقظته ، فيمنع هذا التأثر المستمر، العقل عن العمل بكامل قدراته وحريته للانطلاق الى عوالم الأفكار والتأمل، لكن بعد هدوء الجسد وانفصاله عن العالم المادي خلال فترة النوم أو أثناء التنويم المغناطيسي، يأخذ العقل كامل قدراته ومساحته في الانطلاق والبحث، وبهذا يتوصل الى نتائج أبعد من قدرته أثناء وقت الصحوة.

ويحدث لكثير من الناس أثناء فترات اليقظة محاولة تذكّر شيئًا أو أمرًا أو اسمًا أو مكان معين، لكنهم يجدون أنفسهم عاجزين عن

---

1 خوارق اللاشعور. علي الوردي. صفحة 173.

ذلك. ويفاجئوا وهم ممدون على أسرّتهم قبل الدخول في مرحلة الغفوة والنوم بثواني، أو في أول دقائق الصحوة عند الصباح، أنهم يتذكرون بسهولة ما حاولوا جاهدين تذكّره أثناء اليقظة . وتعليل ذلك، إن انفصال حواس الجسد عن العالم الخارجي ودخولها في أقصى حالات الهدوء والاسترخاء قبل لحظات النوم أو بعد الاستيقاظ يفسح المجال للعقل المعنوي للتمتع بكامل قواه وقدراته والانطلاق لإعادة البحث عما جاهد وفشل في تذكّره أثناء اليقظة، لأن العقل لا ينام ولا يحتاج الى الراحة، فهو كيان معنوي وليس مادي حتى لا يتعب أو يحتاج الى راحة.

كان هذا تعقيبًا على عنوان مقدمة الفصل السادس.*

في أول عبارة له في هذا الفصل، قال:- *(الكثير من المتدينين يجدون صعوبة في تصور كيف أنه يمكن للمرء أن يكون صالحاً بدون دين، أو حتى كيف يُمكن أن يريد أحد أن يكون ذلك بدونه).*[1]

لو عدنا الى التاريخ البدائي القديم عندما كان الانسان يهيم في أرجاء الطبيعة مثل بقية المخلوقات، فلن نجد آنذاك علماء أو مفكرين أو فلاسفة أو حرفيين أو صنّاع بين البدائيين، بل كل ما سنراه مجموعات من البشر منتشرة في كل مكان، فرادى أو جماعات يتصرفون بمستوى وحشي وبدائي يركضون خلف الطرائد لا يعرفون معنى الاستقرار او الزراعة وليس لهم علم ولا أخلاق ولا قوانين اجتماعية راقية، عاشوا في حالة من الفوضى تقارب في أسلوبها ومستواها حياة الحيوانات.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى، يظن كثير من العلماء المعاصرين أن هؤلاء البدائيين قد طوروا تصرفاتهم نتيجة التفكير

---

1 صفحة 211.

والتأمل الذاتي فأوجدوا نظمًا اجتماعية لحياتهم البدائية ، ومن ثم بدأوا بالتفكير تدريجيًا لترقية تصرفاتهم حسب متطلبات التعامل مع واقعهم الاجتماعي، وبالتالي أوجدوا مجتمعات راقية.

سبق وقلنا أن هذا منظور وتصوّر خاطئ، حيث أن العقل البشري عاجز عن استنباط أفكار معنوية طالما ليس له سبيل في التعامل مع الطبيعة المادية إلا عبر حواسه الخمس، فهذا حاجب لا يمكن اختراقه بالقوى الحسية. وطالما لا يوجد في العالم البدائي سوى الحيوان والوحوش والنباتات والغابات والصحارى.. وغيرها من الأمور المشابهة، فلا مجال للإنسان لتعلم أي شيء، سوى تقليد ما يراه من تصرفات الحيوان، وهذا سبب بقائه على حالة البدائية لملايين السنين. لذا كان لزاماً عليه أن يقتات ويحيا مثل بقية الحيوانات وينافسها في تحصيل غذائه. وقد بقي على هذه الحالة قبل ظهور مشاعر الأخلاق وحالة الوعي والإدراك والضمير، حتى تعلمها بالتدريج من الرجال الفوقيون، فهذه الأمور هي قدرات معنوية خاصة ليست من المكتسبات الذاتية للإنسان، بل جاءت من خلال تربية رجال كانت لهم قدرات فوقية للتواصل مع العالم الميتافيزيقي ثم نقلوها الى البشر. ولقد وجد علماء الآثار عند انسان النياندرتال نوعاً من الآثار الخاصة بالمعتقدات الدينية، مثل طريقة عنايته بدفن الموتى، حيث كان يدفنهم بطريقة منظمة ويمدّ أجسادهم باتجاهات محددة نحو الشمال أو مشرق الشمس واضعًا معهم أزهاراً وبذور وأدواتهم الخاصة؛ كما وجدت دفائن من التابوهات والطواطم اعتنى بها وقدّم لها شيء من التقديس. وهذا يعني أنه كان يدفن حاجات الميت الخاصة معه وهو يعتقد بوجود عالم آخر سينتقل له بعد هذه الحياة وسيحتاج فيه الى أدواته مرة ثانية . وما يهمنا من ذلك، أن هذه الطريقة في الدفن تعني أن المعتقدات الدينية كانت موجودة عند انسان

النياندرتال منذ قديم الزمان، وهذا أمر ثبت علمياً وتاريخياً في أمهات كتب التاريخ والحضارات . ومهما تعمّق علماء الجيولوجيا في قراءة اللقى والآثار، بقيت الآثار الدينية تظهر وتتكشف بين المطمورات بحيث لم يجدوا فترة زمنية تخلو منها. وبهذا يستدل أيضًا، أن الدين او المعتقدات أمر قديم قِدَم وجود الانسان ولا توجد مرحلة زمنية فاصلة تخلو منه . لكن وبسبب عدم قدرة علم الجيولوجيا على تتبع آثار الدين أو الانسان الى ما لا نهاية ، أتاح ذلك للماديين الادعاء بعدم أصالة الدين وأسبقية الأخلاق عليه، طالما يقفون بالمرصاد ضد الأديان يتربصون بها.

بتفحّص تلك الفترات والحقب التاريخية القديمة، نجد ما كان للطوطم والتابو والكهنة والسحرة والآلهة من علامات مميزة ظاهرة في أدوار تعليم البشر مقومات أديانهم ومعتقداتهم وعاداتهم وإنماء مشاعر الضمير والأخلاق ومختلف شؤون حياتهم، ولوجدنا أيضًا دور المنجّمون والعرافون الكبير في قيادة الشعوب وتعليم الملوك الذين كانوا يعتمدون في قياداتهم وأحكامهم وقراراتهم على آراء الكهنة ومشورة المنجّمين؛ هذا إذا تذكرنا أن الكتابة هي اختراع حديث بالنسبة لعمر الانسان الطويل حيث لا يتجاوز زمن ظهورها أو انتشارها خمسة أو ستة آلاف سنة، وقد يكون أقدم من ذلك إذا أخذنا في الاعتبار ما تستغرقه عملية انتشار أي فكرة أو مخترع من وقت طويل في أول ظهورها في ذلك الزمان القديم الخالي من سبل التواصل الاجتماعي،[1] خاصة وقد اقتصر تداول الكتابة وأسرار تعليمها على الكهنة ورجال الدين داخل المعابد لفترات طويلة حيث

1 كان ظهور الزراعة أمرًا شديد التدرج انتشر عبر قرون وألفيات، ولم تستقر مجموعة من البشر العقلاء جامعي الفطر والمكسرات وصائدي الظباء والأرانب بأكملها فجأة وبشكل دائم في قرية ليحرثوا الحقول، ويبذروا القمح وينقلوا الماء من النهر؛ حدث التغيير عبر مراحل، ساهمت كل مرحلة منها بتعديل طفيف في الحياة اليومية. (العاقل. صفحة 107).

كانوا يحرّمونها على عامة الناس لما لها من أهمية خطيرة في تقوية الجانب القيادي للسيطرة والهيمنة، بل نجد بعض قوانين قدماء الكهنة تقضي بقتل أي شخص تجرأ على تعلّم القراءة والكتابة دون إذن منهم، ولقد استمر هذا الحظر والتضييق على العبيد والسود والسكان الأصليين في أمريكا حتى انبثاق الثورة الأمريكية.

نفهم من كل هذا، أن قيادة البشر وتنظيم أمورهم وتعليمهم مبادئ الأخلاق الأولية منذ قِدَم الأزمان كانت بيد رجال الدين من الكهنة والشامان والسحرة والمتنبئين والآباء والأجداد وغيرهم؛ وبهذا نستنتج كذلك، أن بداية العلم والتعلّم واختراع مختلف أنواع العلوم والقراءة والكتابة ومبادئ التربية والأخلاق قد بدأت من الشخصيات المرتبطة بالمعتقدات الدينية كالأنبياء والكهنة؟

إن جميع علماء الحضارات أجمعوا على أن العلوم والكتابة ظهرت من المعابد، ولم يخالف هذا الرأي إلا من اعترض دون أدلة مادية أو تاريخية ، رغم أن الماديون يرفضون أية فكرة أو فرضية بدون أدلة محققة وتجارب علمية.

كما علينا في نفس الوقت أن نتذكر ما كان من تأثير آراء الفيلسوف ابن طفيل الأندلسي في قصته الشهيرة (حيّ بن يقظان) على الفكر الأوروبي، فقد أوجدت بين الأوروبيين فكرة خاطئة شاعت عن إمكانية تعليم الانسان لنفسه بنفسه دون الحاجة الى معلم وأن بإمكانه الوصول الى أعلى مدارج العلم والفلسفة من خلال التأمل والتفكير الذاتي، مع أن ابن طفيل نفسه درس الفلسفة والطب على يد الفيلسوف ابن باجة، وكان معاصراً للفيلسوف ابن رشد وصديقا له.

يعلق الدكتور علي الوردي على هذه القصة، بالقول:- (ولا ريب ان هذا الرأي هو رأي الفلاسفة القدماء جميعاً، فابن طفيل اذن لم يأت بشيء جديد. وليس له من الفضل في هذا الا ابتداعه لقصة شيّقة حيث

عرض فيها ذلك الرأي القديم في قالب جديد. وقد لاقت قصة "حي ابن يقظان" هذه رواجا عظيماً بين المفكرين وترجمت الى كثير من اللغات، وحاول تقليدها والاقتباس منها فلاسفة وكتّاب من مذاهب شتى... والغريب ان كثيرا من كتابنا ومفكرينا لا يزالون حتى يومنا هذا متأثرين بهذه القصة ويعتبرونها الكلمة الأخيرة في قضية العقل البشري. انهم لا يزالون يؤمنون بأن العقل موهبة طبيعية تنمو من تلقاء ذاتها سواءً أعاش الإنسان في مجتمع أم عاش منذ ولادته وحيداً منعزلاً. أما الأبحاث العلمية الحديثة فهي تكاد تجمع على خطأ هذا الرأي. حيث ثبت اليوم ان العقل البشري صنيعة من صنائع المجتمع، وهو لا ينمو أو ينضج الا في زحمة الاتصال الاجتماعي... فاذا ولد الإنسان وترعرع بين الحيوانات فإنه يمسي حيواناً مثلها. وما قصة "حي ابن يقظان" التي ابتدعها خيال فيلسوفنا الرائع الا وهم أو خرافة لا وجود لها في عالمنا الذي نعيش فيه).[1]

من هذا وغيره، تولدت فكرة قدرة الانسان على التعلم بنفسه، ومن هنا اشتدّ وبدأ التنكّر لدور الدين ورجاله في تعليم البشر مبادئ العلوم الأولية والأخلاق. وهذا يأخذنا الى موضوع السحر وقدماء السحرة الذين اشتهرت بهم تلك العصور، حيث لا بد أن حصلوا على علومهم من الأنبياء والآلهة والكهنة ، لأن السحر بمختلف درجاته هو نوع من أنواع العلوم والمهن، لذلك فالساحر بحاجة الى التعلّم والتدريب والتفكير لمزاولة مهنته، فلا يتعلم هو أو أي انسان مهنة ما، مهما كانت بسيطة إلا من معلم؛ فالتفكير بحاجة الى مبادئ أولية للعلوم والمعارف، ولا يمكن للعقل أن يفكّر إلا بعد تزويده ببعض مبادئ العلوم، وهذه لم يكن لها مصدر سوى الكهنة والمتنبئين الذين

1 مهزلة العقل البشري صفحة 132.

أخذوا علومهم من الآلهة الذين كانوا في حقيقتهم أنبياء تلك الأزمنة. إن اصطلاح الآلهة أو الإله هو اصطلاح قديم، تغيّر فيما بعد الى مصطلح "نبي" وانتشر مع ظهور أنبياء بني إسرائيل لأنهم كانوا يتنبؤون بأمور مستقبلية ، كما جئنا على اثبات ذلك في قصة بولس الرسول.

وطالما ثبت ان العلوم بشكل عام كان مصدرها رجال الكهنة، وهؤلاء كانوا بالضرورة تلاميذ آلهة وأقرب الناس اليهم، فبهذا يكون من علَّم الكهنة ومن ثم الإنسان البدائي الأول مبادئ التربية والأخلاق والترقي والشعور بالمسؤولية وكيفية إنشاء العائلة والعشيرة والقبيلة والاعتناء بنفسه وجماعته وأوجد قوة الضمير والوعي لديه، هم الأنبياء، ثم تسلسلت هذه التعاليم بشكلها البسيط لتصبح عادات وتقاليد وأحكام وشرائع عامة يحترمها البشر ويحرصون على تطبيقها وعدم تجاوزها تحت مراقبة عيون الآباء والأجداد ثم الكهنة والملوك لما وجدوا من فائدة اجتماعية فيها. وبذلك يكون مصدر الوعي والأخلاق هم الأنبياء وليس الانسان بحد ذاته.

نعود الى أصل فكرة السيد دوكنز بأن الملحد يملك مبادئ أخلاق قد تساوي أو تتخطى أخلاق المتدين، ليستدل من ذلك أن الدين ليس مصدرًا أساسيًا للأخلاق، فهذا كلام بحاجة الى إعادة تأمل كما أثبتنا. يقول الفيلسوف ديورانت:- (الرجل من الناس وحشيّ في صميمه يتصدى للعالم كله تصدي العدو لأعدائه).[1] ثم يكمل:- (الدين دعامة الأخلاق بوسيلتين أساسيتين هما الأساطير والمحرمات؛ فالأساطير هي التي تخلق العقيدة فيما وراء الطبيعة، ثم يكون من شأن هذه العقيدة أن تضمن بقاء أنواع من السلوك يريد المجتمع "أو يريد

1 قصة الحضارة. ديورانت. ج1. صفحة 21.

الكاهن" بقاءها؛ فما يرجوه الفرد في السماء من ثواب وما يخشاه لديها من عقاب يضطره اضطراراً أن يذعن للقيود التي يفرضها عليه سادته أو جماعته؛ فالإنسان ليس بطبعه مطيعاً رقيقاً طاهراً وليس شيء كالخوف من الآلهة - وذلك بعد القهر الذي خضع له الفرد قديماً **فأنشأ في نفسه الضمير** - أخضع الإنسان لهذه الفضائل التي لا تتفق وطبيعته إخضاعها مطرداً صامتاً؛ فأنظمة الملكية والزواج تتوقف إلى حد ما على العقوبات الدينية وهي تميل الى فقدان قوتها في العصور التي يسود فيها الشك الديني؛ بل الحكومة نفسها التي هي أهم أداة اجتماعية اصطنعها الانسان، وأبعد أداة عن طبيعة الانسان، كثيرا ما استعانت بالتقوى وبالكاهن).[1]

نقطة واحدة يمكن التعليق عليها في قول السيد ديورانت أو بالأحرى مخالفتها، حينما ذَكر: (وذلك بعد القهر الذي خضع له الفرد قديماً فأنشأ في نفسه الضمير). إن القهر كان اسلوب قديم وضروري لتعليم الفرد أهمية الالتزام بالنظام العام، فالقهر والعقاب قانون وضعي مباشر وضعه الانسان ليتعامل به مع واقع الحياة ، بينما الضمير لا ينشأ من العقاب والقهر، بل من التقليد والتعليم والنصائح ومخافة عقاب الآلهة الأخروي. فالقهر هو العقاب وهو شأن مادي، بينما الضمير شأن روحي معنوي ليس بمقدور الانسان اختلاقه.*

يقول:- (سنعود للعدم بعد موتنا).[2]

يرد على هذا الرأي كتب الأديان جميعا وكذلك حشد هائل من المؤمنين بوجود حياة روحية بعد هذه الحياة المادية ، فقد سبق وجئنا على تجارب البروفيسور ريمون مودي وما ذكره من أحداث واقعية لأناس أسوياء عاشوا تجارب روحية بعد أن أعلن الأطباء موتهم ثم

---

1 المصدر السابق. صفحة 64.
2 صفحة 214.

عادوا ليقصّوا ما مرّوا به من تجارب روحية خلال لحظات وفاتهم. والغريب أنهم جميعا ذكروا ذات تفاصيل أحداث تلك التجربة الروحية الفردية بشكل متقارب، وأنهم جميعا قرروا أن لا يخافوا حالة الموت بعدما شاهدوا جمال عالم الأرواح التالي. "أنصح بقراءة الكتاب".

ولكاتب هذه السطور ذكريات عن قصص واقعية سمعها أو شاهدها بنفسه شخصيًا ، أو من أقرباء وأصدقاء ثقاة عن لقاء أناس كانوا على شفا لحظة احتضارهم، فالعديد منهم من نادى في لحظة وفاته أو مقتله باسم شخص غير موجود، وعند السؤال عن صاحب الاسم، نعلم أنه شخص قريب أو عزيز على المتوفي أو للقتيل توفي منذ سنوات. وهذا يذكرنا بما رواه البروفيسور مودي عن تلك السيدات اللاتي ذكرن ملاقاتهن عند لحظات الموت أرواح لأشخاص مقربين يعرفونهن.

ويؤيد الدكتور 'كولن ولسن' هذا الرأي، بالقول:- (أصدرت الدكتورة سيليا جرين رئيسة معهد السفورد للبحوث النفسية الطبيعية نداء عامًا سنة 1966 للتعرف على حالات التواجد خارج الجسد، وتلقت أكثر من أربعمائة رد على ندائها، ثم نشرت نتائج دراستها الإحصائية عن تجارب التواجد خارج الجسد عام 1968. وتبين أن الشخص في معظم الحالات كان يجد نفسه خارج جسده الطبيعي، وعادة ما ينظر الى جسده من أعلى، كما كان هناك شعور بالانفصال الكامل كما لو أن الجسم ينتمي الى شخص آخر).[1]

في تساؤله:- (*من أين يأتي السامري "الذات الطيبة" المتأصل فينا؟*)[2]

---

1 ما بعد الحياة. كولن ولسن. صفحة 59.
2 صفحة 215.

ذكرنا أن الانسان مخلوق روحاني في جسد مادي . ومن طبائع الروح الرفعة والسمو، وبذلك تتوافق معها صفات الأخلاق الحسنة والأفعال الطيبة. أما الجسد فطبيعته مركبة من عناصر تربة الأرض، وهذا يدفعه للتفاعل مع كل ما هو مادي، أي أن حالة الطبيعة تتمثل في كل ما يتعلق بجسد الانسان. لذلك فهو يشابه الحيوان في حياته الجسدية، فيأكل من موارد الطبيعة، ويرتاح وينام من عناءها، ويتعامل مع الأشياء بما يتوافق مع مادة جسده، لذا فرغبات الجسد المادية بتمامها تدفع الانسان للالتصاق بأمه الطبيعة. وبهذا لو بقي متمسكا بها وباحثا عن ملذاتها دون تلبية رغبات روحه المعنوية، فلن يختلف في وجوده شيئاً عن كائن الحيوان. وقد قال اسبينوزا:- (الانسان في الموقف الطبيعي لا يعيش إلا طبقًا لقانون الشهوة.)[1]

لذا فطالما كانت صفات الرفعة والسمو والعلو ملازمة للروح البشرية، فهي تبتغي دائمًا الرقي بقرينها الجسد المرتبطة به . لأن الرغبات الجسدية تسحب الانسان الى الالتصاق بشؤون الطبيعة، أي باحتياجات الجسد الموجودة على الأرض، بينما شأن الروح هو المحافظة على رقيها ورفعتها ، لكن ما يعيقها ويمنعها عن تحقيق ذلك بالشكل المطلوب أنها حبيسة الجسد فتتأثر برغباته المادية، وليس هناك سبيل لتحررها من سلطته القوية إلا بتبني مبادئ الأخلاق والقيم والصفات الحسنة المتأصلة في روح الأديان؛ فالطبيعة ليست مصدرًا للأخلاق إطلاقاً، لأنها لا تملك مبادئ أخلاقية أو صفات طيبة أو تعامل إنساني سامي (فاقد الشيء لا يعطيه)، بل تدعو على الدوام للالتصاق بصفاتها لتظهر بذلك من تصرفات حيوانية، مثل الحرص والحسد والجشع والتنافس والقتال وكل ما يشبع متطلبات الرغبات

1 اسبينوزا. صفحة 99.

الجسدية. لهذا كان مصدر الترقي الروحي هو شأن صادر من خارج حدود مكونات الطبيعة المادية ولا يمت لها بصلة، وليس هناك في الوجود أمر لا علاقة له بالطبيعة المادية إلا المعنويات والغيبيات والضمير والأخلاق التي مصدرها غيبي جاء بها الأنبياء من عند الله تعالى. ولأن قوة جاذبية حاجات الجسد المادية شديدة وعنيفة، ولأن قوة الجذب الروحاني معنوية وضعيفة التأثير، لذلك يعاني الانسان العاقل أو المؤمن أو الشريف بشدة من هذه الازدواجية ويجاهد في محاولاته للبقاء على درجة الايمان والأخلاق والنزاهة والصدق والرحمة وبقية الصفات الحسنة، بينما يبقى - في نفس الوقت - شاعراً برغبات جسده المادية محاولًا على الدوام لجم حيوانيته الشرهة. لذلك نجد أن من يركز اهتمامه على تلبية متطلبات شؤون جسده ويعتبره أصل وأساس الحياة ولا غيره، ولا وجود للروح أو العالم الآخر، يكون سريع التخلي عن مبادئه الأخلاقية عند أول اختبار حرج وينافس غيره بدافع الأنانية بكل وسيلة ممكنة - أخلاقية كانت أو غير أخلاقية، مشروعة أو غير مشروعة - لا يردعه وازعٌ ولا ضمير؛ كما أنه يتميز بعلاقات عائلية مفككة خالية من المحبة والحميمية مستعد للتخلي عن واجباته تجاه أقرب ذويه لا تهزه مصائب الآخرين وبلاياهم ويمر عليها دون اكتراث. أما إذا قرر عدم الاهتمام بالأخلاق والروحانيات، وظنها مجرد مشاعر لا قيمة لها يمكن الاستغناء عنها وقتما يشاء، فسوف لن يعاني من هذا الصراع الذاتي، ويستسيغ مجاراة رغبات جسده، حيث أن قوة الروح لديه ضعفت وقاربت على الاستسلام لقوة الطبيعة. لذلك لا غرابة عندما لا يشعر بقوة روحية داخله، أن يستنكر بسهولة كل ما يتعلق بها من مشاعر الأخلاق والروحانيات ، ويبقى ينحدر مع مشاعره المادية ويفرح بمباهج الحياة حتى يصبح مادياً تمامًا كما هو حال بقية المخلوقات الدانية.

وخطورة هذا السلوك الأناني المادي تتمثل في استجابة مثل هؤلاء لتلبية شرور أنفسهم ونداء الاصطدام والتعارك والكراهية بل والمشاركة برغبة حيوانية شرسة في الحروب الظالمة ضد الآخرين، مما يساهم بدوره في بعث نزعة عدوانية مشابهة لدى الآخرين للدفاع عن النفس وبالتالي يبدأ انحدار أخلاقي عام داخل المجتمعات.

فهذا الانسان الطيب "السامري" الموجود في نفس الانسان، لم يأت ذاتيًا بنفسه من اللا مكان، بل وُجد من تربية روحية مخزونة وعميقة منذ وجود الانسان على الأرض وعانى في تربيته جميع الآلهة والكهنة والأنبياء ورسل الله تعالى ليحرروه من ربقة عبودية رغبات الجسد التي لا انفكاك عنها حيث تبقى تحاول سحبه الى مستويات دانية حتى آخر لحظة، والسبب هو التصميم الثنائي في خلقة الانسان (الروح والجسد)، وهذا ما يطلق عليه في التعابير الدينية (اختبارات أو امتحانات إلهية). إن الهدف من هذا التشادد والتضادد، هو مكافأة من يستطيع مقاومة رغبات جسده، (حيث يطلق على هذه الرغبات الدنيوية في المصطلحات الدينية "شيطان أو إبليس"). فالاستجابة لها، هي مخالفة لسمات الروح السامية التي هي خلقة إلهية تحاول الرقي والإفلات من رغباتها المادية، وبالتالي تكون هناك مكافأة إلهية لمن يتمكن من تحييد رغبات جسده والسمو بأخلاقه وأفعاله الى ما دعا له الأنبياء والرسل، فالإنسان مخيّر أن يسلك سبيل الخير أو طريق الشر. وكثيرًا ما يعد الأنبياء الانسان بعالم خلود الروح (الجنة). ومثل هذا المفهوم يعجز الانسان الملحد عن تصديقه، لأنه لا يصدق بالأديان أصلًا.

وبالمناسبة، إن فكرة وجود "الشيطان" ككائن يوسوس في صدور الناس ويغريهم لارتكاب أفعال الرذيلة والشرّ ويتواجد مع كل إنسان في كل وقت ومكان، هي فكرة وهمية قديمة قِدم التاريخ، ساعد

ترسخها في الأذهان ما جاء من ذكرها في قصة النبي آدم حين وجوده في "الجنّة"، والتي هي قصة رمزية بمعاني متعددة، أكثر من كونها قصة حقيقية، خاصة وأن أحداثها الظاهرية كما وردت تفاصيلها، لا تتفق مع العقل والمنطق السليم ولا مع حكمة العقل الكلّي الإلهي ولا مع اطلاعه على غيب الأمور.

فالرأي بهذا الخصوص، أن الشيطان هو مجرد "فكرة" لا أكثر ولا أقل، أوجدها الآلهة أو الأنبياء قديمًا لصعوبة شرح وتبيين علاقة النفس الأمارّة بأفعال الشرور، بسبب بدائية الناس وجهلهم وانتشار الأميّة وعدم معرفتهم القراءة والكتابة، فكانت طريقة سليمة وسهلة وفعالة يمكن للبدائي تفهمها وتقبلها، وبالتالي الحذر منها والابتعاد عن ارتكاب أفعال الشر والجريمة باعتبارها وساس شيطانية. أما اليوم، وبعد دخول البشرية عصر الأنوار، فلا بد وأن ننظر لمفهوم هذا "الكائن" أن له معنى آخر أكثر تعقلًا، وهي النفس الأمارة بالسوء حينما تخلو من التربية والفضائل ومن الأخلاق الحسنة الطيبة، فبخلوّ النفس من هذه الصفات والمزايا الحسنة كان لا بد للعقل أن يتوجه للتفكير نحو الأمور السيئة والدانية وينجرف لارتكاب أفعال مخالفة للأخلاق والذوق العام، وبالتالي الجرأة على ارتكاب ما يدينه المجتمع ومبادئ العرف والتربية.

وبهذا نجد حلًا عقلانيًا لمفهوم الشيطان وسرّ تواجده، وكيف يتواجد مع كل انسان في كل وقت وفي كل مكان يغريه ويضله ويوسوس له، لأنه النفس الأمارة بالسوء التي تلازم كل انسان في كل مكان وفي كل وقت.

وما يجلب الانتباه أن مفهوم الشيطان بصورته ومزاياه القديمة، لم يقتصر على عوام الناس فقط، بل ونجد كثير من العقلاء يؤمنون بوجوده، منهم على سبيل المثال أن رينيه ديكارت وهو من أعظم

فلاسفة عصر التنوير في أوروبا وكذلك عدد من أقرانه، فيتناول شخصية الشيطان وكأنه حقيقة لا جدال فيها ويضعها في الحسبان في تحليلاته الفلسفية، مما يدل بالضرورة على حاجة البشر الدائمة - مهما ارتقى تفكيرهم - لجديد الأفكار المتطورة حتى بمستوى فلاسفة عظماء، قال:- (سأفترض أن شيطانًا خبيثًا ذا مكر وبأس شديدين قد استعمل كل ما أوتي من مهارة لإضلالي... ولكن قد يوجد شيطان ماكر لا يكف عن إضلالي . فليضلني ما شاء، إنه إن يخدعني ، فأنا موجود.).[1]

ونعود للقول: إن حقيقة "الشيطان" هي مجرد "فكرة" تحتل عقلية الانسان ونفسه حينما تخلوان من مبادئ التربية الحسنة والأخلاق والفضائل وبالتالي تدفعه لارتكاب أفعال الشرور. وهذه الفكرة لا تخالف في مفهومها على الاطلاق وبأي شكل من الأشكال مبادئ الأديان ومفاهيمها وقدسيتها ، بل على العكس، تزيد الأديان ايضاحًا وتجليًا وتقربًا الى العقل السليم ، والأهم من ذلك تبعد ما ينتشر في العقول من أن الله تعالى خلق هذا الكائن الشرير الذي يفسد البشر وينافسه في السيطرة على عباده.*

نعود لأصل الموضوع؛ ليس من السهل محاولة إقناع الملحد بفكرة وجود الله تعالى وأنه أوجد هذا النظام الطبيعي وقانون (الانتخاب الطبيعي) التي يقول بها دارون و دوكنز وغيرهما، ولا يمكن إقناع من يتعمد الإصرار في البحث عن سبب آخر، حينما يتخذ المادية مبدئًا له يريد التخلص بها من فكرة الغائية (وراء كل سبب مسبب) بأي وسيلة ممكنة ويتشبث بأي عذر مهما كان واهيًا أو غير ممكن للابتعاد عنها بعدما شاهد نتائج تصرفات العقائديين المتعصبة

1 ديكارت. صفحة 80-86.

وضعف الفكر الديني القديم وانزواءه عن ساحات التنافس مع العلم . وبذلك فمن الطبيعي أن يعلو صوت الملحد في اغتنام هذه الفرصة "المؤقتة" ويكون له صدى عال كلما أضاف العلم اختراعا جديداً، لكنه صدى منفرد يعتمد في أساس وجوده على اختفاء صوت الجانب الديني وتلاشيه .

إن القول بتطور الموجودات طبيعياً ، أمر لا مراء فيه ، فكل مشهود يتطور وينتخب من الطبيعة ما يطور جسده ويقويه ويمد في عمره، فهذا ليس تطور فوضوي إنما هو تطور طبيعي تحت نظام محدد دقيق، ولا يعقل انبعاثه ذاتياً من تفكير مسبق للطبيعة أو النباتات أو الأشياء الجامدة ، حيث لم يثبت ولا يعقل إذا تركت شجرة تين لمليون سنة تبدلها الى شجرة برتقال، (هل يجتنون من الشوك عنبا، أو من الحسك تينا؟)[1] ولا يعقل إذا تركت خشبة لملايين السنين أن تتحول بفعل الانتخاب الطبيعي الى شجرة أو قارب، بل سيبقى كل شيء على حالته يتطور علوًا ودنوًا في مجال حدود طبيعته.

لكن قد يصح القول بحصول عملية التطور للكائنات في بداية وجود الأرض، حيث لم يكن هناك لا شجرة تين ولا بقر ولا بشر، ومن ثم تطورت وانبثقت جميع الموجودات من داخل رحم أديم سطح الأرض بفعل القوة الكيمياوية الخلّاقة التي أوجد الخالق أسبابها في عناصر تربة الأرض ، إذ من المستحيل حلول روح الحركة والحياة بالمواد الجامدة والميتة دون سبب أو مصدر خارجي . وبهذا تصح نظرية الانتخاب الطبيعي ونظرية التطور، بعدما تبدلت وتغيرت أشكال مكوّنات عناصر تربة الأرض في حدود مجال أنواعها وأجناسها الى مخلوقات حيّة بأرواح مع مرور ملايين السنين.

---

1 إنجيل متى 16:7.

سبق وذكرنا أن التقدير الإلهي في تكوين تربة الأرض كان انتخاباً مقدراً حيث لا يمكن لعقل بشر أن يتصور حجم الكون ولا حجم ما فيه من أنواع الصخور والأتربة والغازات في جميع الكواكب، كما لا يمكن تصور درجات الحرارة والبرودة وسرعة حركة السديم ومجريات التفاعلات الكيمياوية التي حدثت لتربة أرضنا؛ وقلنا أنه كان مقدراً لسديم كوكب هذه الأرض أن يتكاثف ويتفاعل كيمياوياً بفعل حرارة الشمس والحركة المستمرة في الخلط والتمازج مما نتج عنه موجودات حيّة ، وكل ذلك كان بتقدير مقدّر وبنفحة روحية إلهية خلّاقة في الأشياء بَعثت فيها روح الحركة. لقد كانت عملية كيمياوية مقدّرة الحدوث لمرة واحدة كي تظهر الموجودات والمخلوقات؛ وهذا يعني أن عملية الخلق على سطح الأرض كانت مقدّرة مسبقًا وانتهى زمنها ، وبهذا ففكرة الانتخاب الطبيعي في التطور قد تكون صحيحة حتى في بداية طريقة تجمع سديم الأرض، لكن ذلك التطور الطبيعي الذي ساهم في إيجاد المخلوقات الأرضية نفد ونضب وانتهى عند إتمام أداء دوره ولن يتكرر ، ولم تعد تربة الأرض صالحة للتفاعل مرة أخرى ، أي قد تمَّت وكملت مسببات وجود المخلوقات وانتهى دورها ، مثلها مثل مواد كيمياوية وضعت في بوتقة مختبر فتفاعلت لتنتج مادة جديدة بعد أن استهلكت خواص قوتها وفاعليتها ولم تعد تصلح لإنتاج مواد أخرى . لقد تبدلت خواصها حال انتهاء تفاعلاتها.

وبهذا يكون السيدين دوكنز وداروين قد تقربا من طريقة بداية الخلق والإيجاد، لكنهما لم يجعلا لتدخل الإرادة الإلهية شأن في ذلك، حينما قال الأول:- *(وما نعلمه حتى الان، باعتباره حقيقة، أن كل ما*

هو حيّ – كل انسان، كل تمساح، كل شحرور، كل شجرة... قد يتطور من أشياء أخرى ، أساسا من أشكال أبسط).[1]

إن الاحتمال الوارد في عملية الإيجاد الأولى، هو أن الخلايا الأحادية تقاربت وتآلفت واندمجت وتفاعلت مع غيرها لتشكل كل مجموعة لوحدها كيانات متفرقة عديدة متشابهة في الخصائص، تطورت وتكاثرت ذاتيًا بفعل الحرارة لتوجد مخلوقات بأنواع متقاربة في الخاصيات لا تشابه غيرها من بقية الموجودات، وكان ذلك سببًا في تعدد أنواع المخلوقات الى عشرات الألوف من الأصناف . نعم من الوارد أن حصل تطور وتحسينات في أشكالها وهياكلها الخارجية فاختفى منها أو نمى لبعضها بعض الأجزاء كالأسنان والمنقار أو الذيول أو الرياش أو الحراشف، أو قد كان للحيّة أقدام واختفت لعدم حاجتها لها، ومنها ما نمى لها أجنحة أو غير ذلك من الأعضاء، لكنها جميعا بقيت من ذات الأصناف وذات الأنواع ولم يتبدل القط الى أسد والذئب الى كلب والدجاجة الى طاووس... وهلم جرًا.

قال:- *(إن الطريقة البديهية للمورثات لضمان "أنانيتها" البقائية في علاقتها مع المورثات الأخرى هو أن تُبرمج الكائنات لتكون أنانية. وهناك بالطبع العديد من الظروف التي يقتضي فيها بقاء الكائنات من أجل بقاء المورثات التي تملكها).*[2]

يبدو أن السيد دوكنز نسي ما سبق ونسبه للموجودات في استعمال صفة الإيثار المخالفة لصفة الأنانية . صحيح أن الموجودات قد استعملت صفة الأنانية في بداية ظهورها في حدود مجالها لتحسين نوعها وتطوير ذاتها والعمل على انتاج تفرعات وأجناس حيّة مختلفة أخرى، لأن عملية الخلق كانت مستمرة لملايين السنين ولم تقتصر

---

1 دوكنز. سحر الواقع. صفحة 23.
2 صفحة 216.

على ظهور أولى مجموعات النبات من التربة، بل الى تطوير أنواعها وصفاتها بفعل تطور عملية التفاعل فيما بين الموجودات واستمراريته، فكان أن ظهرت أنواع أخرى من النباتات ومن ثم ظهرت أنواع حيوانات مختلفة كل مجموعة على حدة بصفاتها الخاصة، وهذا نوع آخر من تطور ذرات التربة أوجد التنوع والاختلاف بين الأجناس، أي ان الإيجاد كان في الأصل من تفاعل ذرات التربة فيما بينها ومن ثم ظهرت الكائنات الرئيسة الأولى، ومن هذه التفرعات ومن أصل تفاعل ذرات التربة استمرت حالة الإيجاد على نمطين، الأول استمرار التربة في إعطاء مزيد من مختلف أنواع المخلوقات النباتية والحيوانية الجديدة ، وفي نفس الوقت كانت المخلوقات الأولى تقدم أنواعاً وأصناف جديدة متطورة من ذات المخلوقات المتشابهة التي وجدت . لكن كل ذلك كان بفعل برنامج منظم من خبير عليم بالنتائج المرتبة مسبقاً وليس بالتطور العشوائي ذاتيًا أو بالانتخاب الطبيعي التصادفي. فأمر العشوائية والصدفة وتعقّل الأشياء لذاتها لإيجاد أصناف مخلوقات معقدة التركيب جديدة حيّة بفعل التوافق التصادفي العبثي، أمر محال. أما من ملَّت أنفسهم وعفّت عن فكرة المعتقدات والأديان القديمة بعدما شوّه صورتها تصرف أتباعها ورجال أديانها الى درجة كراهية العلمانيين للدين وأتباعه بل ولذات الله تعالى ، دفعهم للتفكير في إيجاد وسيلة أو فكرة مختلفة مهما كانت خاطئة وغير سليمة لتأييد كراهيتهم.

يقول:- *(من الضروري أن نركز على الكلمات الصحيحة)*.[1]

عندما زاد استغرابي من استعمال دوكنز لكلمة "الإيثار" altruism[2] لتوضيح طريقة التطور الطبيعي بدلا من كلمة

1 صفحة 215.

2 أنظر الفصل السادس في النسخة الإنجليزية.

"الأنانية"، عدت الى أصل الكتاب بلغته الإنجليزية للتأكد من عدم حصول خطأ في الترجمة ، فوجدتها صحيحة ومكررة لعدة مرات في الفصل السادس؛ وبهذا يكون هناك احتمالين، فإما أنه يجهل معنى كلمة الإيثار، أو أنه تقصَّد استعمالها تعسفًا لتدعيم فكرته.*

في محاولته لشرحَ مبدأ "التعاون من أجل البقاء"، ضرب أمثلة فردية نادرة وغريبة من عالم الحيوان والطيور، مؤكدًا ضرورة التركيز على استعمال الكلمات الصحيحة للتعبير عن المطلوب اثباته؛ لكنه بقي يستعمل بدلها، عبارة (الإيثار المتبادل) في محاولة للبرهنة على دعم فكرة نفي وجود الله باستخدام نظرية التطور الطبيعي؛ وهذا يعني تبنّي فكرة التطور والإيجاد الذاتي للموجودات استنادا الى فكرة الإيثار المتبادل، التي نسبها الى مشاعر الأنانية التي تملكها المخلوقات في محاولتها للبقاء واستمرار وجودها.! لكن مفهومي "الإيثار و الأنانية" متناقضين و متضادين تمامًا، فالإيثار هو تفضيل الآخر على النفس، بينما الأنانية تفضيل النفس على الآخر. وهذا ينسف ما جاء به في هذا الباب، فلا الحيوانات ولا الطيور ولا النباتات تتعاون بدافع الإيثار فيما بينها، ولا تُؤثر الآخر على نفسها إلا في حالات نادرة لا يمكن اعتبارها قاعدة عامة.

إلا أنه هناك تفسير آخر لا يخرج عن نطاق تدخّل ترتيب الموجد الأعلى وتنظيمه. فهذه الحالة من "التعايش بين الموجودات" - وليس التعاون - قد ظهرت من أصل واحد، أي من تربة معدَّة أساساً للإيجاد. فروح رغبة التعلق بالوجود، أوجدت روح التعايش بين الموجودات ، فكل كائن اعتمد في غذائه على وجود كائن آخر مثل عمليات افتراس الحيوانات لبعضها ، إنها صفة تعايش طبيعية متأصلة في جوهر عملية الإيجاد والوجود وليست عملية أنانية ، فمنذ بداية ظهور الكائنات وهي تتغذى على بعضها لا يمكن اعتبارها

نوعاً من أنواع العداء والكراهية. فهذه المخلوقات لا تكره بعضها، بل تدفعها الغريزة لتلبية متطلبات أجسادها في تناول ما يوجد في محيطها ، ورغم أن هذه الشراسة والعدوانية قد تفسّر كنوع من أنواع الظلم، إلا أنه في حقيقته نوع من أنواع التعايش بين المخلوقات، لأن الصفات الذميمة تظهر نتيجة مخالفة النظام الطبيعي في أصل الخلقة، بينما لا تفعل الحيوانات والنباتات ذلك بسبب كراهيتها لبعضها، فأصل علاقتها ببعضها، يستند على نظام التعايش، وبذلك يكون افتراسها لبعضها أمر طبيعي في حدود قانون الطبيعة و"التعايش من أجل البقاء" يستمد دواميته من توازن بقاء المخلوقات.

وعندما يقول السيد دوكنز أن "الإيثار المتبادل" ساهم في إيجاد واستمرار موجودات الطبيعة ، نسي أن بمجرد تبنّيه فكرة المادية والانتخاب الطبيعي غير العاقلة ، يؤدي الى ظهور صفة الأنانية المخالفة لصفة الإيثار ، وبالتالي تأصلها داخل نفوس المخلوقات. وطالما يقع الانسان ضمن إطار هذين القانونين - حسب المفهوم المادي - رأينا كيف ظهر الاعتقاد الخاطئ بأن الأنانية والانتخاب الطبيعي إنما هي عوامل ومشاعر طبيعية راسخة في النفس البشرية لا يمكن تجنبها، وبالتالي كان للأشرار حجّة في تبرير أفعالهم متعذرين بوجود وساوس شيطانية وصفتيّ الخير والشر داخل النفس البشرية منذ أول وجودها، فكان من نتائج ذلك، تبني كبار عتاة مجرمي التاريخ تفضيل أنفسهم وشعوبهم أو جنسهم على غيرهم من بقية البشر، وبالتالي تبرير عمليات الحروب والإبادة والقتل الجماعي كحالة استجابة طبيعية لما في النفس البشرية من شرور ووساوس شيطانية. فما كان من كل ذلك الإجرام الحيواني الشنيع، إلا لاستنادهم على الفهم الخاطئ لفكرة "الأنانية" التي حاول السيد دوكنز تجميلها واستبدالها بمفهوم "الإثرة" والى مفهوم "الانتخاب الطبيعي" غير

العاقلة والعمل بقانون البقاء للأفضل والأقوى. وبهذا، فمن الضروري للإنسان الابتعاد عن هذه المفاهيم البائدة كي يرقى ويبتعد عن التمثل بشراسة الحيوانات الكاسرة ، لأنه المخلوق العاقل الوحيد وباستطاعته مخالفة نظام الأنانية الطبيعي لخلق عالم محبة وتعاون وسلام.*

قال:- *(معظم الوقت فيما قبل التاريخ عاش الانسان في ظروف تقتضي تفضيل مناحي الإيثار ... من أجل التطور).*[1]

يتفق علماء التاريخ والانثروبولوجيا، إن انسان ما قبل التاريخ كان مخلوقًا غير واعٍ جلَّ اهتمامه تلبية حاجات جسده دون الاهتمام بغيره ، لأن مَلكة الضمير والوعي والرغبة في التعاون ظهرتا في وقت لاحق طويل من وجوده . كما أن جميع الأنبياء وغالبية الفلاسفة في العصور القريبة دعوا البشر الى التعامل بطريقة (أحب لغيرك ما تحب لنفسك . أو عامل غيرك بما تحب أن تُعامل به)، وهذا يعني من جهة أخرى، ارتباط ظهور الصفات الحسنة في النفس البشرية بعد أن تعلمها من مصدر خارجي وهو المعلم. لذا فليس من المنطقي الظنّ إن انسان ما قبل التاريخ كان يُؤثر غيره على نفسه، بمعنى تفضيل الغير على الذات . دليل ذلك ما أوضحه تاريخ الانسان حتى وقت قريب أنه كان يأكل أبناء جنسه بمجرد اشتداد حاجته الى الطعام، كما أورد كتاب قصة الحضارة مثالا على ذلك:- (ثم أضاف الانسان الى صنوف الطعام صنفاً آخر كان ألذّها وأشهاها، وهو زميله الانسان، ذلك أن أكل اللحوم البشرية كان يومها شائعاً بين الناس جميعا، فقد وجدناه في كل القبائل البدائية تقريباً، كما وجدناه بين الشعوب المتأخرة تاريخياً مثل سكان إيرلندة وإيبريا وجماعة

1 صفحة 220.

البكت، بل بين أهل الدانمارك في القرن الحادي عشر... كان اللحم البشري من لوازم العيش بين قبائل كثيرة ولم يكن الناس يعرفون الجنائز).[1]

إن رغبة الانسان في التملك واستحواذ كل ما يغريه أو يساعده على تلبية متطلبات جسده ما زالت حتى اليوم قوة فاعلة في نفسيته ، ولا نجد صفة الإيثار إلا نادرًا عند من زهد الحياة الدنيا ؛ لذلك لا يُعقل امتلاك الانسان البدائي مَلَكة الإيثار وهو في بداية وجوده المادي، ناهيك عن الحيوانات، لأنها فكرة معنوية أصلها من الأخلاق وليس من المادة ، أي ليست من المحسوسات ، إنها ملَكة رفيعة سامية لا تجود بها الطبيعة، فحاجة الطعام والجنس من أقوى حاجات الجسد تجبر الانسان والحيوان على تلبيتها وتتحكم بتصرفاته منذ قديم الأزمنة . لذلك كان الله تعالى يبعث الآلهة والأنبياء منذ بداية وجود الانسان لكبح جماح هذه الرغبات الجسدية حتى يسمو بمخلوقه المفضل ويرفع من شأنه الأخلاقي والروحي ويعلمه صفة الايثار التي لم تنضج بالشكل المأمول في النفس البشرية حتى اليوم. وكما قال ساغان في رؤيته لعظمة سبب وجود الانسان:- (إن أكثر الاختبارات بدائية للسماء تكشف عن أننا متميزون، فالكون يبدو مصنوعا من أجل البشر. ويصعب التفكير مليا في هذه الظروف وتأملها دون المرور بخبرة الإثارة المصاحبة للشعور بالافتخار والوثوق. إن الكون بأكمله مصنوع من أجلنا! إذن لا بد أن نكون بشرا مهمين حقا).[2]

أما أن ينسب دوكنز صفة "الإيثار" الى الانسان القديم ويعتبرها صفة متأصلة في وجوده ويضرب على ذلك مثلا بتصرفات أحد

---

1 قصة الحضارة. ويل ديورانت. المجلد الأول. صفحة 11.
2 كوكب الأرض. كارل ساغان. صفحة 28.

أنواع الطيور تاركًا عشرات آلاف الأنواع من بقية الحيوانات، فلا يمكن تسميته إلا نوعًا من المغالطة ومحاولة لتشويه صفة الإيثار وإعطاءها معنى مخالف. فالقول أن الانسان القديم امتلك هذه الصفة، هو ضرب من ضروب الخيال والتجاوز العلمي، لأن الانسان لا يكتسبها إلا من خلال التربية والتعليم.

إن طبائع الانسان البدائي القديم كانت حيوانية، وإذا أردنا أن نلطّف من وصفها، نقول انها كانت مماثلة لتصرفات طفل رضيع حينما يرفض مشاركة طفل آخر ثدي أمه أو لهايته (مصاصته)، مستعينًا بما في استطاعته من صراخ وبكاء في التعبير عن أنانيته ورفضه لدخيل يتقرب منهما.

أما أن نجد في الوقت الحالي أشخاصاً أو مجموعات من الناس لا تؤمن بدين وتأخذ بمبدأ الإيثار وتفضل مساعدة الآخرين على أنفسهم وتسعى لمواساتهم ، فما أصل ذلك إلا بسبب تلك القرون والأزمان الطويلة من التربية والتعليم الروحي التي جاهد الآلهة والأنبياء على ترسيخها في عقول ونفوس البشر ، فكان لا بد لهذا الجهد من أثر وثمر تطفو قمته على السطح ذات يوم. وها هو "دوكنز" ومناصري فكرته يحاولون تجيير نتائج مساعي هؤلاء الفضلاء في ترسيخ فكرة الإيثار لصالح فكرة الالحاد بشكل قسري وبمحاولات مشوّهة بالقول أنها أصيلة في النفس البشرية . إن ما يفعله المحسنون من أعمال خيّرة لمنفعة الآخرين أو حين يؤثرون الناس على أنفسهم وبهم خصاصة ، إنما هي من ثمار تلك التعاليم الروحية الإلهية المستمدة أصلاً من تربية وتعاليم الآلهة والأنبياء.

قال:- *(الانتخاب الطبيعي في زمن الأسلاف عندما كنا نعيش في مجموعات جوالة كالبابون، برمج في عقولنا الميول الإيثارية الى جانب الجنسية والجوع والخوف من الأجنبي.. الخ.)*.[1]

نلاحظ هنا الخلط الواضح بين متطلبات حواس الجسد ومَلَكات النفس، فالجنس والجوع متطلبات جسدية مادية رافقت وجود الانسان منذ وجوده، بينما الخوف هو حالة نفسية معنوية.

ثم يزيد في الخلط الى درجة غير مقبولة، حيث يقول: - *(وانا **أقترح** هنا أن الحاجة والدافع هو نفسه بالنسبة للّطف والطيبة والإيثار والكرم والتعاطف والرأفة... ولماذا لا؟ أنها كالرغبة الجنسية.)!*[2]

إن جميع ما جاء على ذكره هنا من مشاعر وصفات حسنة، تقع في باب المعنويات وليست من الماديات في شيء، فطالما لا يمكن استعمال حواس الجسد في التعامل مع هذه المَلكات ، فهي إذن مشاعر معنوية نفسية أو فضائل روحية، حيث لا يمكن رؤية أو لمس صفات اللّطف والطيبة والإيثار والكرم والتعاطف والرأفة بمجرد النظر الى الشخص ، إلا إذا ترجمت الى أفعال وتصرفات . أما تشبيهها بالحاجة الجنسية للجسد، فهو خطأ كبير غايته نفي رغبات النفس المعنوية والتركيز على المفاهيم المادية ؛ وبالتالي نفي وجود الروح.

يقول:- *(**لو** أن ميولنا الأخلاقية مثلها مثل ميولنا الجنسية متجذرة فينا بسبب ماضينا الداروينـي قبل دخول الأديان على الساحة، فعلينا أن **نتوقع** أن البحث في العقل الإنساني سوف يرينا بعض الأخلاق عالمية وليس لها حدود جغرافية او ثقافية، وكذلك، بلا حدود دينية).*[3]

---

1 صفحة 221.
2 صفحة 221.
3 صفحة 223.

هذا هذيان يتجاوز الخيال ولا يليق بكتاب علمي عند استعماله كلمة التمني (لو)، وسبق أن أثبتنا أن الأخلاق لا تظهر عند الانسان إلا بالتعليم. ومن الضروري ضرب مثال عن تدرّج حياة نشوء الانسان وكيف كانت مجريات حياته لتوضيح صورتها . ففي أول أسابيع وشهور الولادة يعتني الوالدين بتنمية جسد الطفل والحفاظ عليه، وفي أولى سنيّ حياته ونعومة أظفاره يبدئان بزرع مبادئ الأخلاق في نفسه وتنمية عقليته وأهمية التمييز بين الصواب والخطأ. وأخيرًا تأتي مرحلة البلوغ حيث تظهر حاجته الجنسية.

لكن هذه المراحل تتبادل مواقع ترتيبها ومُددها في حالة تطور الجنس البشري بشكل عام ، فمرحلة الطفولة الأولى للاعتناء بجسده اختفت آثارها في عمق التاريخ السحيق ولا قدرة للعلم أو العقل البشري اليوم ولا للآثار المادية الباقية كشف شيء منها؛ ثم إن مرحلة أحاسيس الميول الجنسية كانت موجودة منذ أول وجود الانسان ، وإلا كيف استمر على البقاء، بغض النظر عن طريقتها. بهذا تكون مرحلة اكتساب مبادئ الأخلاق قد جاءت لاحقا حينما كبر طفل البشرية واستعد ذهنيًا بشكل مناسب لتقليدها ولاستقبال نصائحها وفهمها، وبما أن الانسان عاجز عن تعليم نفسه مبادئ العلوم أو مبادئ الأخلاق ، وبما أن البشر جميعًا كانوا في ذات مستوى الادراك والوعي البدائي آنذاك، لذا كان لا بد من وجود معلم أعلى وعيًا وأرقى مرتبة أخلاقية ليعلم الانسان هذه المبادئ السامية، ولم يكن هناك إلا الآباء والأجداد والشامان والآلهة القديمة للقيام بهذا الدور، فهم المعلمون الأوائل.

بهذا تكون الميول الجنسية قد ظهرت لدى البشر قبل ظهور الأخلاق والوعي والضمير التي لم يكن للإنسان العادي قدرة على تعلمها أو استنباطها من ذاته باعتبارها أمور معنوية ليس له سبيل

لنيلها . وبهذا كان لا بد من معلم فوقي ليكتسبها من عالم الغيب وينقلها إليه عن طريق المنامات والرؤى والأحلام والإيحاء.

وبعدما خلط الدكتور دوكنز الرغبات المادية الجسدية مع الملكات المعنوية والنفسية واعتبر الاثنان رغبات جسدية ، حاول تقديم أفكاره مفترضاً استنادها على قاعدة علمية ظنّ أنها ثابتة ، لكن وبمجرد توضيح الفرق بينهما، ينهار عمود آخر من أساسات فكرته. فحينما يفترض وغيره ، أن هناك زماناً لا وجود للدين فيه وأن الأخلاق قد سبقته ، فهذا أمر بعيد عن المنطق، لأن الأخلاق أمر معنوي لا تنبع من فكر الانسان الذاتي - وخاصة البدائي - إذ لا بد من معلم لها ، إضافة الى أن علماء الأجناس والحضارات والتاريخ أثبتوا وجود الدين في آثار البشر عند أقدم المجموعات البشرية، ومهما تعمق العلم في بحثه، فلن يصل الى تلك المرحلة التاريخية التي خلت من وجود طقوس الأديان، بسبب عمق تاريخها السحيق واختفاء آثارها . ورغم هذا الظلام التاريخي ، فلا بد أن يكون ظهور الأخلاق صنوًا لظهور الآباء والشامان والآلهة، فالإنسان لا يتعلم من ذاته.

واستنادًا الى هذا البعد الزماني الغامض ، راح دوكنز يحاول تمرير فكرة افتراض أسبقية الأخلاق على الأديان، باعتبارها - حسب قوله - مرتبطة بوجود الجسد وليس بوجود الوعي المعنوي . وطالما أن الأديان تهتم بالناحيتين الجسدية والروحية، فرديًا وجماعيًا، فلا غرو أن كان الآلهة والأنبياء هم المعلمون الأوائل للاعتناء بالجسد والأخلاق، حيث يعجز الانسان القديم عن فهم أهمية الأخلاق إلا بعد تعلّم أهميتها، ولنا فيما يوجد من أحوال البدائيين الحاليين دليل على ذلك.

لو علمنا أن الانسان البدائي الأول لم يتمكن من الخروج والارتقاء من حالته الحيوانية الى المستوى الإنساني إلا بالتربية والتعليم، وأن هذان العاملان لا يأتيان من إنسان بصفات بشرية طبيعية عادية، لأدركنا أهمية دور الآلهة والأنبياء في تربية الانسان لتنمية الضمير من خلال زراعة مبادئ المُثل والأخلاق والفضائل في نفسه. فالإنسان في قدم التاريخ لم يمتلك إلا صفات حيوانية، وتلك المرحلة البدائية لم تحسن تصرفاته ولم تسمو بأخلاقه إلا بالتربية والتعليم، وهاتان الصفتان بحاجة الى معلم لزراعتهما، وبالتالي لا يوجد سبيل لوصل وربط هاتين الحلقتين (حالة الحيوانية وحالة سمو الأخلاق) إلا بقبول فكرة وجود معلم بصورة بشر مَلكَ روحاً سامية غير بشرية تمكَّنَ من خلالها تعليم الانسان الأول ما كان يصله عبر طرق الرؤى والوحي والمنام والإلهام . وطالما كان للبشر حضارات بدائية - مهما كانت نسبة مستوياتها بسيطة - فهذا يعني أنهم كانوا تحت رعاية وتعليم معلم فوقي ، أو كانوا على اتصال مع مجاميع بشرية سبقتهم الى الترقي بذات السبيل. وبهذا، فمهما تعمقنا في التاريخ البشري لا يمكن افتراض فترة زمانية خلت من تعاليم الأديان أو من تأثير وجود الشامان والآلهة والأنبياء.

إن صعوبة تقبّل هذه الفكرة كان الدافع لبعض المفكرين الماديين للظنّ أن انتشار الأخلاق والثقافات عند القدماء قد جاء من أصل بشري وأن باستطاعة الانسان تعليم ذاته، دليلهم في ذلك ان الأخلاق موجودة عند مختلف الشعوب البدائية وحتى الملحدين ، فاستنتجوا أن الضمير ومبادئ المُثل وفضائل الأخلاق منشؤها الانسان . وهذا افتراض مخالف لطبيعة قدرات الانسان الفكرية ، فكم من طفل عثر عليه في الغابات يعيش حياة حيوانية دون قدرة على الكلام والنطق والمشي ناهيك عن تصرفاته الشرسة . فالإنسان لا يفكر ولا يستنتج

أمرًا إلا بالتعليم . وعندما يقال ان الطبيعة هي التي أوحت بمبدأيّ (الصواب والخطأ)، فنعود للقول إن الطبيعة لا تملك إلا المظاهر والعوامل المادية التي ليس لها سبيل الى عالم المعنويات ولا الى عالم الروحانيات ليكون لها القدرة على التمييز بينهما . ففاقد الشيء لا يعطيه.

في الحقيقة هذا ما ابتغاه المؤلف حينما صنّف الضمير والملكات المعنوية تحت باب المادية الجسدية، فغرضه الحقيقي الإيحاء بعدم ضرورة الأديان ، بعدما افترض أن الأخلاق تنبع من داخل عقل الانسان أو من الطبيعة والماديات ، وإنها - حسب تعبيره - حالة عارضة، وبالتالي راح يمهّد للانتقال الى المرحلة التالية لنفي وجود الخالق. لكن مثل هذا الخلط "الهزيل" لا أظنه يمرُّ تحت أعين الحكماء دون الانتباه لهذا الزيف المطلي بمكر العلم.

قال:- *(لا تفكر ولو للحظة بأن دروّنة الأشياء يُقلل من قيمة المشاعر النبيلة والكرم).*[1]

إن نظرية دارون تستند في الأساس على مبدأ التطور المادي الطبيعي، وبذلك لا علاقة لها بالمشاعر المعنوية النبيلة أو الكرم. وما تحذيره هذا إلا بعدما حاول الاستناد الى الفكرة الواهية السابقة.

قال:- *(الرحمة لا تعرف القوة، بل تنهمر كالمطر اللطيف من السماء).*[2]

من أي مجال علوي تنهمر الرحمة، طالما يرفض الرجل وجود المَلكات الروحية ولا يؤمن إلا بالماديات؟ فإذا كان مقصده السماء التي فوق رؤوسنا - فحسب قول أحدهم - لا ينزل من السماء إلا الغبار والمطر والنيازك وذُرق الطيور. فهل شاهد شخص ما قطرات

---

1 صفحة 222.
2 صفحة 222.

رحمة تهطل من السماء؟ فالمفروض بصاحبنا الرسوّ على شاطئ محدد، فإما ماديات أو معنويات.

(لسنا بحاجة الى الله لنكون صالحين أو طالحين).[1]

يعيدنا هذا القول مرة أخرى الى موضوع السامري، وقد سبق وذكرنا أن الانسان في أول وجوده على الأرض كان ماديًا تمامًا مثل بقية الحيوانات، حتى جاء الوقت الذي بدأت فيه مَلكة الضمير والوعي تنمّى داخل الروح من خلال تعليمه الخطأ والصواب والحلال والحرام بمساعدة الآباء والأجداد والشامان والاستمرار على صقلها وتهذيبها. وبما أن هؤلاء الفوقيون ظهروا في كل مكان وبين كل تجمع بشري، كما قال اسبينوزا: (لا شك أن جميع الأمم كانت لها أنبياء).[2] لذلك توارثت البشرية مَلكة الأخلاق وفعل الخيرات والمبرات وأصبحت جزءًا من الشخصية البشرية بعد مرور عشرات الألوف من سنين الممارسة والتعليم. لكن مع توالي العصور والآماد نسي الانسان هذا المصدر الروحي بعدما اندثرت معالمه وبعد أن وصل لهذا الزمن المتطور وغرقه في الأفكار المادية. وبالتالي ليس للإنسان علاقة بإيجاد مَلَكة الضمير ومبادئ الأخلاق الحسنة، فهو في أساسه مخلوق مادي حيواني ليس له علاقة بالفوقيات والروحانيات ، وكل ما ناله من هذه المبادئ السامية حصل عليها من الآلهة والأنبياء.

تساءل:- *(لماذا أكون صالحًا إن لم يكن هناك إله)؟*[3]

إن مسألة اثبات وجود ذات الله تعالى من عدمه، أمر ممتنع مُحال لا يمكن للعقل البشري التحقق أو التأكد منه إلا من خلال التدقيق في

---

1 صفحة 227.
2 اسبينوزا. 173.
3 صفحة 227.

هندسة موجودات الطبيعة الإعجازية ، فالله غيب منيع لا يُدرك لا بالعقول ولا بالضمير ولا بالتأمل ولا بالتصوّر ولا حتى بالبصيرة النافذة . وطالما إن دوافع أفعال الانسان تأتي من مصدرين خارجي وداخلي، فلو نظرنا الى عملية التدرج التاريخي للأفعال الخيّرة، أدركنا إنها لم تأت من ذات النفس الانسانية البدائية، لأن الإنسان حريص بطبعه على إشباع رغباته الجسدية المادية قبل كل شيء ، وهذه الرغبات الجسدية الداخلية تدفعه لتلبيتها بكل الوسائل الممكنة، فإذا لم يكن هناك دافع الضمير الداخلي والقانون الخارجي المتمثل برجل القانون ليمنعه ويردعه عن تلبية جموح النفس، لكانت الفوضى قد عمَّت جميع المجتمعات البشرية . وبهذا فإن هذه المبادئ المترسخة في ضمير المجتمعات جاءت من مصدر خارجي، لأن الانسان لم يكن له علاقة بالمعنويات، فبمجرد كونه بدائيًا، فهذا يعني احتجابه وابتعاده المطلق عن الأخلاق والروحانيات. وهذا يدعو لاعتماد فكرة الآلهة والأنبياء باعتبارهم أصل ظهور صفات الأخلاق.

وبذلك يكون كل ما موجود من أحكام اجتماعية وصفات أخلاقية ومشاعر الضمائر بين جميع المجتمعات البشرية إن كانت عامة أو خاصة بالأفراد قد جاءت من تلك الذوات الحكيمة من آلهة وأنبياء وشامان وكهنة ورجال دين. وعندما أدرك القائمون على إدارة شؤون الناس من حكام وملوك أن ترسيخ دوام سلطتهم واستتباب الأمن وراحة المجتمع تتحسن بتطبيق هذه الأحكام ، اجتهدوا في تطبيقها لاستمرار أمن المجتمع. وطالما إن طبيعة الانسان تتجنّب العقاب الجسدي والحرص على سلامة البدن ، لذلك حرص على تطبيق أحكام القانون الاجتماعي. فمن الناس من ينسب هذا السلوك الحسن في الأصل الى مخافة الله تعالى أو طاعة أوامره أو أملا بالثواب الأخروي ، ومنهم من ينسبه الى مخافة العقاب الدنيوي؛ وبالتالي

يكون مصدر رغبة الانسان في أداء الأعمال الطيبة أو امتناعه عن ارتكاب الأفعال السيئة قد جاء في الأساس من مصدر خارجي وليس من ذات الانسان . فلو لم تكن هناك أوامر تمنع دوافع الأفعال السيئة داخل النفس وداخل المجتمع ، لارتكب الانسان ما يحلو له من أفعال شريرة مضرّة تجاه غيره، حيث لا قانون عام يمنعه ولا قانون خاص يردعه. وبذلك يكون جواب سؤاله: أننا صالحون لفائدة أنفسنا وعوائلنا وفائدة المجتمع والحفاظ على الأمن العام ، فلن يفيد الله صالح أعمالنا، ولن يضره شرورها. إن مستقر الفائدة النهائي في الأول والأخير هو للإنسان.

لقد أطال المؤلف ضرب الأمثلة على سوء تصرف البشر في الدول المتقدمة حين غياب رجل القانون، وتساءل: كيف يفعلون ذلك طالما هم مؤمنون بأديان؟[1] إن غالبية البشر يؤمنون بوجود خالق أو قوة غيبية بشكل من الأشكال، ومع ذلك يرتكبون السيئات حينما تسنح لهم الفرص. وتعليل ذلك، أن الضمير مثل كأس فخار مملوء بماء الأخلاق دائم التبخر والترشيح، فإذا جفَّت مياهه وخوى الكأس، كان لا بد من إعادة ملئه، وإلا فلا يعد هناك ما يمنع ارتكاب المعاصي ومخالفة قوانين المجتمع . إذن فحقيقة مراقبة الانسان لنفسه، نابع من أيمانه بفاعلية أحكام الشرائع التي جاء بها الأنبياء - حتى لو لم يعلم ذلك - ومن خلال تطبيقها، يقرّ الإنسان - مؤمنًا كان أو ملحدًا بصورة مباشرة أو غير مباشرة - بوجود مصدر فوقي للأخلاق. وبهذا تكون الأفعال الباطلة أو السيئة وقت غياب رجل القانون ، دليلًا على نفاد ماء الأخلاق في كأس الضمير. فارتكاب أفعال الشرور من سرقة واغتصاب وقتل، دليل على ضرورة ملئ كأس الضمير بمياه

1 صفحة 229.

الأخلاق مرة أخرى من منبع إلهي جديد. ولهذا السبب بالذات، نبعت الحاجة الى استمرار قراءة النصوص الدينية وترديد الأدعية والمناجاة وأداء الفروض، فهي الرافد الفريد لملئ كأس الضمير بماء الأخلاق من جديد.

قال:- *(هل نحتاج حقيقة لأن نكون تحت مراقبة الله أو بعضنا البعض كي نتوقف عن الأنانية والسلوك الإجرامي؟)*[1]

هذا إلحاح واضح في الإصرار على تمرير فكرة الإلحاد. فلما كان الانسان في أصله حيواني الطباع ، كان لا بد من وجود قانونين اثنين ، قانون سماوي إلهي وقانون وضعي بشري، ولو تعمقنا في البحث، لوجدنا أن القوانين الوضعية أصلها من شرائع الأديان. وللحفاظ على المجتمع من التشرذم والتفتت والحدّ من سيادة الجريمة والظلم ، كان لا بد من قانون يكمن في نفس الانسان يوحي له بأن هناك من يراقبه ويحسب عليه نتائج أعماله ، ويعده في المقابل، بعالم روحاني جميل بعد الممات . ولقد كان هذا القانون فعّال ومهم وله تأثيرات رائعة وعظيمة لا يراها المكابرون، فكم من رغبة لارتكاب جريمة أو عمل سيء أو اشعال حرب على مر التاريخ، تراجع من عزم عليها بسبب اعتقاده وتذكّره بحساب الآخرة وعقاب الله تعالى . كما قال الفيلسوف ديكارت:- (إن أغلب الناس يؤثرون سبيل المنفعة على سبيل العدالة، لو لم يردّهم خوف الله أو توقع حياة أخرى).[2] وفي المقابل ، كم عدد من لا يعتقدون بوجود إله، لكنهم ارتدعوا عن ارتكاب جرائمهم مخافة القانون الوضعي.

إن طبيعة تعلق صفة الأنانية برغبات الجسد المادية ، هو الدافع الأساس لحثّ النفس الدائم على سلوك كافة السبل المشروعة وغير

---

1 صفحة 228.

2 تأملات في الفلسفة. ديكارت. صفحة 39.

المشروعة لإشباعها، وبذلك لا بد من وجود مراقبين اثنين ، شرطي الأخلاق داخل النفس، ورجل القانون داخل المجتمع . أما لو قلنا إن الانسان ليس بحاجة اليهما، فمثل هذا الافتراض يدعو لقبول فكرة ترك الأطفال أحراراً دون تربية وتعليم أو توجيه، لأنهم بهذا الافتراض سيكونون صالحين مؤدبين عند كبرهم، وبذلك لا تكون هناك فائدة من وجود مربين داخل المجتمع. وهذا منطق غاية في الاعوجاج علينا الحذر منه.

إن فكرة مراقبة الإله للإنسان ، كانت في أصلها ولا تزال فكرة سليمة ومفيدة، حيث اعتقد البدائي وصاحب المعتقدات الدينية بوجود محاسب له على أفعاله وسيعاقبه عليها، وكان من نتائج هذا الاعتقاد أن وُجدت مجتمعات عاشت مسالمة خلال تاريخ البشر وحتى بين القبائل البدائية التي آمنت بالطوطم والتابو؛ ومن خلال ذلك نمت وتطورت العادات والتقاليد والموروثات المحببة للنفوس التي استحسنت المجتمعات تأثيرها، فحافظت على تماسكها وتشجعت على استمرار العمل بها، مما ولّد بينهم قيم الأعراف والتقاليد والأخلاق وبالتالي سنّ قوانين اجتماعية للمحافظة على الأملاك الخاصة والعامة ومصالح المجتمع والأفراد . إذن ففكرة مخافة الله تعالى ومراقبته للإنسان حتى لو افترضنا - جدلًا - أنها فكرة وهمية، كانت مفيدة للمجتمعات، ولولاها لما وصلت البشرية لما نحن عليه من مستويات التطور.

ونعود للإشارة الى خطأ المقارنة بين مجتمعات اليوم ومجتمعات الأمس، فالقديمة كانت في طور البدائية وطفولة التأسيس، واليوم في طور الدخول الى مرحلة النضج والرشاد، فليس من الحكمة أن يعيب الراشد سلوك الأطفال والتركيز على أخطائهم وتضخيم صورها، فلو عاش المؤلف في ذات مرحلة الطفولة القديمة تلك، فلربما كانت

تصرفاته مساوية أو مشابهة لهم. ولنتذكر على سبيل المثال ما يحصل عند احتلال جيش لمدينة في هذا الزمن ، فلقد شاهدنا كيف ينقسم الجنود الى فئتين ، فئة تستمرئ الاعتداء على النساء والأطفال وسرقة ممتلكات الأسرى والقتلى والضعفاء، وفئة تبتعد عن هذه الجرائم وتستنكرها . فما هو الدافع لهذا النقيض في انقسام التصرفات البشرية؟ إن تفسير ذلك، هو أن الفئة الأولى استغلت اختفاء رجل القانون و "شرطي" السماء وشعرت أن لا سلطة أعلى منها تردعها، فأقدمت على تنفيذ ما دعت له رغبات الأنا والنفس الحيوانية . بينما امتنعت الثانية عن هذا السلوك الرديء نتيجة تأثير نوازع الأخلاق في نفوسها رغم امتلاكها القدرة والقوة على فعل ما تشاء. فمصدر هذا الامتناع والتعفف هو ما تربّت ونشأت عليه من تراث أخلاقي . فإذا كان الانسان هو من أبدع القوانين الأخلاقية ذاتيًا ، فالمفروض أن يحمل الفريقان ويمتلكا ذات الصفات الأخلاقية الطيبة ويتجنبان الاعتداء على الآخر ووقف تلبية متطلبات الجسد المادية.

ولنستشهد بما ذكره المؤلف كمثال على صحة رأي كاتب هذه السطور بما يحصل في أوقات الفوضى وغياب الشرطة والقانون أو عند انقطاع التيار الكهربائي في كبريات المدن الغربية،[1] حيث يستغرب من حصول حالات اعتداء ونهب طالما يؤمن أهل تلك المدن بالله تعالى ويدّعون الايمان بدين.

فلو كانت الذات البشرية هي منبع الأخلاق، فلا يبدو ذلك واضحًا في مثاله عن المدن الراقية ، حيث أن أفعال النهب والاعتداء على أملاك الغير تظهر في أول فرصة فوضوية سانحة، بل حتى في أوقات السلم والاستقرار يمكن ملاحظة أنواع الشرور عند الناس،

1 صفحة 229.

والأغرب من ذلك أن تشاهد أبشع أنواع الجرائم ترتكب من أشخاص تعلموا في أرقى المدارس والجامعات. كل ذلك وغيره من سوء الأفعال دليل على أن الأخلاق لا تنبع من ضمير الانسان بل تأتي من مربي فوقي حتى ولو كانت المجتمعات بمستويات راقية. فكأس الضمير والأخلاق مخروم بحاجة دائمة الى الامتلاء.

يقدم رأياً آخر يزعم فيه أن الملحدين غالباً ما يكونوا من المتعلمين والأذكياء وبعيدون عن الإجرام:- *(والامكانية الأخرى هي أن الإلحاد يتناسب مع عامل مشترك ثالث، كمستوى دراسي أعلى أو ذكاء أو تفكير والتي بشكل عام تتعارض مع الاندفاع الاجرامي).*[1]

ذكرنا أن العلم لوحده غير كافٍ لالتزام الانسان بالأخلاق والمحافظة على نظام المجتمع، فجميع المخترعين في العالم من الأذكياء والمتعلمين وحملة الشهادات العليا، لكن بينهم من يصنع المخدرات والسموم وحبوب الهلوسة ويؤسس عصابات إجرامية خطرة ويقوم بعمليات سطو جريئة أو تهريب أسلحة. كما أن الأذكياء فقط هم القادرون على تقديم نظريات سياسية أو اقتصادية لا تتضح كوارثها إلا حين تطبيقها، مثلما حدث مع الفكر الماركسي والماوي والنازي والبعثي والقومي وغيرها الكثير. فهؤلاء المؤسسون كانوا من الأذكياء والمتعلمين ، لكنهم أفكارهم كانت وبالاً على البشرية، تضرر ومات وقتل بسببها عشرات الملايين من البشر.

فالقول أن التعليم والثقافة تكفيان لخلق مجتمعات جيدة تتمتع بالأخلاق الحسنة، فكرة غير سليمة، حيث سيخلو المجتمع من رقيب الضمير، وهذا يدعو الى الحذر منها، لأن سبيل العلم لوحده والاكتفاء به سيجلب على البشرية وبالاً وكوارث لم يسبق أن مرّت بها من قبل

---

1 صفحة 230.

- وفي هذه المرة – نظرًا لتشابك مصالح الدول والشعوب مما يسبب حرباً كونية لا تبقي ولا تذر . فالحذر كل الحذر من انتشار فكرة الإلحاد الداعية لإبعاد عامل الدين، فهي الجرثومة الأخطر على الإطلاق.

وكما هو الحال مع عالم الفضاء الرائع كارل ساغان ، حينما تطرَّق الى المواضيع الدينية والأخلاقية والضمير والنفس البشرية. كذلك نرى السيد دوكنز ، يقدم آراءه في الأديان والأخلاق والعقائد وعلم الاجتماع وهي من غير اختصاصه ، فهو يقرأها ويحللها بعينٍ وفكرٍ إلحادي ، وهذا ما جعل أفكاره بسيطة. فلا ينفك يقارن بطريقة خاطئة بين درجة تقدم مستويات المجتمع الأمريكي في هذا اليوم مع مستويات الشعوب البدائية، أو بين عقليته ومستواه العلمي مع عقلية بدوي صحراوي جاهل ، أو بين حالة المجتمعات المتحضرة عمومًا بمستوياتها العلمية وبين معتقداتها الموروثة من أديان قديمة ولدت قبل أكثر من ألفي عام. لذا كان من المؤكد حصوله على نتائج مشوهة خاطئة من هذه المقارنة.

يستشهد بكتاب لأحد الباحثين في قوله:- *(قارن "جورج س. باول" سبعة عشر بلداً نامياً واستخلص النتيجة المرة التي تقول بأن "الايمان المتزايد بالخالق يرتبط ارتباطاً طردياً مع نسبة أعلى من جرائم القتل والموت المبكر والعدوى بالأمراض الجنسية وحمل صغيرات السن والاجهاض مقارنة بالدول الديمقراطية والأكثر صحية").*[1]

مرة أخرى يقدم مقارنة غير منصفة قد تنطلي على بعض القراء من مشجعي أفكاره. ونعود للقول إن تلك المعتقدات ظهرت قديمًا

---

1 صفحة 230.

وقدر لها الاستمرار حتى الان بين شعوب دول العالم الثالث ، فمن الخطأ قياس تصرفات أتباعها السيئة ثم نسبتها الى جوهر تعاليم أديانها التي اختفت حقائقها منذ آلاف السنين، فما رآه من شواهد مرفوضة، سببها موت الأيمان والأخلاق في الضمائر والقلوب . ثم إن جرائم الاعتداء والاغتصاب والقتل موجودة أيضًا عند الشعوب المتقدمة ولا تقتصر على البلدان النامية فقط ، كما أن من أهم أسباب الموت المبكر وصغر الأعمار، هو الجهل وفساد الحكومات وسوء إدارة الحالة الاقتصادية وتردي مستوى التربية والتعليم ، فلا أحد يرغب بالموت المبكر والجميع يبتغي طول العمر والتنعم بالحياة. أما الأمراض الجنسية وحمل الصغيرات ، فأينما وُجد الفقر والجهل وجدت مثل هذه الحالات، بل وأبشع منها. من هذا على عقلاء البشرية البحث عن نظام عالمي جديد ينصف أكبر مقدار من البشر وينقذهم من سوء الأحوال والأنظمة الاقتصادية المتبعة.

ينقل عن كتاب 'كسر الطوطم':- *(لو كان هناك أي علاقة ايجابية بين الأخلاقيات والتدين أو الممارسات الدينية او الأيمان فإنها ستكتشف قريباً).*[1]

تناولنا العلاقة الصميمة بين الأديان والأخلاق كثيرا في الصفحات السابقة. أما أن ينتظر هو وصاحبه احتمال اكتشاف علاقة بينهما ، فكان من الأجدر به عدم تأليف كتابه "وهم الإله" والانتظار ريثما تتحقق هذه النتيجة. أما أن ينظر الى الأديان القديمة بعدما انتهت وزالت قوتها الروحية ويجلس منتظرًا من أتباعها تصرفات أخلاقية مثلى ، فهذا أمر محال إذا علم ان للأديان روح مؤثرة على ظهور الأخلاق تُبعث حال ولادتها ثم تموت حال ظهور دين سماوي لاحق.

---

1 صفحة 231.

فولادة أي دين هو بحدِّ ذاته إعلان عن موت روح الدين السابق وبدء ضعف تأثيره على الضمائر . فلا يمكن بعد ذلك توقع علاقة كاملة راقية الجوانب بين تصرفات المنتمين الى دين قديم وبين صفات الأخلاق بشكل عام ، اللهم إلا نوعًا من أشكال التظاهر أو التقليد أو ممارسة عادات قديمة لا روح فيها ، تقشط طبقة صبغتها الظاهرية وتزول عند أول تجربة احتكاك حقيقية . صحيح أن تأثير أخلاقيات الدين الجيدة تبقى في قلوب بعض أتباعها، لكنها تكون بدرجات مختلفة أو ضعيفة وقد تختفي تمامًا حتى لنسمع عن جرائم شذوذ واغتصاب بين بعض رجال تلك الأديان.

عندما نرى تمسك الناس بالأخلاق في غياب رجل القانون أو عند اختفاء كاميرات المراقبة أو عند عدم الاعتقاد بوجود مراقبة إلهية ، فهذا لا يعني أن الانسان هو الذي اخترع الأخلاق أو إنها نبعت منه ذاتيًا . إن مردَّ هذا التمسك نابع من ادراك وتمييز أفراد المجتمع لفائدة أعمال الخير وضرر أفعال الشر التي ورثوا ممارستها من الأسلاف عبر آلاف السنين حينما لم يكن هناك علم ولا كتابة. فما يمارسه أصحاب الأديان القديمة من تصرفات أخلاقية بشكل عام، حافظ على استمرارها ودواميتها ورسوخها في النفوس استمرارية تداولها وما صاحبها من أحكام القوانين والعادات والتقاليد والموروثات الاجتماعية القديمة التي حاول المؤلف تجييرها لصالح دعوته في عدم الحاجة الى الله تعالى أو الأديان ومن ثم الادعاء أن الأخلاق تظهر من ذات الانسان نفسه.

يقول:- *(ليست كل القواعد المطلقة نابعة من الدين.* ***بالرغم من ذلك من الصعب أن ندافع عن الأخلاقيات المُطلقة على أسس غير دينية)***.[1]

اعتراف ارتدادي غير مباشر بأهمية الأديان في تربية البشر، جاهد المؤلف في تجنبه ولم يفلح، فهو يعلم أن العامل الديني أس أساس ظهور المبادئ الأخلاقية منذ ظهور الوعي عند الانسان، وهذا البعد الزماني فسح مجالاً لمحاولات التشكك بهذا الأصل القديم رغم اتفاق الفلاسفة على اعتبار الانسان "حيوان اجتماعي" لا يمكنه العيش إلا داخل مجتمع منظم ، وبالتالي كان من الضروري وضع أسس أخلاقية واجتماعية للمحافظة على حقوق الجماعة وأفرادها، فلو تُرك الانسان دون قوانين اجتماعية وروابط أخلاقية، لعادت مَلكته الحيوانية الى الاستقواء والظهور، وبذلك تعود البشرية قهقرى الى سلوك تصرفات حيوانية وحشية نتيجة الرغبات المادية الجسدية التي تخلق داخل النفس منذ أول ولادة الانسان.

بعدما نفد ما في جعبته من سهام الاعتراض على نسبة أصل الأخلاق الى الدين، لجأ ليطلق سهمه الأخير في مثال "الوطنية"، فيقول:- *(ليست كل القواعد المطلقة نابعة من الدين.. والمنافس الوحيد الذي استطيع التفكير به هو الوطنية)*.[2]

من خلال استقراء تاريخ الإنسان القديم، ونتيجة لطبيعته المادية، نجد أن مَلكة الاستحواذ والحرص ورغبة التملك كانت موجودة في نفسه منذ قِدم الزمان، وبقيت ملامحها واضحة حتى اليوم، فإذا لم تكبح هذه الصفات السيئة وتكافح، فستنمو لتتطور الى رغبات نفسية جامحة كلما امتد العمر حتى تصل الى محاولة تملّك ما للآخر بالقوة،

---

1 صفحة 234.
2 صفحة 234.

ولن يمنع لهيب هذه الغريزة النارية من الانتشار، إلا المجابهة والصدّ والاعتراض والتربية والتقويم، فإذا وجد شخصًا وضيعًا المجال مفتوحاً له تجاه ضحية ضعيفة وحيدة عاجزة الدفاع عن نفسها ، فأول ما يخطر في ذهنه الاستيلاء على ممتلكاتها، لأن وازع الأخلاق والضمير ضعيف في نفسه أمام وحش الأنانية، فالسارق على العموم لا يفكر بمقدار عسر وعوز الضحية ولا بمدى الواجبات العائلية الملقاة على عاتقه عندما يقتله أو يغتصب حقه.

من هنا ظهرت بالتدريج فكرة مسؤولية المجتمع في المحافظة على كيانه من خلال المحافظة على الفرد وأملاكه ، فأصبح ذلك مع مرور الوقت عادة وعرفاً، ومن ثم قوانين كتبت وحددت لها عقوبات. ولما كانت الأنانية لا تحدها حدود إذا ما تُركت دون تربية وتعليم، فكانت تظهر بشكل شعور جماعي بين القبائل البدائية في المنافسة على المكان أو الرغبة في امتلاك ما ليس لها، مما أوجد رغبة الاعتداء العام وشن الغارات. وبهذا كان لزاماً أخذ الدروس والعبر من تجارب التاريخ وضرورة الحيطة للدفاع عن النفس والمجتمع، ومن هنا بدأ التفكير بالتكتل والتحصن واستعمال السلاح لرد الغزاة والطامعين . ومن خلال هذا التكتل وجدت فكرة البقعة المحمية والمنطقة الخاصة بالجماعة والقبيلة لتتطور الى فكرة الوطن و ضرورة الدفاع عن الحدود من الغزاة . وأحداث التاريخ تخبرنا أن روح الأنانية والجشع وحب التملك والسيطرة كانت الدافع الرئيس وراء كل اعتداء أو غزو لأراضي الشعوب وأملاكهم، إنه مرض عضال لا يلجمه إلا التربية والتعليم ومبادئ الأخلاق الحسنة. وبهذا تطورت فكرة البقعة الخاصة لغويًا الى استعمال مصطلح "الوطن". لذلك عندما تكون أهداف الأديان في الأساس تربية النفس البشرية ورفع مستوى روحانيتها لتحجيم متطلبات الجسد والنفس الأمارة

بالسوء ، إنما هو لوقف غريزة حب التملك التي امتدت وتطورت لتملّك أراضي وأوطان الآخرين. من هذا يمكن اعتبار "فكرة الوطن" فكرة قديمة نبعت لوقف غريزة الاعتداء والغزو. والأمل كبير في تحولها الى المحافظة على العالم والبشرية أجمع، فالأرض وطن للجميع، والبشر سكانها. كلكم أثمار شجرة واحدة وأوراق غصن واحد.

لو تعمقنا في فكرة "الوطن" قليلا، لوجدنا فيها مخالفة لمبادئ الأديان في أساسها، فلقد ثبت تاريخيا أن الأديان عمومًا دعت الى اتحاد القبائل والشعوب بمختلف أنواعها ولم تحدد انتشارها بأرض خاصة أو شعب واحد، وحثت على احترام حقوق الآخرين والمحافظة عليها، وطالما دعت الى مبادئ المحبة والكرم وتفضيل الغير والعطف ومساعدة الجار ووصل صلة الرحمة وإنسانية رحيمة حتى امتد مداها للعطف على الحيوان ورعاية النبات، كل هذه المبادئ كانت لتربية الانسان وتحجيم غريزة التملك والأنانية وليس لرسم حدود الأوطان.

بهذا يكون قد حان الوقت للعمل على رقي الانسان درجة أخرى والبحث عن سبل اتحاد الجنس البشري ومزيد من التعاون بينهم . فولادة الانسان في "وطن" غني الثروات، تدعوه صفة الإيثار لعدم احتكارها دون غيره من بقية البشر، لذا كان من الضروري التفكير في إيجاد وسيلة أو قانون عالمي لتقاسم ثروات الأرض بين جميع البشر قدر المستطاع، فمن المعيب أن يولد الانسان في "وطن" فقير ويولد آخر في بلد غني ولا يفكر العقلاء في تقليص هذه الفروقات الاقتصادية والاجتماعية بين الناس. فالإنسان هو الانسان في جميع بقاع الأرض، والحياة مرة واحدة لن تتكرر.

لو بحثنا عن أول مبادئ الأديان في محاربة غريزة "الأنانية و الأنا" ومسعاها لتهذيب النفس البشرية ، فسنجدها في تعاليم الأنبياء عمومًا ، وفي تعاليم أول نبي ظهر على الأرض وأنشأ المجتمعات قبل أكثر من اثنا عشر ألف سنة، وهو النبي آدم. كما أشار الى هذا التاريخ التقريبي الفيلسوف توينبي:- (إن العوامل غير البشرية التي عينت شكل الأويكومين "الجزء المسكون من العالم" كانت الى قبل نحو 10,000–12,000 سنة هي المتغلبة على الفعل البشري).[1]

فلقد ورد في تعاليم النبي آدم وما دوّنَ عنه في كتاب الأمة المندائية "كنزا ربا" في تعليم الإنسان مبادئ الأخلاق الحميدة، ما يقارب المائة نصيحة أو أكثر، وما يثير العجب لهذا الكم الهائل من النصائح الأخلاقية، أن يتساءل المرء كيف أمكن لهذا "الإنسان" القديم التمتع بمثل هذه القدرة على الإبداع في تقديم مثل هذه النصائح الأخلاقية في ذلك الزمن البدائي القديم، لولا أن جاءته من مصدر علوي وعن طريق وحي أو إلهام إلهي؟ قال:-

(قل يا عبادي لا تزنوا، ولا تسرقوا، ولا تنتهكوا حرمات الناس. لا تبدّلوا في الكلام، ولا تحبوا الكذب والآثام. لا تكنزوا الذهب والفضة، فالدنيا باطلة ومقتضياتها زائلة. لا تسجدوا للشيطان. ولا تعبدوا الأصنام والأوثان. لا تتعلموا رقى الشيطان. ولا تشهدوا زوراً على إنسان. وإذا جلستم للقضاء فاشهدوا منكم ذوي العدل والذمّام. ولا تسيئوا الأحكام. لا تسلموا العبيد الصالحين الى أسيادهم الأشرار ولا الضعفاء الى الظالمين الفجّار. احترموا آبائكم، واحترموا أمهاتكم، واحترموا إخوتكم الكبار أجمعين . لا تنظروا الى ما ليس لكم. لا تشتهوه ولا تبتغوه. ولا تعترضوا على ما وهبكم ربكم

1 تاريخ البشرية. توينبي. ج 1 صفحة 49.

خاطئين. إن أصابكم سوء فاصبروا، واثبتوا في إيمانكم . لا تلووا ألسنتكم . ولا تثنوا ركبكم. ولا تحنوا رؤوسكم . ولا تسجدوا للشيطان الرجيم . ادعوا من تحبونه ليستمع الى التسابيح التي وهبكم ربكم لعله يؤمن ويطيع. فإن آمن بالله وشهد له فاكرموه، واليكم قربوه، واحسنوا اليه بما تملكون. أما إذا أبى أن يسمع، أو سمع ولم يخشع، فربه هو الأرفع. إذا رأيتم أسيراً مؤمناً صادقاً فافتدوه. ارشدوا الأعمى. احسنوا الى الفقير. وإذ تهبون صدقة يا أصفيائي لا تُشهدوا عليها. لا تعلم يمينكم بما وهبت شمالكم، ولا شمالكم بما وهبت يمينكم. بئس من وهب صدقة فأفسدها بالتشهير. إذا رأيتم جائعاً فأطعموه. وإذا رأيتم عطشان فاسقوه. وإذا رأيتم عارياً فاكسوه. طوبى لمن وهب فإنه لمأجور. طوبى لمن كسا فسيكسى أردية من نور. طوبى لمن انقذ أسيراً فسيستقبله رسل ملك النور. صوموا الصوم الكبير، صوم القلب والعقل والضمير. لتصم عيونكم، وأفواهكم، وأيديكم. لا تغمزُ ولا تلمز. لا تنظروا الى الشر ولا تفعلوه. والباطل لا تسمعوه. ولا تنصتوا خلف الأبواب . نزهوا أفواهكم عن الكذب. والزيف لا تقربوه. أمسكوا قلوبكم عن الضغينة والحسد والتفرقة. أمسكوا أيديكم عن القتل والسرقة. أمسكوا أجسادكم عن معاشرة أزواج غيركم، فتلك هي النار المحرقة. أمسكوا أرجلكم عن السير الى ما ليس لكم. من أخطأ ثم تاب، ثم الى رشده ثاب، فإن الله غفور رحيم. لا تقربوا الملوك والسلاطين والمردة في هذا العالم، ولا تثقوا بهم.. لا بأسلحتهم، ولا بحشودهم. ولا تلووا أعناقكم للذهب والفضة التي يكنزون . إنها سبب كل فتنة. لا تأكلوا الدمّ، ولا الميت، ولا المشوّه، ولا الحامل، ولا المرضعة، ولا التي أجهضت، ولا الجارح، ولا الكاسر، ولا الذي هاجمه حيوان مفترس. إذا ذبحتم فاذبحوا بسكين من حديد. ليحفظ أحدكم الآخر. اعتنوا ببعضكم عناية العيون بالأقدام.

ليحب بعضكم بعضاً . وليحتمل بعضكم بعضاً. لا تبكوا موتاكم، ولا تقيموا عليهم الأحزان. من أحب موتاه فليطلب لأنفسهم الرحمة. هبوا الخبز والماء والمأوى لبني البشر المتعبين، وللمضطهدين، وكونوا عادلين، وتحابوا صادقين. لا يبت عندكم أجر أجير. ولا تسرقوا شريكا. ولا تنتقموا بغدر من صديق. إذا عاهدتم فابسطوا أيمانكم. لا تخونوا عهدكم . اعلموا أن معلميكم يعلّمونكم كلمة الحق والحكمة فلا ترفعوا رؤوسكم عليهم. كونوا هادئين متواضعين. لا تحلفوا كذباً، ولا تفسقوا ولا تمِلْ قلوبكم الى غواية الشيطان. لا تغضبوا ولا تهتاجوا . إذا رأيتم حكيما صادقاً فتقربوا اليه، وخذوا من حكمته. وإن رأيتم حكيماً شريراً فابتعدوا عنه ما استطعتم، إن حكماء الشرّ من أتباع الشيطان. أحبوا لأصحابكم ما تحبون لأنفسكم، واكرهوا لهم ما تكرهون لها. تزودوا لآخرتكم بالعمل الصالح. انظروا بأعينكم. وانطقوا بأفواهكم. واسمعوا بآذانكم. وآمنوا بقلوبكم. لا يأسرنّكم جمال الأجسام فجمالها زائل. لا تلقوا بأبنائكم في بيوت الأسياد عبيداً، إن ذلك وزرٌ عظيم. أيتها النساء اللواتي تكنَّ للرجال، حذار مما لا يرضي الله، ولا يحسن لدى الناس، الزنى والسرقة. إن من لم يرشد أولاده، ولم يعلمهم يحاسبه الله، ومن سعى لهداية أولاده، فلم يهتدوا يحاسبهم الله. من اخطأ منكم فقوّموه وأسندوه، فإن أخطأ ثانية فقوّموه وأعينوه، فإن اخطأ ثالثة فأرشدوه، والصلاة والتسبيح لله أسمعوه. فإن عصى واستكبر وأبى إلا المنكر، فاجتثوا هذه الكرمة من الجذور، وازرعوا مكانها كرمة تعرف طريق النور. إياكم والهُزء بمعوّق، او السخرية من ذي عاهة. إن الأجساد قد تبتلى بالأوجاع

ولكن نشماثا (الروح) لا تهان ولا تزدرى إلا بأعمالها. لا تقولوا ما لا تعرفون. لا تكونوا كالنبت الرديء يشرب الماء ولا يعطي ثمر.).[1]

*****

كلي يقين أن السيد دوكنز لم يمر على مثل هذا الكتاب الأخلاقي التاريخي، ولو فعل ما كان كتب مؤلفه ولا شكك بأصل مبادئ الأخلاق الديني. كما أن هذا النص الرائع يقدم دليل تاريخي بأن الأديان هي مناهج إلهية تربوية متصلة بعضها ببعض، دعت على الدوام لتهذيب النفس البشرية وتحجيم مشاعر الأنانية وقتل "النفس الأمارة بالسوء"، وأنها لم تخترع مبدأ الوطن، فهو اختراع بشري اقتضته ظروف المجتمعات القديمة، وأن السياسيون والحكام ألبسوه صفة التقديس لرفعه شعارًا زائفًا للدفاع عن حدود سلطاتهم، خاصة وأن مساحة الوطن وتخومه تتوسع وتتقلص حسب نتائج الحروب وسعة انتشار الفكر الاستعماري، فكم من امبراطورية بمساحات شاسعة تقلصت اليوم لتصبح دولًا صغيرة، وكم من شعب لم تكن له أرض أمسى اليوم يمتلك وطنًا وحدود.

وبهذا عندما يقول دوكنز أن "الوطنية تعتبر ميزة مطلقة"،[2] إنما هو رأي غير موفّق، لأنه مخالف لتاريخ الانسان منذ مرحلة القنص وجمع الثمار حيث لا أرض محددة لجماعة بعينها؛ ومخالفة أيضًا لما أعقبها من هجرات البشر من أرض الى أخرى. إن الوطنية في أصلها شعور نابع من الحرص في المحافظة على الممتلكات تدرّجت منذ البدائية الفردية الى الجماعية بعدما بدأ الانسان في الاستقرار ومعرفة الزراعة وشعوره بضرورة المحافظة على الممتلكات العامة و الخاصة من اعتداء غريزة الأنا التي يشعر بها. فإذا ما عمَّ السلام بين

1 كتاب كنزا ربا. القسم اليمين. من صفحة 10 الى صفحة 25.
2 صفحة 234.

شعوب الأرض، فلا حاجة للحدود بين الأوطان، مثلما هو الحال اليوم بين مجموعة دول أوروبا .

ماذا نستنتج مما سبق؟

1 أن هناك تخطيط إلهي مستمر لتخليص النفس البشرية من صفة الأنانية التي دامت فاعليتها منذ ظهور الانسان على الأرض.

2 أن هدف الأديان هو تربية البشر للتخلص من غريزة حب النفس.

3 إن الإنسان باقٍ طالما لم تظهر بعد ثمرة وجوده في استتباب السلام العام ووحدة الجنس البشري.

4 إن فكرة الإلحاد والقول بعدم وجود الله تعالى ، هي فكرة مؤقتة عابرة ستزول بمجرد رقيّ العقل البشري.

5 إن فكرة الوطن في طريقها الى الزوال لتستبدل بفكرة العالمية حيث سيكون سطح الأرض مسكنًا لجميع البشر.

6 إن كأس الضمير الإنساني بحاجة دائمة الى الجديد من ماء التربية والأخلاق.

أخيرًا .. يمكن القول أنه لو ترك المجال للفكر الإلحادي بأخذ حريته في التوسع والانتشار دون توضيح جوهر نتائجه المدمرة البعيدة المدى، فالعاقبة ستكون أكثر وبالاً وأشدّ هدمًا لكل ما ناضل الأنبياء وكافح الفلاسفة والمفكرون والبشر طوال تاريخهم لغرس مبادئ الضمير والأخلاق انتظارًا لظهور ثمرة **الإيثار**.

الفصل السابع
الكتاب (الصالح)
وأخلاقيات روح العصر المتغيرة[1]

يستهل هذا الفصل بالاقتباس عن آخر:- *(السياسة قتلت الآلاف، لكن الدين قتل عشرات الآلاف).*

الخطأ أو لنقل - التدليس - في عرض هذه الفكرة واضح هنا كما هي الشمس في رابعة النهار ، وكان المفروض به قلب العبارة بالقول: (السياسة قتلت أضعافًا مضاعفة أكثر من الأديان). صحيح أن قتلى الحروب الدينية كان كبيرًا، خاصة خلال الحروب الصليبية، وفيما بين مذاهب مسيحية مسيحية مع بعضها، أو إسلامية إسلامية مع بعضها. لكن أسلحة وأدوات الحروب كانت لا تتعدى السيف والرمح والمنجنيق ، أما أعداد قتلاها فتقف خجلة أمام مجمل ضحايا الحروب السياسية. فخذ على سبيل المثال ما حدث في الصين:- (عندما خضعت إمبراطورية التشو للتسين، أبيد جيشها المؤلف من 400 ألف عنصر . وذُبح الحكام وذووهم.)[2] وأما عن ملايين القتلى في الحربين العالميتين الأولى والثانية وحرب القرم، وما ارتكبه الاستعمار البلجيكي في الكونغو وبوروندي ورواندا من مذابح لأكثر من عشرة ملايين انسان، وحروب جنكيز خان والرومان وداريوس وهولاكو والاسكندر المقدوني وهانيبال، وأعداد من قتلهم ستالين وهتلر ونابليون وبول بوت وماو تسي تونج، فهذا الأخير قتل من جراء سياسته الاقتصادية والزراعية الرعناء ما يقرب من خمسين

---

1 الصفحة 236
2 الحضارات القديمة. دياكوف. ج 1 صفحة 235.

مليونًا من شعبه تضورًا من الجوع . فما علاقة هذه المذابح بالأديان، وأين المؤلف من ذكرها؟

ليس من الانصاف ارجاع أسباب الحروب عمومًا الى دينية او سياسية فقط، فهناك ضحايا التمييز العنصري والجنسي والعرقي وغيرها،[1] ومن الأفضل وضعها جميعاً تحت عنوان "تصرفات البشر الصبيانية غير الناضجة"، وهي المرحلة التي لا بد أن كان للبشر المرور بها وخوضها بسبب تجذّرها مع التاريخ البدائي. أما اليوم ومستقبلاً، فمشاعر الانسانية بدأت تنضج وتظهر معالم الاعتراض والرفض على عمليات القتل والحروب والمظالم الاجتماعية، وأصبحت دعوات السلام العالمي ونبذ الحروب ومكافحة الفقر والجهل، شعارات إنسانية تزداد اتساعا، وبالتالي يمكن التنبؤ بمجيء عهد سلام عالمي على الأرض.

يعود لانتقاد وصايا التوراة العشر ويعتبرها (*بغيضة*).[2] ويضع مرة أخرى ميزانه التقدمي لمقارنتها مع أحوال مجتمعه . ثم يتناسى أن نزولها كان في أول مراحل الانتقال من حالة عبادة تعدد الآلهة المتزامنة مع أحوال البشر البدائية الى حالة عبادة الإله الواحد "يهوه" أو الله.

(قصة نوح تستحق التمحيص).[3]

---

[1] تشير كثير من الدراسات الأناسية والآثارية الى أنه في المجتمعات الزراعية البسيطة التي لم تتمتع بأطر سياسية خارج القرية أو القبيلة، كان العنف البشري مسؤولا عما يقارب 15 بالمئة من الوفيات التي تضمنت 25 بالمئة من وفيات الذكور. كان العنف في نيوغينيا المعاصرة مسؤولا عن 30 بالمئة من وفيات الذكور في مجتمع قبيلة داني الزراعي، وعن 35 بالمئة في مجتمع قبيلة إنجا. ومن المحتمل أن 50 بالمئة من البالغين في قبيلة ووراني في الإكوادور لقوا حتفهم على يد بشر آخرين. (العاقل. صفحة 105).

2 صفحة 237.

3 صفحة 238.

سبق وذكرنا أن تاريخ الأمم القديمة، كان ملتصقًا بأزمان الآلهة والطواطم والشامان وأمثالها ، وهذا يعني إن ما وصلنا يغلب عليه طابع الرمزية وأسلوب الأساطير القديمة ، وهذا ما نجده في كثير من نصوص العهد القديم المستصعب تفسيرها حتى اليوم . أما عن قصة النبي نوح، فجَرت محاولات عديدة للكشف عن معانيها، منها اعتبار السفينة رمز 'ديانة' نوح بذاتها، فمن ركبها نجى من الغرق في بحر الكفر ؛ وإن ما جمع عليها من حيوانات ترمز لصفات البشر المختلفة من قسوة ولطف وقوة وضعف... الخ. وما يؤيد هذا التوجه في التفسير أنه يستحيل على النبي نوح السفر آلاف الأميال راجلًا أو راكبًا، ليجمع مختلف أنواع الحيوانات المفترسة والأليفة ثم ليتركها عند قومه الذين يعادونه ويكرهون دعوته الدينية، ليعتنوا بها ويطعموها ويوفروا لها الحماية ويفرقوا بينها كي لا يفترس بعضها بعضا منتظرين عودته من سفراته المتكررة التي قد تدوم الواحدة منها شهوراً نتيجة صعوبة وبدائية المواصلات آنذاك. ثم ماذا عن حيوانات الأراضي البعيدة والقارات غير المكتشفة آنذاك مثل امريكا واستراليا والقطبين، فكيف استطاع الوصول اليها؟ كل هذا يدعو للاعتقاد أن القصة برمتها جاءت تشبيهًا للدين كملجأ وسفينة لمن يتخذه سبيلا في حياته للنجاة من الغرق في مياه الكفر وأفعال الشرور.

أما القول أن قصة نوح مقتبسة من قصة "اوتو-نبشتم" البابلية، فقد يكون ذلك صحيحًا، ومردّه أن أسلوب أساطير ما قبل التاريخ بقيت تأثيراتها مستمرة في العقول حتى زمن تدوين كتاب التوراة في أرض الرافدين، وقد يكون هذا ما دعا الى الخلط بينها وتدوين مقتبسات منها . كما أن هناك رأي آخر يقول إن الطوفان والفيضانات كانت تحدث على الدوام في مناطق مختلفة من الارض، وبما أن بشر الأزمنة القديمة تنحسر معلوماتهم الجغرافية بحدود مناطق سكناهم،

فقد ظنوا عند مشاهدة سعة انتشار المياه وشمولها ما حولهم من أراضي، بإن الأرض برمتها تعرضت للغرق . يؤيد ذلك رأي الفيلسوف اسبينوزا: (الواقع أن نوحًا كان يعتقد أن العالم كله، باستثناء فلسطين، لم يكن مسكونًا).[1]

قال:- *(إن الغالبية العظمى من الناس لا تزال تأخذ الكتاب المقدس ومن ضمنها قصة نوح بشكل حرفي).*[2]

رأي صحيح متفق عليه، مع إن كتاب التوراة له من العمر أكثر من 35 قرناً، لذا ليس من المعقول ان يتخذه أبناء القرن 21 بالإجمال مصدراً حرفيًا لمعلوماتهم دون الأخذ في الاعتبار لأسلوبه اللغوي القديم، فالكتاب يتضمن قصصًا ومرويات واحكاماً خاصة بتلك العصور المظلمة لم تعد تصلح حتى قصصاً للأطفال.

ثم يقدم المؤلف رأيه بأن تداول أمور الجنس والمثلية لا تؤثر على حياة البشر. وهذا رأي واضح البطلان ، فمن المعلوم أن توفر الكتب الرديئة ومشاهدة أفلام الجنس والقتل والسرقات ومسلسلات عصابات الاجرام والمافيا وكثرة الحديث عنها وعن غيرها من الأعمال المخالفة للقانون والأخلاق العامة، قد أوجدت قبولا وتشجيعا لا يستهان به لدى قليلي العقل والمراهقين والشباب لممارستها، بدليل انحدار المستوى الأخلاقي العام وانتشار الجريمة في جميع المجتمعات. وكان من الأولى بالمسؤولين اخضاع هذه القصص والأفلام والمسلسلات لمراقبة ذوي الشأن والمختصين للتحذير منها وتحجيمها. فالإنسان يستصعب أو يتخوّف من ارتكاب أفعال مخالفة للعرف والتقاليد الاجتماعية العامة لأول مرة وتشمله حالات من الرهبة والارتباك والخشية على سمعته ومخافة عقاب القانون . لكن

---

1 اسبينوزا. صفحة 153.
2 صفحة 238.

كل ذلك يبدأ بالانخفاض تدريجيًا ويختفي مع الجرأة في تكرار الفعل، وبذلك يمسي المتجرئ غير آبه بأي نوع من الحرج في ارتكاب أو ممارسة أفعال الرذيلة والجرائم ، وهذا يشجّع المراهقين وصغار السن في تقليد هذه الأفعال، وبالتالي ازدياد نسبة الجريمة حتى في أكثر المجتمعات تحفظًا. فمثل هذه الأمور مؤثرة في حياة الناس وليس كما ظنَّ المؤلف.*

يستمر الكاتب في الاستدلال بآراء خاصة لمشاهير أو كتّاب ويعتبرها ميزانًا عامًا. بينما يعلم المختصون أنه ليس من سبل البحث العلمي أن تقاس حالة عامة من خلال تجارب فردية . فمثل هذا السبيل لا يؤدي الى نتائج موثوقة.

ثم ينتقد مرة أخرى قصص كتاب التوراة لما يبدو فيها من أشكال الظلم الإلهي على البشر بشكل عام . والحقيقة إن التاريخ يخبرنا أن التوراة دُوِّنَ في العراق أثناء السبي البابلي، وكان ذلك بعد ظهور اليهودية بقرابة ألف عام. وكل ما يمكن القول، إن هناك اقتباسات من أساطير عراقية قديمة أضيفت اليه كانت موجودة قبل زمن النبي ابراهيم والنبي موسى استمر تداولها بين الناس كقصص شعبية وأساطير من التراث القديم، أو أنها قصص أراد بها واضعوها زيادة المفاخرة والاعتداد بأنبيائهم ، حيث لا يعقل أن يفعل مثل هذا الظلم والجور حتى قاض مبتدئ يملك قليلا من الرحمة والانصاف أو العدل، ليقتل سكان قرى ومدن بأكملها بجريرة عدد قليل من المذنبين، فما بالنا بخالق العقل والرحمة.

إن العقل الإلهي كامل أزلي، ولا يمكن أن تكون أحداث وتفاصيل هذه القصص القديمة قد صدرت أوامرها منه، بل يبدو أن كهنة اليهود أضافوها لاحقًا زيادة في التفاخر وتماشيًا مع السلوك البشري العنيف آنذاك، مثلما نسب المسلمون الأوائل لذات الأسباب قصص الغزوات

وشن الحروب والمعارك للنبي محمد(ص). وإلا فلا حاجة في الأساس لأن يخلق الله هؤلاء البشر، ثم يبيدهم زرافات.

جاء على ذكر:- *(قصة ذبح الابن إسحق او أخيه إسماعيل).*[1]

نقول مرة أخرى لا حاجة لتكرار الكلام ، فمن الخطأ قياس أحداث وقوانين تلك الأزمنة السحيقة بمفاهيمنا الحالية ونحن نجهل حقيقة أحداثها. لكن هناك من الباحثين في تاريخ الأديان من يربط تزامن هذه الحادثة مع بدء زمن تغيير القرابين البشرية الى حيوانية. وهذا رأي يؤخذ في الاعتبار، حيث لا يستطيع أي شخص تغيير ممارسة الناس لأحكام شرائع أديانهم أو نسخها بعد ممارستها لمئات السنين، ولا إلغاء أو تبديل عادات الشعوب، إلا إذا كان نبيًا مرسل من عند الله . والأدلة على ذلك كثيرة .

يقول:- *(هذا مثال آخر على الهوة الموجودة بين الكتاب المقدس والأخلاق العصرية).*[2]

هذا ما دأبنا على ذكره، وهو لا ينفك عن تكراره. إن قليل من المفكرين من حاول شرح وتوضيح ظروف البشر وأحوالهم قبل أكثر من ثلاثة ألف سنة والانتباه لدوافع تلك القوانين العنيفة، فقد يكون منها حاجة المجتمعات البدائية الى قانون القسوة والقوة لفرض سيطرة قانون الجماعة . ونحن الان نقرأ لطرف واحد، خصمٌ للأديان بشكل مطلق، ولكن لا أحد يعلم ما كانت عليه أحوال البشر في قديم الزمان، وماذا حدث من أفعال وما ساد من ظروف حتى قامت تلك الحروب والمعارك بين أتباع الديانات والقبائل الأخرى، خاصة وغالبيتهم أو جميعهم كانوا جهلة وبدائيين.

---

1 صفحة 243.
2 صفحة 247.

إن البرنامج الإلهي العام للأديان التوحيدية وما سبقها، كان يرتكز على شعار (اعبدوا الله ما لكم من إله غيره) حسب النص القرآني الذي لخص ذلك، فكان لا بد وأن يقوم أهل تلك الأديان بالتخلص من الأصنام والأوثان والمعبودات وتماثيل الآلهة القديمة، لأن أصل تلك الدعوات الدينية كان في مرحلة انعطاف زمني تاريخي لإزالة فكرة تعدد الآلهة والأصنام من العقول والمجتمعات بغية تمهيد السبيل لمسيرة تطور البشرية الروحاني. وبما أن أسلوب القوة والعنف هما السمة العامة لأساليب تلك الأمم القديمة، فلا تثريب من سلوك سبيله آنذاك. ولو استمر البشر في تقديس الأصنام وعبادتها حتى اليوم، فكل الظن، أن سيخرج علينا دوكنز آخر ليهاجمها ويدعو للإلحاد أو لعبادة إله واحد مرة أخرى. كذلك لو عاش في تلك الأزمنة، فلا يستبعد أن كان أحد انصار طرفي النزاع ومن فرسانهم.

قال:- *(كل ما أريد أن أؤكده هنا هو بأن الأخلاقيات الحديثة، مهما كان مصدرها، فمصدرها ليس الكتب المقدسة).*[1]

نلاحظ هنا تركه لمصدر الأخلاق مجهولا دون تحديد، وكل ما جاء به هو النفي والاعتراض. والمفروض بمن ينتقد قانونا أو نظرية أو فكرة، تقديم رأي آخر بديل، فكل انسان بإمكانه الاعتراض والرفض والتفنيد، ولكن ما هو الرأي أو الاقتراح البديل؟ لقد سبق وجئنا على مجموعة كبيرة رائعة من التعاليم والنصائح الأخلاقية الدينية للدلالة على مصدرها، وما يستغرب له هو عظمة تعاليمها وزمن ظهورها في تلك العصور البدائية الظلامية؟ أفليست الاثنا عشر ألف سنة كافية لاستقرار هذه المبادئ الأخلاقية في نفوس البشر تدريجيًا؟ أليست هذه المدة التاريخية الطويلة كافية لنسيان مصدر

1 صفحة 247.

الأخلاق الحقيقي وبالتالي ظهور من يجهلها ويشكك بها؟ ألا يدل كل ذلك على قوة هيمنة الأديان على العقول والقلوب والنفوس؟

قوله:- *(تفسير الكتاب بشكل "رمزي" عوضاً عن حرفي. ما هي المعايير التي تجعلك تقرر ما هي العبارة الرمزية وما هي الحرفية؟)*[1]

هذه مسألة بسيطة لو أعطاها المؤلف الاهتمام الكافي، فحينما نقرأ ما يخالف ميزان العلم والعقل، نعلم ان الخطاب رمزي، فلا تنانين تطلق النيران من أفواهها ولا بغال تطير بأجنحة ولا ثعابين تلدغ في القبور ولا بحيرات كبريت ولا نيران تحرق الأجساد...الخ. إن دوكنز من الداعين الى فكرة التطور، وكتابه يرتكز على مناصرتها، مع العلم أنه ليس الوحيد اليها، فلقد سبقه كثير من العلماء والفلاسفة من قبل . ومن المعلوم أنه كلما تعمقنا في التاريخ قلَّت نسبة العلوم والمتعلمين، لذلك وصف علماء النفس والأنثروبولوجيا إنسان الماضي "بطفل الانسانية"، ومن المؤكد ان طريقة التعامل مع الأطفال وتربيتهم بأسلوب الترغيب والترهيب والمكافأة والعقاب وتغليف المعاني الروحية الصعبة بالأمثلة المادية هو اسلوب ناجح ومفيد ليسهل تعقلها. من هنا جاء خطاب الكتب المقدسة في قديم الأزمنة بأسلوب الأمثلة والترميز ، لعدم قدرة العقل البشري على فهم العلوم الإلهية المعقدة. ومن تلك الشواهد: (كان موسى يعلّم العبرانيين كما يعلّم الآباء أطفالهم الذين لم تكتمل عقولهم بعد.)[2] وكان السيد المسيح يكلم الناس بالأمثال:- (فتقدم التلاميذ وقالوا له: "لماذا تكلمهم بأمثال؟" فأجاب وقال لهم: "لأنه قد أعطي لكم أن تعرفوا أسرار ملكوت السماوات، وأما لأولئك فلم يعط... من أجل هذا أكلمهم

---

1 صفحة 248.
2 اسبينوزا صفحة 50.

بأمثال، لأنهم مبصرين لا يبصرون، وسامعين لا يسمعون ولا يفهمون).[1] وجاءت الإشارة في كتاب القران الى احدى هذه المعضلات الفلسفية بعد مرور ألفين عام تقريبًا من نزول التوراة وستمائة سنة تقريبًا من نزول الانجيل الجليل، حينما سُئل النبي محمد(ص) عن ماهية الروح: (وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ. قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا).[2] حيث نلاحظ أن لا إجابة مباشرة للسؤال ولا شرح عن ماهية الروح، والسبب ان المجتمع العربي كان غارقا في جاهليته ولم يكن بمقدوره فهم مثل هذه الأمور الروحية المعقدة، بل وحتى نسبة كبيرة من المتعلمين والعلماء في هذا اليوم ينكرون وجود الروح رغم أن كبار الفلاسفة القدماء اعترفوا بوجودها، لكن النبي محمد(ص) أوضح سبب امتناعه عن شرح الموضوع في النصف الثاني من الآية ومع ذلك لم ينتبه له الكثيرون حينما قال: (وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا)، أي أن ما في عقولكم من علوم ومعارف، لا تكفي لأن تكون قاعدة صلدة لفهم هذا الموضوع الشائك أو أساسًا له . أما اليوم فقد بدأ العقل البشري في دخول مرحلة جديدة من الاستعداد والتطور والقابلية على التمييز بين المعقول وغير المعقول واستيعاب أمور كثيرة كانت غامضة على عقول الأسبقين يمكنه بها تمييز ما هي العبارة الرمزية وما هي الحرفية.

قال:- *(إن التصفية المذهبية للشعوب التي بدأت في عهد موسى تصل أقصى دمويتها في سِفر يوشع).*[3]

---

1 متى 10:13.
2 سورة الإسراء 85.
3 صفحة 248.

سبق وجئنا على طريقة المؤلف في التركيز على تهويل نتائج أفعال أهل الأديان في قديم الزمان، بينما غض الطرف عما حدث من سحق وابادة للأبرياء في حروب البشرية الحديثة. ولا حاجة للتكرار.

قال:- *(ربما يكون الكتاب المقدس عمل شاعري وخيالي رائع ولكنه ليس بذلك الكتاب الذي يجب أن تعطيه لأطفالك ليستقوا منه أخلاقياتهم).*[1]

مبادئ التربية والتعليم تختلف وتتطور من جيل الى آخر، ومن غير المنطقي أن يؤخذ ما ورد في التوراة كمصدر لتربية الأجيال بعد مرور 35 قرناً . ثم علينا أن لا ننسى أنها تعاليم خصّت أمم بدائية قديمة لا تتوافق مع أجيال اليوم المتحضرة.

يعود لينتقد أحكام التوراة ويستهجنها كعقوبة القتل لمن يسبَّ والديه أو يرتكب معصية الزنا أو المثلية... الى غير ذلك!.[2] قبل كل شيء حتى المسيحيون الذين أخذوا بأحكام التوراة وشريعته، لم يستمروا بتطبيق هذه العقوبات لاختلاف الزمان؛ وحتى في دين الإسلام، نجد تخفيفًا لعقوبة الزنا حينما ربط تحققها بأدلة مستحيلة، إذ لا بد من وجود أربعة رجال راشدين يشهدون حصول الواقعة رؤى العين كدخول المروّد في المكحلة وإلا سيعاقبون بالجلد.

أما بخصوص عقوبة القتل لمن يعمل في يوم السبت . فبسبب تشدد اليهود في تطبيق هذا الحكم الى درجات غير منطقية ولا معقولة، جاء السيد المسيح(ع) ليمحو كل هذه التجاوزات المتطرفة. وكان إلغاء هذا الحكم واستبداله بيوم الأحد من أول أحكامه . لكن أهم ما يستفاد من هذا التشريع اليهودي، هو ما أوجده من تنظيم لأيام الأسبوع وحدده بسبعة أيام استمر متداولا حتى الان، ومن بعدها

---

1 صفحة 248.
2 صفحة 249.

أخذت جميع أمم العالم وشعوبها بهذا النظام. صحيح أن النظام الأسبوعي كان متواجدًا قبل ظهور الشريعة اليهودية عند أهل الحضارات العراقية والفرعونية، إلا أنه كان محددًا بأقل أو أكثر من الأيام السبعة.

يفرد صفحة كاملة ليعبّر عن حزنه على حطّابٍ عوقب بالقتل لعمله يوم سبت قبل أكثر ألفي عام.[1] ويتناسى ملايين البشر الذين قُتلوا وابيدوا بسبب سياسة دولته التي كانت لا تغيب عنها الشمس أو عدد المواطنين السود الذين قتلوا على يد شرطة الفصل العنصري في بريتوريا. أفلم يكن لهؤلاء زوجات واطفال ينعونهم ويحزنون عليهم بعدما تركوا مشردين بدون معيل؟ ألم يكن بين البريطانيين عقلاء أو حكماء ليوقفوا هذا التعسف والظلم؟ فما أشار اليه كانت أحكام أمم وأديان قديمة، فلا موجب لتكرار انتقادها، لقد انتهت وولى زمانها وما علينا إلا استقاء العبر منها والبحث عن أنظمة جديدة تسعد البشر وتؤلف بين قلوبهم.

ينقل عن صحيفة الانديبيندنت:- *(عبادة آلهة متعددة ومتساوية وممارسة الشرك في السعودية لا يزال يعتبر جريمة عقوبتها قطع الرأس).*[2]

مرة أخرى. إنها عادات قديمة ليس لها أصل في كتاب القرآن، ولا موجب لاستمرار العمل بها لعدم توافقها مع التطور العقلي والحضاري والروحي للبشر، فهي لا تتفق مع مقاييس الإنسانية الحالية بكل جوانبها، لذلك جاءت قوانين الأمم المتحدة وغيرها لتقول بحرية العقيدة والعبادة . وما يلفت الانتباه أن السعودية قد خطت في السنوات القليلة الماضية خطوات رائعة للتخلص من عادات وأحكام

1 صفحة 249.
2 صفحة 250.

قديمة لم تعد متفقة مع حقوق الإنسان. وهذا دليل على أن مسيرة التطور قوية ونافذة حتى في أقوى الشعوب تزمتًا في تطبيق العادات والقوانين القديمة.

ينقل عن العالم الفيزيائي الأمريكي الحائز على جائزة نوبل في الفيزياء "ستيفن واينبرغ"، قوله:- *(الدين إهانة لكرامة الانسان، به أو بدونه فسيكون دائماً هناك أناس طيبون يفعلون الخير وسيئون يفعلون الشر ولكنك تحتاج للدين كي تجعل اناس طيبين يفعلون الشر).*[1]

سبق وقلنا أن الرجل يبحث عن كل من يوافق أفكاره. ومع ذلك، هذا رأي خاطئ بما لا يقبل الشك، ومع الأسف أن يسمعه الشباب وتقرأه الأجيال من أقلام علماء اشتهروا عالميًا . إن مصدر الأخلاق هي الأديان، على اعتبار أن فكرة الدين معنوية خارجة عن حدود الطبيعة وعن حواس البشر المادية. كما أن جائزة نوبل في الفيزياء لا تمنع الحاصل عليها من التدخل في غير اختصاصه، وبهذا جاء رأي واينبرغ ليوافق رأي المؤلف عالم البيولوجيا، ويوافق أيضا رأي عالم الفلك كارل ساغان وغيرهم. أما الرد على هذه الآراء، هو أن الأديان بعدما تموت روحها النابضة، يخبو ويبطل تأثير أحكام شريعتها على القلوب، فيفسح ذلك مجالا للعلوم الطبيعية أن تسبقها، ومثل هذا الفرق واضح جدًا لدرجة أنه ليس بحاجة الى علماء لمعرفته وتمييزه ، فكثير من الناس بمختلف المستويات الثقافية نبذوا أديانهم وألحدوا بسبب استهجانهم لأحكام أديانهم القديمة.

1 صفحة 250.

ينقل عن الفيلسوف "بليز باسكال" شيئاً مشابهاً:- *(لا يقترف الانسان عملاً شريراً بسرور وبشكل كامل إلا إذا فعلها بسبب قناعة دينية).*[1]

باسكال فيلسوف فرنسي برع في الرياضيات والفيزياء واللاهوت، عاش في القرن السابع عشر . ومن المؤكد أنه بلوَر فكرته من خلال مراقبته لأحوال مجتمعه وبقية شعوب الأديان في آخر مراحل عصر الظلمات . لكن دوكنز لم يخبرنا - أو بالأحرى لم ينقل لنا - هل إن جميع المجرمين الذين يرتكبون جرائمهم وهم فرحين مسرورين، من معتنقي الأديان فقط؟ فقاعدة باسكال تبدو غير سليمة.

يقول:- *(هدفي الأساسي هنا ليس أن أعرض بأنه ليس علينا أن نأخذ أخلاقنا من الكتب المقدسة "رغم أن ذلك هو رأيي الشخصي" ... وفي الحقيقة لا نأخذ أخلاقنا من الكتب المقدسة. ولو فعلنا، لحفظنا يوم السبت...).*[2]

سبق وقلنا أن الرجل يخلط بين مبادئ الأخلاق الروحية وبين أحكام الشرائع المادية ولا يفرق بينهما. إنهما حقلين مختلفين تمامًا. وما يقدمه لا يخرج عن نطاقين، فإما أنه يجهل الفرق بينهما، وهذا ينسف مجمل ما يدعو إليه، وإما أنه يتعمد دسَّ ذلك ترويجًا لآرائه الالحادية. فإذا آمنّا بفكرة تطور العقل البشري وضرورة تطور الأحكام، سماوية كانت أم وضعية . نجد أن تعاليم التوراة غاية في الشدّة والقِدَم حتى إنها أصبحت مرفوضة ولا يطبقها حتى اليهود أنفسهم ، بل وتقف دساتير الدول الحديثة في وجهها وترفضها. أما يوم السبت، فلقد جئنا على أسباب نسخه وتغييره.

---

1 صفحة 250.
2 صفحة 250.

(هل العهد الجديد بأفضل حال؟)[1]

ليس من سبيل لمقارنة كتاب الانجيل بالتوراة ، فالإنجيل يخلو من الأحكام التشريعية إلا في ثلاثة أحكام أو أربعة ، مثل اتخاذ زوجة واحدة ، تغيير يوم السبت الى الأحد، تحريم الطلاق؛ والسبب في هذا التحديد الموجز، هو قِصر مدة دعوة السيد المسيح؛ لذلك وجد المسيحيون أنفسهم بحاجة الى مزيد من الأحكام التشريعية مما دفعهم للاستعانة بأحكام التوراة بعدما دمجوا الكتابين معا.

(المسيح على فرض أنه وُجد).[2]

ما دام يشكك بوجود خالق الكون وموجد هذه الهندسة الكونية العظيمة، فليس من المستغرب أن ينكر وجود السيد المسيح(ع). ولكن عندما نتذكر النظرية الفلسفية (ليس للمعدوم أثر)، نعلم أن السيد المسيح شخصية حقيقية. فلقد ترك أمة مؤمنة بدعوته في طول الأرض وعرضها ، وبذلك لم يأت كل ذلك من فراغ أو خواء، ناهيك عن اتفاق اثنى عشر رجلا على تدوين أقواله ونقلها، وشهادة المئات من البشر على وجوده وحياته وعلى عملية التعليق والصلب.

(المسيح لم يأخذ أخلاقياته من الكتاب المقدس (التوراة) الذي تربى عليه. بل ابتعد عنه كثيراً. كمثال عندما أهمل موضوع السبت).[3]

لقد أشار القران الكريم لاحقاً لهذه النقطة المهمة وأوضحها حينما قال أن لكل رسول كتاب وشريعة خاصة به قد تختلف أو تتوافق في بعض أو كل أحكامها مع بقية الكتب المقدسة السابقة لها استنادًا لتغيّر ظروف الزمان والمكان ومستوى أفكار الشعوب وثقافتها، كما قال

---

1 صفحة 251.
2 صفحة 251.
3 صفحة 251.

تعالى: (لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا).[1] ولو عاش السيد المسيح(ع) أكثر من ذلك ، لزاد بالتأكيد من أحكام شريعة الانجيل كثيراً، لكن عملية استشهاده المبكرة قطعت ذلك . وعندما يقول السيد المسيح: (السبت إنما جُعل لأجل الإنسان، لا الإنسان لأجل السبت).[2] فهو دليل على قدرة كلمة السيد المسيح الخلاقة؛ فبعبارة صغيرة واحدة أرخى قيود يوم السبت عن الرقاب بعد شدّة التزام اليهود وتزمتهم بتنفيذه. وهذا التغيير الجوهري لهو دليل على ضرورة تطور أحكام شريعة التوراة بعدما تمادى اليهود في تحريم العمل بيوم السبت الى درجة أن يتركوا انسانًا يموت دون مبادرة فعلية لإنقاذه . لذلك لا غرابة أن يأتي السيد المسيح ببعض الأحكام الجديدة لتخالف أحكام شريعة التوراة فهذا من جوهر أعمال الرسل أصحاب الرسالات. أما ابتعاد السيد المسيح عن أخلاقيات التوراة، فهذا عدم فهم وخلط واضح بين مفاهيم الأخلاق الروحية وبين الأحكام المادية التشريعية من المؤلف، لأن مبادئ الأخلاق شأن عام بين جميع دعوات الأنبياء، لم يجِد أو يبعد عنها أحدًا منهم. وعلينا أن نعلم أن لا رسولاً ولا نبيًا، إلا وظهر من أمة تعتنق دين سابق، فالأنبياء لا يظهرون من اللا مكان ، وبذلك لا يلام السيد المسيح على مخالفة أحكام شريعة آبائه وأجداده، فهذا من جوهر أعمال الرسل وسبب توالي ظهوراتهم لاستمرار رقي أخلاق البشر وحضاراتهم.

يقول عن السيد المسيح:- *(أما بالنسبة لرأيه بالعلاقات العائلية فهي ليست مباشرة تلك الآراء التي أحدنا يرغب بتقليدها. لقد كان*

---

1 سورة المائدة 48.
2 إنجيل مرقس 27:2.

معاكساً، بل عاقاً، حتى مع أمه، وشجع تلاميذه أن يتركوا عائلاتهم ويتبعوه).[1]

عاد لينتقد أخلاق وتصرفات السيد المسيح(ع) وما دعا إليه. إن من يحمل فكرًا ماديًا، لا بد أن يفكر بطريقة مادية، إذ يستحيل عليه تصور جوهر الدعوات الروحية وحقيقة أهدافها، فهي مخالفة تمامًا لمجمل تفكيره ورؤاه . إن حقيقة بذرة دعوة السيد المسيح هي دعوة روحية كان لا بد من التفرغ لها ورعايتها والمحافظة عليها، فكلما تضخمت عظمة الأفكار والأعمال وأهدافهما، ازداد التركيز عليهما واشتد الانتباه والاهتمام بهما، فحتى بعض أتباع الأحزاب السياسية يبذلون كل جهد في سبيل نشر أفكار أحزابهم ولا يعتنوا أو يفكروا بعواقب ما ينتظرهم من تعذيب أو قتل أو سوء مصير عوائلهم رغم إنها أفكارًا بشرية. والسيد المسيح كان مدركًا لخطورة وعظمة مهمته، ويعلم جيدًا أن محاولة تغيير معتقدات وطقوس البشر عمومًا واليهود خصوصًا بعدما قدّسها آبائهم وأجدادهم لمئات السنين، هي من أصعب المهام وأجلّها - وصفحات التاريخ تشهد على تعصبات الأمم في محاربة أتباع كل ديانة سابقة لأتباع ديانة لاحقة - لذا كان من البديهي والحتمي أن يواجه أحبار الفريسيون اليهود دعوة السيد المسيح بكل أشكال الرفض. لذلك كان طلب السيد المسيح من تلاميذه التجرد التام عن شؤون الدنيا والاهتمام بنشر تعاليمه كما فعل ذلك بنفسه، فلن يخترق جدار قلعة التعصب والتشدد اليهودي إلا النقاء الروحي الصرف. (قال له يسوع: «إن أردت أن تكون كاملا فاذهب وبعْ أملاكك وأعط الفقراء، فيكون لك كنز في السماء، وتعال

1 صفحة 251.

اتبعني».)[1] وهكذا نرى أن الهدف الأساسي لهذه الدعوة الإلهية هو خلق إنسان خالٍ من الارتباط بالشؤون الدنيوية.

ينتقد شدة عقوبة أكل آدم وحواء لفاكهة الشجرة، ويقول:- (*إن بعض التوبيخ كان كافياً*).[2]

إن ما يدل على رمزية هذه القصة تحول هذه المخالفة البسيطة الى عقوبة عامة ودائمة لتشمل جميع الجنس البشري على مدى الزمان . ولو بحثنا لوجدنا تفسير آخر يعطي قصة آدم أحد المعاني الروحية، فمثلا: إن المقصود من آدم هي روح آدم النقية، ومن حوّاء نفس آدم الأمارة بالسوء، والمقصود من شجرة الخير والشّرّ هو عالم النّاسوت (عالم الدنيا)، فالعالم الرّوحانيّ الإلهيّ خير محض ونورانيّة صرفة، حيث يوجد في عالم النّاسوت حقائق متضادّة من نور وظلمة وخير وشرّ وتعاون واعتداء. والمقصود من الحيّة هو التّعلّق بالعالم النّاسوتيّ، وقد أدّى تعلّق الرّوح بالعالم النّاسوتيّ حرمان روح آدم وإخراجها من عالم الحرّيّة والإطلاق إلى عالم الأسر والتّقييد. والمقصود من شجرة الحياة هو أعلى رتبة في عالم الوجود، لأنّ مقام آدم كان كمقام النّطفة من حيث ظهور الكمالات الإلهيّة وبروزها في أول ابتداء ظهور الديانات التوحيدية، بينما كان مقام السيد المسيح مرحلة دخول بداية رتبة البلوغ والرّشد. فآدم روح آدم، وحواء نفس آدم، والشّجرة عالم النّاسوت، والحيّة هي التّعلّق بعالم النّاسوت .*

*****

ينتقد تعليق المسيحيين لشارة الصليب حول أعناقهم، باعتباره رمز للتعذيب والاعدام.[3]

---

1 إنجيل متى. 21:19.
2 صفحة 252.
3 صفحة 252.

تعليق شارة الصليب كان من أفكار رجال الدين واختراعهم، ولم يصدر من السيد المسيح شخصيًا، فإلقاء اللوم عليه إنما هو نوع من التجاوز والتجنّي . ثم إن لكل ديانة أو دولة أو حزب أو شركة، رمز وشعار، فهذا أمر متداول لا يدعو للانتقاد. كما أن تعليق شارة الصليب جاء للدلالة على مظلومية هذا الرسول الشاب وليس رمزا للتعذيب والاعدام.*

*****

ماذا يمكن وصف مثل هذه الطريقة في تأليف كتاب، وما الغاية منها؟ أهو التدليس وبث سموم الشكوك في القلوب والعقول؟ أَكُلَ هذا بسبب كراهية الأديان والإله؟ إن أمر هذا الرجل وأمثاله يثير العجب، فلقد رافقته من أول الكتاب حتى جاوزت نصفه - وكما يلاحظ القارئ - قد رددت على جميع نقاط كتابه، لكن كل ما استنتجته حتى الان إنه يبتغي أمراً في نفس "يعقوب"؛ وبما أنه رجل عاقل وعالم في اختصاصه، فمن المؤكد أنه احترز واطمئن من الاعتراض أو الاعتداء عليه لوجوده في بلد ديمقراطي يحفظ حقوق الأفراد ومعتقداتهم وحرية كلمتهم؛ إذن، لا بد وأن يكون هناك هدف آخر، فإما الشهرة أو المال؟ وإلا ما سبب كل هذا التهجّم والتشهير الذي ليس من طائل خلفه إلا الدعوة الى التحرر من مبادئ المُثل والأخلاق؟ فهو يعلم أن الله تعالى لن ينزل من علوّه للرد عليه، ولن يقوم السيد المسيح ليفعل بالمثل، لذلك فهو مطمئن عند انتقاد ومخالفة الأديان. ولكن دعونا نفكر قليلاً ، ونفترض أنه يعيش بين شعب متعصب دينيًا، فهل سيتجرأ بنشر كلمة واحدة مما سال من قلمه؟ لا أظن ذلك. ولنا في مثال سلمان رشدي خير دليل . لقد تعسف دوكنز في استعمال حقه واستغل بشكل سيء ما يتمتع به من حرية التفكير والكتابة والنشر ، وتدخَّل في أمور ليست من اختصاصه، فهو لم

يهاجم سياسي بارز أو رجل دين ذا سطوة ولا حتى زميلاً له حتى يرد له الصاع صاعين، لكنه استهدف ذاتين مقدستين تركا حرية الاختيار له ولغيره، فمن شاء آمن، ومن شاء كفر.*

يتساءل عن الفكرة من وراء خطيئة آدم:- *(ما تلك الفلسفة الأخلاقية التي تحكم كل طفل، حتى قبل ان يولد، ليرث ذنب سلف بعيد له؟)*.[1]

لقد زرعت قصة آدم في نفوس البشر أهمية الانتباه لأحكام الأديان وتطبيقها، باعتبارها قوانين الأرض الوحيدة في قديم الزمان، وقد ساهمت بالفعل بشكل غير محدود في ابتعاد البشر عن أفعال الشرور . ولا حاجة للعودة والقول بأنها قصة رمزية.

يقول:- *(آدم، الخاطئ المفترض الذي اقترف الخطيئة الأصلية، ليس له وجود بالأساس)*.[2]

غالبًا ما نسمع مثل هذا التشكيك من الملحدين وبعض المثقفين، والأمر لا يقتصر على آدم فقط، بل يتعداه الى ذات الله تعالى وإبراهيم وموسى والمسيح والنبي يوسف . وسبق وقلنا: إن العدم لا يترك أثرًا، وفي المقابل إن الأثر يدلُّ على المؤثر؛ إن شخصية آدم كانت موجودة بالفعل، وما زالت بقية أمته (الصابئة المندائية) موجودة حتى اليوم، وتعاليمه مدوّنة في كتاب "كنزا ربا" - وقد جئنا على شيء منها - ولولا ترجمتها عن لغتها الأصلية القديمة، لما عرفنا شيء عنها و لبقيت سراً خاصاً بمجموعة منسيّة من البشر . كما أن إشارة الرسل والأنبياء اللاحقين الى وجود آدم باعتباره فاتح كور التوحيد، لهو خير دليل على وجوده، وإلا فلا حاجة لذكرهم إياه.

---

1 صفحة 253.
2 صفحة 254.

يقول:- *(لأجل أن يثير المسيح انطباعا مؤثراً في نفسه فقد ترك نفسه يُعذب ويُعدم في عقوبة مروعة لأجل ذنب رمزي ارتكبه شخص لم يوجد أصلا .).*[1]

هذا ما ظنه الرجل وما قرئه عن رجال الدين في تفسير "خطيئة" آدم، ومن الواضح أنها لاقت قبولا منه وإلا لما علق عليها. لذا ليس من المفروض أن ينقل ملامته الى مؤسس الديانة المسيحية الذي هو أجلَّ وأعلا من أن يرقى لمقامه مثل هذا الانتقاد ، وطالما ثبت أن السيد المسيح(ع) كان حكيماً عاقلاً، فالمفروض أن لا يترك جسده لكل ذلك العذاب إلا لسبب مبجّل عظيم. فالإنسان يحصر اهتمامه على اكتساب الشؤون الدنيوية وملذاتها ويجدّ السعي فيما يسعده ويسرّه في دنياه. ولو كان السيد المسيح(ع) بشرّا عاديا، فسيهتم بشؤونه الدنيوية مثل غيره ويرتد عن دعوته بمجرد رؤية ذلك التهديد والوعيد والغضب وصنوف العذاب حفاظا على حياته، فلا فائدة يجنيها الانسان من شهرته بعد موته، فهذا نوع من قلة العقل والوهم. فتضحية السيد المسيح كانت لإعادة البشر الى حديقة الأخلاق. أما قصة النبي آدم، فمن معانيها كذلك، أنه أول من فتح بصيرة الانسان وأوجد باكورة الوعي والضمير عند البشر وبانتمائهم لجنس واحد، وهو الذي علَّمهم كيف يميزون بين الخير والشر ويسعون لبناء حضارات؛ فالنبي آدم ليس كما ظنّ الكثيرون أنه كان أول من وجد من البشر بل كانت قبله أمم كثيرة، كما أن جنته لم تكن في السماء، بل كانت على الأرض.*

يستمر المؤلف في عرض مزيد من القصص الفردية ونصوص منقولة من صحف ومجلات ومقابلات وآراء كتّاب وأساتذة يستشهد

---

1 صفحة 255.

بها، مما لا تستحق التعليق أو أخذها بنظر الاعتبار. ولو فعلت، لأصبحَ هذا الكتاب مملاً مترهلاً يحيد عن هدفه في مجالات كثيرة. وكمثال على ذلك، يتناول استبيان علمي أجري لمجموعة من الشباب اليافع (8-14) سنة،[1] ثم يستند على آرائهم لوضع أسس لبعض فرضيات كتابه .*

ثم يعود لانتقاد المفهوم المادي لطريقة الحساب في يوم القيامة اعتمادا على ما ورد في الكتاب المقدس ، ويقول أن البشر سيموتون جميعا وينتهي بهم المطاف إما الى الجنة أو النار . هذا مفهوم رمزي مادي قديم آخر يتوافق مع مفاهيم بشر عاشوا بمستوى عقلي بسيط، فالحياة بعد الموت ستكون روحية وليست مادية بالجسد، وتحدث مباشرة بعد الوفاة دون فاصل زمني، كما قال تعالى:- (ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم)،[2] والكلمة "تركتم" تعني استمرار حياة الناس والموجودات على حالها بعد وفاتهم، وأنهم دخلوا يوم حساب أرواحهم حال انتهاء فاعلية أجسادهم، ولم يكونوا راقدين في قبورهم ينتظرون مجيء يوم القيامة ونهاية الزمان. وبذلك يكون لمعنى جنة ملئها الحسان والولدان والفواكه والعسل والنبيذ، وكذلك الأمر بالنسبة لنيران جهنم والكبريت المغلي، تشبيهات منطلقة من الواقع المادي للحياة .*

ينتقد رأي أحد الكتّاب في قوله أنه يشكر الله تعالى على أنه ولد مسيحيًا.[3] في الحقيقة هذه التفاتة لا موجب لذكرها أو تخصيص فقرات لها، فجميع أتباع الأديان يشكرون الله تعالى أنهم ولدوا لأبوين

1 صفحة 257.
2 قرآن. الأنعام 94.
3 صفحة 260.

من دين معيّن. بل حتى الملحدين يشكرون العقل على ما توصلوا اليه من إلحاد .*

مرة أخرى، حاول الكاتب الاستفادة من نتائج استبيان مجموعتين من أطفال اليهود حينما أشار الى موافقة أغلبية أفراد الفئة الأولى على نص ديني يأمر بقتل غير اليهود، بينما استنكرت المجموعة الثانية بالأغلبية عملية القتل في موضوع سياسي. ويستنتج أن:- *(الدين هو الفرق بين الأطفال الذين يلعنون المذبحة وأولئك الذين يباركونها).*[1] إن مجمل فكرة الاستبيان دليل على أن تلك الأفكار كانت مناهج دينية قديمة ورثها الأبناء عن الآباء، إلا أنها لم تعد تنفع في وقتنا الحاضر ، والأمر برمته يعتمد في الأساس على التربية الحضارية السليمة ، ولقد حان الوقت لترك التعصب الديني وانتهاج تعاليم ومبادئ دينية جديدة.

يقول:- *(الدين قوة للتفرقة وبدون شك وذلك أحد الأسباب الرئيسية التي تؤخذ عليه.. الدين هو علامة للتمييز بين داخل الجماعة وخارجها).*[2]

منطق أعوج مبتغاه الخلط بين تصرفات الأنبياء المثلى في المحبة والإيثار، وبين تصرفات أتباعهم التعصبية فيما بعد. وسبق وقلنا أن من يبحث عن قوة تأثير الأديان وآثارها ، عليه تفحّص تصرفات روادها الأوائل في قرونها الأولى ، وكيف تغلغلت روح المحبة والفداء والتضحية فيما بينهم - والأدلة العظيمة والقصص الرائعة عن ذلك لا تعد ولا تحصى - وبالتالي سيعجز عن حجب ما يرتسم على وجهه من علامات الدهشة والإعجاب لذلك التفاني العظيم فيما بينهم.

---

1 صفحة 259.
2 صفحة 261.

يعود لينسب الأحقاد وعمليات القتل بين أهل الأديان والمذاهب الى جوهر الأديان نفسها.[1]

سبق وذكرنا ان عمليات القتل والابادة لم تقتصر على أتباع الأديان، فلو تفحصنا أصل هذه النزاعات لوجدنا من أسبابها كذلك، الأنانية والحرص والحسد والاستعمار والنزعات العرقية و التعصبات القومية التي هي أكثر بكثير من ضحايا الأديان؛ وهنا علينا أن نتذكر على سبيل المثال ما حصل من ابادات عرقية راح ضحيتها مئات الألوف من قبيلتي الهوتو والتوتسي في راوندا حيث لم يكن للدين أثر في الموضوع. فالكراهية والبغضاء بين أبناء البشر والسياسات العرجاء ووهم فكرة الوطن والتعصب العرقي والجنس النقي واستعمار الأوطان والشعوب واختلاف اللغات والاقتصاد المتهالك والحاجة المادية والحسد والتنافس وضعف دور المرأة وشحّة المياه وما الى ذلك وصولاً الى القتال بين مشجعي كرة القدم.. الخ، فجميع هذه الخلافات لا يتدخل الدين في اثارة ضمرائها.*

عندما يعود لذكر الكاتب سلمان رشدي كنموذج للاضطهاد الديني،[2] فهو لا ينفك عن ذكر الحالات الفردية كقياس لذلك . ورغم أيماننا بحرية الفكر والرأي والعقيدة، إلا أن رشدي كان باستطاعة صياغة موضوع كتابه بشكل أكثر لطفا وعقلانية حتى لا يثير غضب المتعصبين من رجال الدين وينادوا بقتله.

ثم ينتقد وصم الأطفال بأسماء مذاهبهم.[3] هذه العادة جاءت بسبب محبة الناس لأديانهم وتقدير خدمات وتفاني رواد المؤمنين الأوائل.

---

1 صفحة 262.
2 صفحة 262.
3 صفحة 262.

لذا كان عليه تقديم قائمة بالأسماء التي يقترحها لتسمية الأطفال دون أن ينسى اختلاف لغات الشعوب .

ينتقد تدريس مادة الدين للأطفال.[1]

بالعكس، فمن المفروض ان يتعلم الأطفال خشية الله تعالى ومبادئ الأخلاق الحسنة ويأخذوا فكرة عامة عن سبب تسلسل ظهور الأديان وسبل التعاون بين البشر ومساوئ العنصرية بمختلف أشكالها منذ نعومة أظفارهم حتى يخلق عامل الضمير في عقولهم؛ أما تحديد الانتماء الديني فيترك اختياره للإنسان حتى بلوغ سن الرشد.

وينتقد مسألة تحريم الزواج المختلط.[2]

إن منع التزاوج بين أتباع الأديان أو المذاهب المختلفة يزيد من روح التعصبات والكراهية بين الناس ، وهو تصرف مخالف في حقيقته لروح الأديان التي جاءت لنشر المحبة بين البشر واتحادهم. ولنتذكر أن النبي محمد(ص) شدد على قبول الزواج المختلط حينما تزوج نساء من أديان ومعتقدات مختلفة ، ما كانت غايته إلا إيجاد التآخي والاتحاد والمحبة بين القبائل والشعوب ، وحثًا لأتباعه على تقليده. أما أن يخالفوه فيما بعد، فهذا مخالف لسنته.

يقدّم عشرة نقاط لوصايا الملحدين ، إسوة بالوصايا العشرة للنبي موسى(ع).[3] ولقد جاءت في مجملها وصايا أخلاقية جميلة تتناسب مع المنظور الأخلاقي العام. إلا أنه لابد من الانتباه لها والتعليق عليها، فغالبيتها مقتبسة من أصول الأديان وليست من بدع أفكاره. مثل: أحب لأخيك ما تحبه لنفسك. لا ضرر ولا ضرار. الانسان إمّا أخٌ لك في الدين، وإمّا نظير لك في الخلق.

---

1 صفحة 263.
2 صفحة 263.
3 صفحة 265.

أما بخصوص الفقرة: (*عش حياتك بفرح واندهاش*).! فهذا أمر ليس باستطاعة الإنسان التحكم فيه إذا أحاطت به ظروف الحياة المريرة وأناس مزعجون أو أنانيون غالبًا ما يفكّر المرء بدرء مساوئهم والابتعاد عنهم، كما أن موضوع 'الاندهاش' لا معنى له ولا علاقة له بالأخلاق ، فمّم يريدنا أن نندهش؟

أما دعوته:- (*أسعى دائماً للمعرفة المتجددة*)، فهو مبدأ مقتبس من الأديان أيضاً، جاءت الدعوة اليه في التوراة: (فيعلموهم كتابة الكلدانيين ولسانهم)،[1] وكذلك ورد في تعاليم السيد المسيح: (فتشوا الكتب).[2] وجاء به النبي محمد(ص): (أطلب العلم من المهد الى اللحد). وبالمناسبة إن النبي محمد كان يعلم جيدا أهمية العلم والتعليم، فهو أول من أوجد التعليم الإجباري حينما فرض على أسراه في معركة بدر تعليم كل فرد منهم عشرة مسلمين القراءة والكتابة لينال حريته.

ما يجلب الانتباه هو النقطة السابعة: (*كن مُستعدا لترك حتى* ***أهم ما تؤمن به*** *إذا لم يتطابق مع الوقائع*).[3] في الحقيقة إن النصح بترك ما يؤمن به الانسان، هو من أصعب الأمور على النفس البشرية وليس من السهل تنفيذ ذلك . لكن اتخاذ سبيل المشورة وتبادل الرأي قبل اتخاذ أي قرار يبدو أكثر فائدة وعقلانية، فتصادم صخور الأفكار تُظهر شرارات الحقيقة. ومع ذلك، فهي دعوة مستنسخة من دعوة السيد المسيح لحواريه باتباعه وترك أهليهم. لكن، لماذا أعاب على السيد المسيح هذه الدعوة فيما سبق؟!

1 سفر دانيال 4:1.
2 إنجيل يوحنا. 39:5.
3 صفحة 265.

في المبدأ الثامن: *(لا تمنع أحد عن ابداء الرأي..)*. إنها دعوة صائبة لحرية الرأي والفكر والعقيدة، وقد سبق و وردت في المنهج العالمي لحقوق الانسان، فلا حاجة للتمسح بها.

في المبدأ التاسع: *(لا تسمح بان يقودك الآخرين بشكل أعمى)*. مبدأ مكرر ومقتبس سبق وقدّمه السيد المسيح حينما أعاب هذا الأسلوب في التلقين: (عميانٌ قادةُ عميانٍ).[1] فمبدأ المشورة هو المفضّل، وعقلين يفكران أفضل من عقل واحد.

أما المبدأ العاشر والأخير: *(كن فضوليا في كل شيء)*. هذه صفة لا بد من الحذر منها ووضعها في أطر وحدود، وقد تنفر الأصدقاء وتبعدهم، فلا أحد يرغب بمصاحبة الفضولي لأنها عادة سيئة تتسبب في الكثير من المشاكل، فجميع البشر يرفضون كل أشكال التدخل في شؤون حياتهم.

يتضح مما سبق أن جميع ما اقترحه من أفكار، لم تكن أبداعًا جديدًا، اقتبسها من مبادئ الأديان التي سبقته في الدعوة اليها بآلاف السنين.*

في إشارته الى ما سبق وقدمه من اقتراحات، قال:- *(ليست تلك المجموعة من أعمال حكيم عظيم او نبي أو حتى أخلاقي محترف... يمكن لأي شخص أن يأتي بها في أيامنا)*.[2]

علينا التفريق بين ممارسة الفعل وبين مبتدع الفكرة . فجميع هذه المبادئ مستوحاة من أقوال الأنبياء وتعاليمهم وموجودة في كتبهم. أما التبجح بابتداعها، فذلك لا ينم إلا عن جهل بأصول مبادئ الأديان، أو نوعاً من التغاضي وغض الطرف المتعمد، بل تعتبر سرقة فكرية، لأنه - كما أثبتنا - أن الإنسان عاجز عن اختراق عالم الفوقيات

---

1 إنجيل متى 14:15.
2 صفحة 266.

والمعنويات ليستحضر مبادئ الأخلاق بنفسه . أما أن يظن صاحبنا أن باستطاعة كل انسان أن يأتي بها، فهذا ما دأبنا على توضيح خطئه.*

ثم يتحول لتقديم وصاياه الشخصية العشر، وقد اقتبسها جميعا من وصايا الأنبياء ومن الكتب المقدسة؟

فيقول:- *(تمتع بالحب).*[1]

بينما ورد في النسخة الإنجليزية الأصل:-

(Enjoy your own sex life.).[2]

إنها دعوة إباحية مقيتة سيئة يرفضها كل رجل وامرأة وكل رب عائلة شريف، إنها دعوة للتمثل بتصرفات الحيوانات الدانية. وهنا يبدو المترجم وقد أدرك خطورة ترجمة هذا النص بصراحة على أفكار الشرقيين، فاستبدل كلمة "الجنس" بكلمة "الحب"، ومع ذلك لنأخذ بحسن نيّته ، ولنكمل الردود.

فقبل ألفي عام وردت الدعوة لمبدأ المحبة في الانجيل بكل صراحة (الله محبة)،[3] و(أحبوا أعداكم، باركوا لاعنيكم، أحسنوا الى مبغضيكم).[4] ولكن ماذا تفعل مع من يبتغي الشهرة وينسى ويتناسى فضل الأنبياء عليه؟

كذلك قوله:- *(لا تقلل من شأن الآخرين).*

وهذا مبدأ اجتماعي مشهور.

(ولا تظلمهم على أساس الجنس أو العرق).

---

1 صفحة 266.
2 صفحة 264. النسخة الإنجليزية الأصل.
3 رسالة يوحنا الرسول الأولى. 16:4.
4 إنجيل متى. 44:5.

مبدأ وضعه النبي محمد(ص) قبل أكثر من ألف وأربعمائة عام: (لَا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى أَعْجَمِيٍّ وَلَا لِعَجَمِيٍّ عَلَى عَرَبِيٍّ وَلَا لِأَحْمَرَ عَلَى أَسْوَدَ وَلَا أَسْوَدَ عَلَى أَحْمَرَ إِلَّا بِالتَّقْوَى).

(لا تلقن أطفالك بل علمهم طريقة التفكير المستقلة).

مبدأ تربوي متداول ليس ببدعة منه ولا من ابتكاره، فكثير من وزارات التربية والتعليم في دول العالم أخذت العمل به.

(أحسب حساب المستقبل بمقياس زمني أطول من حياتك).[1]

وهذا ما سبق وقاله كثير من حكماء القبل، وفي مقدمتهم الإمام علي بن أبي طالب قبل أكثر من 1400 عام، والذي لم يثبت التاريخ العربي أو الإسلامي أنه دخل المدارس ولم يعلِّق شهادة جامعية في صالة منزله:- (اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا، واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا). ومن المؤكد إن دوكنز لم يسمع بذلك.

يقول:- *(العبودية، كانت تعتبر عادية في الكتاب المقدس وعبر معظم التاريخ الزمني اختفت في الدول المتحضرة في القرن التاسع عشر).*[2]

عاد مرة أخرى لمقارنة النظم الاجتماعية القديمة التي كان نظام العبيد والأسير جزءاً بارزًا ومهمًا من تكوينها الاجتماعي، ومقارنتها بالنظم التقدمية لهذا اليوم. ولغفلته عن قوانين الأديان القديمة، فلا أظنه سبق واطلع على موضوع حثّ القران لأتباعه على تحرير العبيد والتشجيع عليه (تحرير رقبة)[3] و (فك رقبة).[4] لكن الحكمة الإلهية تقتضي الحكم بما يتوافق مع قدرة أفراد المجتمع على تطبيقه (كلموا الناس على قدر عقولهم) و(لكي تطاع، أحكم بما يستطاع).

---

1 صفحة 266.
2 صفحة 266.
3 قرآن. المائدة 89.
4 قرآن. البلد 13.

لذلك لم يفرض الإسلام العبودية كقانون ملزم، بل حثَّ على تركه قدر استطاعة المؤمن ورغبته، فلقد كانت المجتمعات البشرية بحاجة الى قوة السواعد والعضلات لتنفيذ الأعمال الشاقة.

(كل الأمم المتحضرة الآن تقبل ما كان محظوراً حوالي 1920م بان النساء تستطيع الاشتراك في الانتخابات وأنهن مساويات للرجال. في أيامنا وفي المجتمعات المتحضرة لا تعتبر النساء كممتلكات، كما كان عليه الحال في أيام الكتب المقدسة).[1]

لا يبدو أنه أفلح في هذه النقطة أيضًا، فمنطق الذكورية وقانونه كان أسّ أساس نظام المجتمعات البدائية المعارض لحقوق النساء. بينما نجد في القرآن الكريم آيات كثيرة تحث المسلمين على مساواة حقوق المرأة مع الرجل. أما أن يتصرفوا بغير هذه الأوامر الإلهية، فهذا ليس عيبّا في شريعة الإسلام بل في تصرفات البشر. قال تعالى:- (إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا).[2]

يتساءل عن طبيعة وأسباب ما حصل أخيرًا من تطور اجتماعي وأخلاقي للبشر:- (*ما طبيعة ذلك التغيير وما سببه*).[3]

ذكرنا أن البشرية عاشت في مستوى متدنّي من الحضارة البدائية لملايين السنين دون تغيير يذكر، وفجأة ظهرت وانفجرت العلوم والمخترعات في القرن التاسع عشر، وما هذا إلا بفضل التجدد

1 صفحة 267.
2 الأحزاب 35.
3 صفحة 267.

الروحي والفكري الذي انطلق أخيرًا، فقد سبق وعلمنا أن مع ظهور أي ديانة إلهية يصاحبها نهضة فكرية إنسانية ، فلا غرابة أن نراها اليوم تعمّ جميع شعوب الأرض.

(حق المرأة في التصويت موجود الآن في جميع الديمقراطيات في العالم، ولكن هذا الاصلاح أتى في وقت متأخر جداً لحدٍ مدهش عبر القرن العشرين).[1]

لاحظنا بوضوح مقدار قلة اطلاع المؤلف على تاريخ ومبادئ الأديان القديمة والحديثة، فلقد دأب على حصر اهتمامه بقديم قوانين الكتاب المقدس الذي اعتمد على نظام الذكورية وراح يكيل له مختلف الانتقادات. وطالما بقي وغيره يعتمد على تعليل الأمور تعليلا ماديا، فلا أظنه سيصل الى جوهر حقيقة ما جرى ويجري منذ القرن التاسع عشر. ومن الواضح أنه لم يطلع على تاريخ سيدة شهيرة شابة، كان لقبها "قرَّة العين" أو "الطاهرة" من بلاد ايران "فارس". كانت فيلسوفة وشاعرة وخطيبة وداعية مفوّهة للديانة البابية في أظلم عهود الدولة القاجارية، تحدّت رجال الدين ووقفت أمام وجوههم وجادلتهم في أمور الأديان والعقائد. قتلت خنقًا في طهران في منتصف القرن التاسع عشر 1817-1852م بسبب دعوتها الصريحة لتحرير المرأة في كتاباتها وفي اجتماعاتها مع نخب سيدات المجتمع؛ كانت أول من نادى بتحرير المرأة في التاريخ الحديث، قال عنها الفيلسوف ادوارد براون كرانفيل[2]: "إنها سبقت زمانها بقرن كامل". وما يذكر عنها أيضًا، رفضها التخلي عن دعوتها لتحرير المرأة مقابل ان تكون سيدة ايران الأولى، وقالت وهي تخاطب ملكها الشاب المتغطرس ناصر

---

1 صفحة 267.

2 ادوارد براون (1862-1929)، مستشرق إنجليزي. نال شهرة واسعة قي الدراسات الشرقية وكان يجيد التحدث بالفارسية والعربية، حيث عين استاذ لهما قي جامعة كامبردج.

الدين شاه جوابًا على طلبه الزواج منها: (يمكنكم قتلي وقتما تشاؤون، إلا أنكم لن تستطيعوا وقف تحرير المرأة.)[1] وبذلك تكون أول امرأة تبنّت عقيدة دينية جديدة دعت لتحرير المرأة قبل شعوب دول العالم المتقدمة التي أسهب المؤلف في تعداد أسماءها.

(من المتفق عليه بين المؤرخين أن لا يحكموا على أقوال من الماضي بمقاييس الحاضر بالنسبة لهم).![2]

رغم علمه بهذه الحكمة! إلا إنه ما انفك يفعل عكس ذلك طوال فترة تأليف كتابه.!

(شيء ما تغير خلال العقود، شيء تغير فينا جميعاً، وهذا التغير ليس متعلقاً بالدين. بل إنه حدث بالرغم من الدين وليس بسببه ... التغيير هذا يتجه بشكل واضح باتجاه واحد، وأغلبنا متفقين بأنه تطور).[3]

لقد انتبه هو وغيره من المفكرين المعاصرين لقوة ثورة التحولات الاجتماعية والعلمية في جميع المجالات منذ القرن التاسع عشر وخلال العقود الأخيرة، ويتساءل: (*شيء ما قد تغير)؟* فماذا حصل بعدما مضت البشرية في مسيرتها الاجتماعية وقوانينها القديمة لآلاف السنين دون تغيير ملحوظ، حينما كانت تقرُّ جرائم العبودية واحتلال البلدان وظلم المرأة وخطف البشر واستعبادهم؟ ثم بعدما وصف امتداد هذا التغيير الى النفوس والعقول البشرية (*جميعا)*؛ فإذا به يُبعد الدين أن يكون سببًا لذلك، كونه يقيس ما حدث بالمقاييس المادية، بينما نرى الفيلسوف أرنولد توينبي يقول أن جميع

1 كتاب الطاهرة أعظم امرأة إيرانية. مارثا روت. صفحة 89.
2 صفحة 268.
3 صفحة 270.

الحضارات جاءت بسبب ظهور الأديان. ثم يعود ليقول أن ما حدث أمر مخالف للدين وليس بسببه.

من المؤكد أنه قصد قوانين الأديان القديمة التي عاش في كنفها، ولم يأخذ في الاعتبار ان هناك روح دين جديدة شملت العالم بتمامه وبعثت روح التجديد في النفوس والعقول، وان ما ظهر من تطور في الفكر الانساني الذي بهره وأدهشه، إنما هو من هذه الروح الإلهية المتجددة. لكنه عندما يعلن أن هذا التغيير لم يكن بسبب الدين وينكر تأثير الأديان في النفوس عمومًا، فهو ومن مثله لن يتمكنوا من مشاهدة مصدر هذه التأثيرات أو الشعور بها ولن يعرفوا حقيقتها وسيبقى وغيره يتساءلون عن سبب هذه الطفرة الحضارية الفكرية والاجتماعية الحديثة في حياة جميع شعوب الارض.

قال:- *(ما هو إذن مصدر تلك التغييرات الثابتة الاتجاه في الوعي الاجتماعي؟* ***ليست الاجابة من مسؤوليتي.*** *لأن هدفي يتحقق عندما أبرهن بانها* ***لم*** *تأت من الدين بأي شكل).*[1]

لقد خاب أمل السيد دوكنز حينما جهل المصدر الحقيقي لثورة العقل البشري، وسبب هذه الثورة الاجتماعية الحديثة. فهو ليس المستغرب الوحيد، بل يشاركه كثير من علماء الطبيعة في وقوفهم أمام حلّ هذا اللغز، منهم البروفيسور يوفال نوح حينما قال:- (إذا ما الذي حفز تطور دماغ البشر الضخم خلال هذه المليوني سنة؟ بصراحة، لا نعرف).[2] وما دامه لا يعرف، فليس له الحق أن يحدد (*إنها لم تأت من الدين)*. لقد كان المفروض به الصمت وانتظار سماع الرأي الآخر وعدم الإفصاح عن جهله بهذا الخصوص، علمًا أن كثير من الفلاسفة ، أمثال أفلاطون وأرسطو وسقراط وغيرهم من

1 صفحة 272.
2 العاقل. صفحة 20.

أعمدة الفلسفة اليونانية والفارسية والعربية والفرعونية، يساندهم لفيف من العلماء والحكماء في عصر التنوير، مثل اسبينوزا وكانط وفولتير وغيرهم، اعترفوا بوجود الله تعالى وتأثير أديانه على عقول البشر وقلوبهم.

لو تحققنا مليًا فيما حدث من تطور علمي وعقلي مميز في القرون الأخيرة، فلن نجد له سببا إلا ظهور الديانة البهائية سنة 1863 حيث أعلنت بصراحة إنها عالمية المبادئ والأهداف والقوانين، وأنها تناسب روحانية وعقلية جميع شعوب البشر قاطبة. والحقيقة لم أقرأ له حتى الآن إشارة لها في كتابه. لكن انتقاده للأديان بشكل عام، هو بالضرورة انتقاد لكل ما يمت للدين ولله تعالى بصلة . أما ما شدَّ انتباهي ودفعني لقراءة كتابه والرد عليه ، هو تحدّيه في تحويل قراءه الى ملحدين، وكذلك تحدّي المترجم حين قدَّم نبذة عن الكتاب - في فيديو قصير - مطالبًا أن يردَّ عليه أهل الأديان قديمها وحديثها، وبذلك كان المترجم: (ملوكيا أكثر من الملك).

إن سبب كل هذه الثورة الفكرية والتقدم في قوانين الشعوب الاجتماعية في القرنين الأخيرين، وما اجتاح العالم من أنوار القوة الروحانية، قد يكون بسبب ما صاحبت انبثاق الديانة البهائية، وقد تكون ديانة سماوية حقّة . فلو تفحصنا بعين الإنصاف والتجرد تاريخ حضارات الأمم، لوجدنا أن ظهور كل حضارة منها، سبقه بعقود أو قرون قليلة ظهور دين سماوي ، لذلك سميّت كل حضارة منها باسم دينها، كالحضارة الإسلامية، والحضارة المسيحية، والحضارة الموسوية، والحضارة البوذية، وهكذا... أما من يحمل مفاهيم مشابهة لأفكار الدكتور دوكنز، فلن يتقبل هذا الرأي حتى لو قدمت له جميع الدلائل والاثباتات من التاريخ البشري، وهذا ليس عيباً في شخصه، فهو يمثل موجة إلحاد مرحلية سرعان ما ستختفي مثلما ظهرت من

قبلها كثير من الأفكار المدمرة . والحقيقة أن الرجل لا يقدم رأيًا بديلا لكل ما ينتقده ، وغالبًا ما يتخطى ذلك ويهمله وهو يقول: ***(لن أخوض في ذلك، وليست الإجابة من مسؤوليتي)***، نعم هي ليست مسؤوليته، فمسؤوليته محددة بالهدم والتخريب، ومثله كمثل الأكمه حينما ينفي وجود القمر ونوره، فكيف يمكن اقناعه أن هناك جرمًا صخريًا ضخمًا لا يرتكز على قاعدة معلق في السماء؟

عندما يقول: ***(ليست الاجابة من مسؤوليتي)***، فالجواب يعود في أصل جذوره التاريخية الى ما جاء ذكره من نبوءات في أقدم الأديان السماوية حينما تتحقق نهضة البشر الاجتماعية والعقلية . فمثلا نقل الفيلسوف ديورانت عن النبي زرادشت إنه تنبأ بمجيء عهد السلام العالمي مستقبلًا: (ذلك أن قوى الشر ستُغلَب آخر الأمر ويكون مصيرها الفناء بعد أن يمر العالم بأربعة عهود طول كل منها ثلاثة آلاف عام... ويومئذ ينتصر الحق في كل مكان وينعدم الشر فلا يكون له من بعد وجود.)[1] وكذلك وعد السيد المسيح بنزول مملكة الله وتحول الأرض الى جنة إلهية بما سيطبق فيها من نظم وقوانين وضعية وروحية (فصلوا أنتم هكذا: أبانا الذي في السماوات، ليتقدس اسمك. ليأت ملكوتك. لتكن مشيئتك كما في السماء كذلك على الأرض.)؛[2] ووعد النبي يوحنا بمجيء السلام العالمي بين البشر، (وَأَنَا يُوحَنَّا رَأَيْتُ الْمَدِينَةَ الْمُقَدَّسَةَ أُورُشَلِيمَ الْجَدِيدَةَ نَازِلَةً مِنَ السَّمَاءِ مِنْ عِنْدِ اللهِ مُهَيَّأَةً كَعَرُوسٍ مُزَيَّنَةٍ لِرَجُلِهَا.)[3] وأشار القرآن الكريم الى تغيّر أحوال المجتمعات (يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَ السَّمَاوَاتُ)[4] وكذلك (وَاللَّهُ يَدْعُو الَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلى

1 قصة الحضارة. ديورانت. صفحة 342.
2 إنجيل متى 6: 10,9.
3 سفر رؤيا يوحنا اللاهوتي 2:21.
4 قرآن. ابراهيم 48.

صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ).[1] كما بشّر التوراة قديما بأسلوبه الرمزي بما سيحصل عند مجيء عهد سلام عام بين البشر: (يسكن الذئب مع الخروف، ويربض النمر مع الجدي، والعجل والشبل والمسمن معا.. والبقرة والدّبة ترعيان . تربض أولادهما معا، والأسد كالبقر يأكل تبناً، ويلعب الرضيع على سرب الصلّ، ويمد الفطيم يده على جحر الأفعوان.).[2]

فلو تناولنا هذه الرموز التصويرية حرفيًا ، ستكون من الخرافة التي يستحيل على العقل تصديقها أو تحققها ، فلا يمكن نزول مدينة من السماء بأبنيتها وأحجارها وشوارعها، ولا تتبدل الأرض والسماء بغيرهما، ولا تغير الحيوانات طباعها، بل جاءت الإشارة معنوية لتشير الى تغير نفوس وأخلاق وصفات البشر المختلفة حينما يتفقون على ترسيخ أسس السلام العالمي على الأرض.

قال:- *(اعتاق العبيد والنساء فإنه يدين الى شخصيات من القادة اللامعين. بعضهم كان متدينا والبعض الآخر لم يكن كذلك. بعض المتدينين فعلوا ذلك لأنهم متدينون. ولكن بالنسبة للبعض الآخر كان الدين مجرد* ***مصادفة)***.[3]

ونعود للقول: كان هناك آلاف مؤلفة مثل هذه الشخصيات والقادة اللامعين عبر مجمل التاريخ الإنساني، ولا بد أن فكر أو حاول أحدًا منهم تحرير العبيد والنساء، فلماذا حصل ذلك في القرن التاسع عشر والعشرين تحديدًا؟ كل ذلك حدث بسبب تأثير روح ديانة جديدة امتدت الى عموم عقول البشر.

---

1 يونس 25.
2 توراة سفر إشعياء 6:11.
3 صفحة 273.

وعندما يقول أن:- *(مارتن لوثر كينغ كان مسيحياً فإنه استقى فلسفته عن اللاعنف من غاندي الذي لم يكن كذلك).*[1]

بعد هذه المسيرة الطويلة مع المؤلف، تعودنا الانتباه الى طريقته في إخفاء نصف الصورة وتوجيه النور نحو نصفها الآخر . حيث لا يمكن القول أن هناك فرداً على الأرض لم ينحدر من عائلة دينية تؤمن بديانة ما. وعندما يقول أن مارتن لوثر قد اقتبس مبدأ (اللاعنف) في سياسته من غاندي، فمارتن كان راهب ألماني وقسيسًا مسيحياً وأستاذ لاهوت. هذا بالإضافة الى أن السيد المسيح قد سار على نهج اللاعنف قبل غاندي بألفيّ عام. أما أن ينسب لغاندي عدم التديّن وأنه لم يكن يدين بدين من الأديان، فهذا نوع من تزييف الحقائق ، فغاندي هندوسي الديانة يؤمن بتناسخ الأرواح، ما يعني أن روح الانسان تنتقل حين الوفاة الى إنسان آخر، كما يؤمن بتواسخ الأرواح أي انتقالها الى حيوان أو حشرة بعد الممات ، لتعود وتترقى من جديد حسب سابق ميزان أعمالها، لذلك يحرّمون قتل جميع الكائنات حتى الحشرات منها. كما ان غاندي عاش ودرس في إنكلترا، وقرأ وعاصر كثير من المفكرين والأدباء والعلماء في القرنين التاسع عشر والعشرين ، وبهذا فهو لم يكن بعيدا عن الفكر المسيحي أو النهضة الثقافية الأوروبية . في النهاية لا يمكن القول إن مارتن وغاندي هما من ابتدعا مبدأ (اللاعنف)، فالاثنان من خلفية دينية تدعو الى اللاعنف والسلام، إن كانت المسيحية أم الهندوسية.

يشير الى ارتفاع مستوى التعليم وتزايد تفهم البشر لمبدأ الإنسانية، وإنهما: *(فكرتان مضادتان بصراحة لمحتوى الكتاب المقدس، ومصدرهما الأصلي هو علم الطبيعة وخصوصا التطور).*[2]

---

1 صفحة 273.
2 صفحة 274.

ما يحاول الإشارة اليه هنا، هو أن مصدر فكرة التآخي الانساني ليس من التعاليم الإلهية. لكن إذا علم أن أصل العلم الذي يتغنى به قد وصله عن طريق شامان كان يعلّم البدائيين في العراء، أو عن طريق ساحر كان يسير بين الأدغال حاملا عصاه وكشكوله ومدخنته، لما قال ذلك؛ فالإنسان يعجز عن التفكير الذاتي إلا بعد اكتساب خميرة معلومات أولية تأتيه من انسان أكثر علمًا منه. وبذلك كان هؤلاء هم أصل العلوم ومبدئها ومنهم جاءتنا أول مبادئه؛ يقول ديورانت: (وعلى هذا النحو كان السحر هو الذي أنشأ لنا الطبيب والصيدلي، و عالِم المعادن، وعالِم الفلك. لكن الطريق أقصر بين الفلكي والساحر منها في سائر ضروب العلماء.)[1].

إن دوكنز لا يعلم او يتغاضى أو ينكر عن عمد أن أصل العلوم من الأديان. وعندما يعود ويكرر مقارنة مبادئ الانسانية بمبادئ زمن الكتاب المقدس ، فهو نوع من التجنّي الحقيقي غير المنصف، حيث سبق وأشار لخطأ هذه الطريقة بنفسه! فلكل زمن قوانينه الاجتماعية المناسبة، كما سبق وأشار الى مستوى الفارق الكبير بين علوم وسلوك البشر خلال منتصفيّ القرن العشرين. فإذا كان هناك فارق بارز بهذا الوضوح خلال قرن واحد من الزمان، فما باله يصرّ على قياس سلوكيات البشر اليوم مع ما كان قبل 33 قرنًا.

قال:- *(إن مؤهلاتي **كهاوي** في علم الاجتماع وعلم النفس **لا تؤهلاني** لشرح سبب التناسق الواسع في تغيرات روح العصر... ومهما كان السبب، فإن التعاقب المستمر لمظاهر روح العصر هو أكثر من كاف لنقض الزعم بأننا بحاجة للإله من أن نكون صالحين أو حتى لتحديد ما هو صالح.)*[2].

---

1 قصة الحضارة المجلد الأول. صفحة 63.
2 صفحة 274.

إن أي عالِم يحترم علمه ويعلم حقيقة قصوره العلمي في مجال محدد، يبتعد قدر المستطاع عن الخوض فيه، ومن الأفضل الامتناع عن عرض بضاعته البسيطة . فما قرأناه لحد الآن من كتابه لم يكن سوى مستوى شخص منحسر الثقافة يستعرض أفكاره مع صديق في مقهى على ضفاف نهر هادئ، ولا يمكن اعتباره بحثًا علميًا يؤخذ في الاعتبار . فكل ما اعتمد عليه هو التكذيب والنفي والاعتراض والانتقاد ، ولم يقدم فكرة علمية واحدة ترقى لاعتبارها منهجًا فلسفيًا يستفيد منها البشر . لكنه يستمر في التأكيد أن ما حصل في القرن الأخير من تقدم أخلاقي وعلمي لم يكن بسبب الدين . بينما في المقابل، قدمنا بدورنا أسبابًا كثيرة متفق عليها دينيًا وفلسفيًا وتاريخيًا وعلميًا، بأن الأديان هي سبب نهضة الفكر البشري قديمًا، وهي ذاتها سبب نهضته حديثًا. ومهما بحثنا في بطون الكتب، لا نجد إلا قلّة قليلة من العلماء أدركوا أن الأديان هي سبب ظهور الحضارات، فالغالبية ركزوا بحوثهم على أسباب انهيارها العسكري أو الاجتماعي دون التطرق الى حقيقة أسباب ظهورها. فما بالنا **بهاوٍ؟**

إن أشهر الحضارات مرتبطة بظهور أسماء رسل أو أنبياء أو أديان سماوية. وهذه نقطة جديرة بالاهتمام تشير الى العلاقة الوثيقة بينهما. فالحضارة الإسلامية مرتبطة بالنبي محمد(ص) وهو من وضع أولى لبناتها، والحضارة المسيحية أسسها السيد المسيح(ع)، و الحضارة اليهودية أسّسها النبي موسى(ع)، وأسس الحضارة الفارسية النبي زرادشت، والحضارة الصينية أسسها النبي كونفوشيوس، والحضارة الهندية أسسها النبي بوذا، وحتى حضارتي الرومان والإغريق تأثرتا بشكل غير مباشر بمعارف وعلوم الديانتين اليهودية والمندائية حينما كان يسافر مشاهير فلاسفتهم الى مصر وسوريا وبلاد فارس وحتى الى الهند لاكتساب علوم اللاهوت والطبيعة؛ من

هذا، هل يمكن القول أن تكرار توافق ظهور هذه الحضارات مع الأديان كان بمحض المصادفة؟ بل حتى حضارات العراق الغابرة ومصر القديمة لا يستبعد أن يكون سببها تعاليم عشرات الآلهة والأنبياء الذين ظهروا في تلك العهود القديمة واكتشفت آثارهم لاحقا، وحتى عند التدقيق وتفحص مسلّة الملك حمورابي ، نجدها تشير الى ذات السبب، فهو يقف بكل احترام أمام "نبي" جالس بكل وقار ليستلم أحكام شريعته منه ، مما يدل على أنه أعلى مقامًا من حمورابي . لكن وكما ذكر الفيلسوف توينبي، إن الحضارات الروحية وتأثيراتها لا تترك آثاراً مادية واضحة يمكن تتبعها.

واليوم هناك حضارة عالمية ناهضة شملت جميع بقاع المعمورة، وهناك في المقابل ديانة عالمية تنتشر روحانيتها بهدوء في كل مكان، أفلا يكون هذا التأثير الروحاني الجديد هو سبب هذه النهضة العلمية والعالمية التي يتعجب لعلاماتها دوكنز ويجزم أنه يجهل مصدرها؟ إن مسألة الإنكار والنفي لا يمكن اعتبارها فكراً أو علماً يُعتمَد عليه لبناء حضارة إنسانية ، فمن يتعصب لرأي مخالف، يمكنه إنكار كل ما يقدَم له من أدلة وبراهين مهما كانت قوية ودامغة.

قال:- *(الإلحاد يؤثر على الناس بشكل منتظم لعمل الأشياء الشريرة. ليس هناك أي دليل ولو صغيراً يدل على ذلك.)*.[1]

ذكرنا أن الانسان مخلوق روحاني في جسد مادي، لذلك فهو بحاجة الى رقيبين أو قوتين تحفظانه من شرور نفسه، لأن الجسد يسحب صاحبه دائما لتلبية احتياجاته المادية من طعام وشراب وجنس وثروة وسلطة والتي يتشارك في أغلبها مع حياة الحيوان، فإذا لم تُخمد نيران هذه الرغبات المادية بمياه مبادئ الأخلاق وخشية

1 صفحة 275.

الله تعالى والخوف من عقابه وكذلك بقوة القوانين الوضعية، ستستفحل وتتوسع شرورها لتشمل كامل أفراد المجتمع؛ إن أصل جرائم الطغاة جاءت من أفكار بشر أمثالهم كانت في ظاهرها وأول نشأتها جميلة الوقع على النفوس استهوت أنصاف المثقفين ودفعت بهم لتبنيها، لكنها بعد نموها واشتداد عودها، كشّرت عن أنيابها وفردت مخالبها واتضح مقدار ضررها ووحشيتها، وهذا ما يدعو الى الانتباه لما يقدمه المفكرون من فرضيات وأفكار وآراء اجتماعية، فأصل بداية الشرّ يأتي من فكرة وليس من عمل، فالإنسان لا يقدم على عمل ما، إلا بعد اختمار الفكرة في رأسه؛ وكما قال ابن خلدون نضوج ثمرة الفكرة هو بداية العمل. لذلك نحن الان في بداية انتشار فكرة إلحادية ظاهرها حرية الانسان وتوفير سعادته، إلا أنها ستكون وبالاً مستطيرًا في نهاية المطاف أسوأ بكثير من فكرة النازيّة والدعوات القومية العنصرية، حيث ستطفو شريحة جديدة من المسؤولين والرؤساء الأشرار عديمي الضمير ممن لا يخشون قانون أرض ولا سماء يدعون لاتخاذ القانون الوضعي البشري قانونًا وحيدًا أساسه المادية والمحسوسات، فإذا ضعف هذا القانون واختفى في أوقات الفوضى والحروب والانتفاضات والثورات الشعبية وعند سيطرة الميليشيات العنصرية المسلحة، فلن يمنعهم مانع من ارتكاب أشنع الشرور وأبشعها وإدخال البشرية في آتون الفوضى والتصادم والأزمات والحروب. صحيح أن هناك من الملحدين من يتّسم بصفات اللطف والأخلاق الحميدة ، لكنها تبقى هشّة متذبذبة تسقط أرديتها وتتعرى عند أول اختبار أخلاقي حقيقي لها؛ إن بقايا هذه المبادئ السامية في النفوس كان مصدرها التراث الديني للأمم، ولم تنبع من دوافع نفسية فردية ذاتية بشرية بأي شكل من الأشكال، فالإنسان الخالي من المبادئ الروحية والأخلاقية، ما هو إلا وحش كاسر هادئ

في حالة سبات، من الممكن أن يؤذي كل من حوله حينما يحين الظرف وتحلّ الفرصة المواتية، وقد يؤذي حتى نفسه.

إن سلوك منهج الإلحاد سيجر المجتمعات الى قانون سيطرة الأقوى ولن يختلف في شيء عما سبق من قوانين فاسدة تسببت في تأخير مسيرة الإنسانية العامة وتعثرها . فمن يظن إن الانسان الملتزم بحسن الأخلاق في الشعوب الراقية قد كسبها بتحصيل ذاتي، فهذا مفهوم خاطئ، لأنه موروث اجتماعي ديني قديم ما زالت بقاياه تؤثر بدرجات مختلفة في النفوس . أما الدعوة الى حرية التصرف المطلقة وأن يفعل الانسان ما يحلو له ، فهذه دعوة واضحة الفساد، لأن صفة الأخلاق، سريعة العطب إذا ما خلا المجتمع من منابع الضمير والايمان ومهابة القوانين، وسيسارع كل من شاء لتلبية رغبات غرائزه الحيوانية. لذا فالإنسان القديم لا يمكن أن يكون قد استوحى من الطبيعة مبادئه الأخلاقية مهما كانت بساطتها، فليس للطبيعة أخلاق لتقدمها، ومبادئها وقوانينها مجسّمة في شراسة عالم الحيوان وبلادته؛ إن الأخلاق هي ما يميز الانسان عن الحيوان وبدونها ينقلب مجتمع الانسان الى محيط أسوأ بكثير من عالم الحيوان، لأن الانسان يمتلك عقلًا مدبّرًا يأخذه نحو ارتكاب أفانين الشرور، وساعتها سيبدع في إيجاد أبشع الشرور والمظالم مثلما أبدع في إيجاد أنواع الاسلحة المدمّرة والمخدرات والسموم القاتلة وجرائم الإبادة الوحشية، ولن يتمكن حكماء البشر وفلاسفتهم مهما بذلوا ساعتها من جهود على الحدّ منها أو تقويمها.

إن السلطتين الداخلية والخارجية (القانون السماوي والقانون الوضعي) هي أسَّ أساس الحفاظ على المجتمعات، فإذا ما غاب أحدهما فلن يتمكن الثاني من سدّ فراغه والسيطرة على الفوضى واضطراباتها مهما كان كاملًا ومتقنًا.

نعم، هناك أناس طيبون كثيرون جدًا في مختلف أسر المجتمعات لا يُسمع عن كرمهم وفضائل أعمالهم شيئا ولا يحبذون الظهور في واجهة المجتمع ، وأصل هذه الفضائل جاءت أيضًا من تعاليم الأديان الإلهية وليس من النفس البشرية، فلقد ورد في الإنجيل:- (وأما أنت فمتى صنعت صدقة فلا تعرف شمالك ما تفعل يمينك.)[1] وورد ذات النصح في أقدم الكتب السماوية:- (وإذ تهبون صدقة يا أصفيائي لا تُشهدوا عليها . لا تعلم يمينكم بما وهبت شمالكم، ولا شمالكم بما وهبت يمينكم. بئس من وهب صدقة فأفسدها بالتشهير.)[2] بينما نرى فردًا شريرًا واحدًا آمن بفكرة شيطانية وعمل على تغذيتها واهتمَّ بنشرها وجمع حوله الطامعين وأخمد كل مقاومة بقوة النار والدم، يسعى لتأليه نفسه مستغلا سلطته لتنفيذ مآربه وفرض فكرته حيث تكون مبادئ العصبية القومية أو العرقية أو الوطنية أو الدينية أو الحزبية عوامل مساعدة لهذا الاستفحال والتسلط. وباستمرار تزايد مثل هذه الحالة، يتحول الفرد الى رمز تتعبده الجماهير إما خوفا أو مرغمة، فيتمكن شيطان الغرور وإبليس الحقد وآفة الأنانية بشكل مرعب من نفس هذا الحاكم ونفوس أتباعه ويستهينون بأرواح البشر ويسترخصونها فينهبون أموالهم ويسيطرون على حرياتهم تحت مسميات زائفة، مثل الوطنية والقومية والمحافظة على أمن الشعب والدفاع عن أذيال رداء شرف الوطن التليد.

إن فكرة الإلحاد من أخطر الأفكار التي لم يسبق أن مرت على البشرية فكرة شريرة أكثر منها، فهي تسعى لتلبية نيران رغبات الجسد المادية، وهي ضمراء لا يطفأ لها لهيبًا ، فكلما أُطعمت، كلما زاد سعيرها. لذا لا بد من قانون إلهي يلجمها، ومن مبادئ روحية

---

1 إنجيل متى 3:6.
2 كتاب كنزا ربا القسم اليمين. صفحة 13.

تحد من شرورها، لتتعاضدا مع القوانين الوضعية في منع انتشارها. وهذا ما سعى اليه جميع رسل الله وأنبياؤه عند تقديمهم مبادئ الأخلاق والآداب ومفاهيم إحياء الضمائر من قبل، وهذه المبادئ الراقية لم يكن لها مصدر سوى رجال الأديان المقدسين.

يقول عن ستالين:- *(ليس هناك أي أدلة عن أن إلحاده كان سبباً لعنفه)*.[1]

فكرة الإلحاد ليست بيرقًا يغرزه الشخص في قبعته أو يعلقه فوق منزله ليراه ويتعرّف عليه الآخرون. في الحقيقة أشعر أن هذه عبارة مخجلة تصدر عن رجل يدّعي الأخلاق ويبتغي راحة البشر وسلامتهم. فقبل قليل ذَكرَ أنه من الهواة في علوم النفس والاجتماع؛ أما قوله أنه لم يثبت أن هؤلاء القادة (ستالين وهتلر وغيرهم) كانوا ملحدين، فهنا تكون المصيبة، خاصةً بعدما فعلوه من كوارث اجتماعية كبرى. فلو تفحصنا شخصيات جميع القادة الأشرار، سنجد بينهم عوامل مشتركة، مثل القسوة والعنف والاجرام والاستهانة بالنفس البشرية واحتقار الآخرين، إضافة الى إيمانهم بفكرة فلسفية غير مختمرة ولا مجرّبة ابتكرها انسان دفعته عوامل ثقافية ونفسية واجتماعية كانت بمجملها تربة خصبة لظهور نبتة فكرته، فظنَّها مفيدة للصالح العام تعمل في تحسين أوضاع المجتمع وأخلاقهم ومستواهم الاقتصادي. وقد تكون حقيقة دوافعه رغبة دفينة لنيل السلطة أو المال والشهرة أو بدافع الحقد أو الأنانية الجشعة، من يدري؟ فيكون كل ذلك وغيره، أسّ أساس ما زرعه من جراثيم الأفكار في عقول قراءه ومناصريه؛ إن الأفكار الشريرة لا تستقر داخل النفس، إلا بعد أن تخلي مبادئ الأخلاق موقعًا لها.

---

1 صفحة 275.

ذكر أن ستالين تلقى تعليمه في دير ارثودوكسي، أما عن هتلر فذكر أنه ولد لعائلة كاثوليكية ودرس في مدرسة كاثوليكية.[1]

يحاول جهد قدرته نسبة الشرور الى الأديان. وهذا ما سبق وأكدنا عليه قبل قراءة هذه المعلومة، أن هذين الشخصين وجميع البشر لا بد وأن كان لهم أو لعوائلهم جذور دينية . لكن ما حصل، إنهما قد جحدا وألحدا ومرقا وأنكرا ما دعت اليه أديانهما من حسن الأخلاق والفضائل وضربوا بها عرض الحائط، وبهذا كانا وأمثالهما من أشرّ الملحدين وأرذلهم؛ إن خلو موقع المُثل العليا داخل النفس، لا بد وأن تحل محلها جميع أنواع الشرور والرذائل.

ينقل من رسالة لمعاون هتلر، "رودولف هيس" في مدح أخلاق هتلر، قوله:- *(أعرف هتلر شخصياً معرفة جيدة وأنا قريب جدا له. إنه شخصية شريفة بشكل غير عادي، مليئة باللطف وهو متدين وكاثوليكي جيد).*[2]

إذا كان هتلر متدينًا وشريفًا ولطيفًا، فكيف تكون إذًا مواصفات عتاة المجرمين والقتلة؟! ما لهذا الرجل يتناول أسوأ شخصيات التاريخ ليبهرج ويزيّن صورهم ويزوقها؟! لا أظن أن أي قاض عادل حكيم أو انسان شريف، سيقبل بهذه الشهادة من مجرم حرب شارك سيده بالتحضير لتنفيذ جرائمه العالمية ضد كل مجتمعات البشر. ولهذا أدين وحكم عليه بالسجن المؤبد . وهذا يذكرني بما قاله السيد المسيح ميزانا للتعرّف على النفوس:- (هكذا كل شجرة جيدة تصنع أثماراً جيدة، وأما الشجرة الردية فتصنع أثماراً ردية).[3] وورد عن النبي محمد(ص): "إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى".

---

1 صفحة 276.
2 صفحة 276.
3 إنجيل متى 17:7.

إن جميع البشر يتشابهون في الكلام، أما الأفعال فهي المحك الحقيقي لنواياهم ومقاصدهم.

قد يكون الشخص حلو اللسان والمعشر جميل الطلعة، لكن في أول فرصة اختبار لسلوكه يتبين طيب جوهره أو خسّة معدنه. ومن الغريب أن يستشهد دوكنز برأي 'هيس' على حسن أخلاق هتلر.! فأي منطق أهوج أعوج هذا.! فأخلاق الإنسان تقاس بقرينه، ولا قيمة ولا اعتبار لندمه بعدما ساهم في إشعال حرب ضروس راح ضحيتها قرابة الخمسين مليون إنسان، غير أعداد اليتامى والأرامل والمعوقين وانحدار المستوى الأخلاقي لشعوب أوروبا بل والعالم أجمع . فلقد ذُكر في تاريخ الشرق الأوسط على سبيل المثال، أن الناس بدأت تخطف الأطفال من أزقة الحارات لتأكلهم بسبب شدة الجوع خلال سنين الحرب، بعدما سيق غالبية المزارعين والعمال الى ساحات الوغى والقتال . أما عمليات الهولوكوست وحرق الأطفال والنساء لمجرد انهم على دين آخر أو عرق آخر، فيعتبر عملاً في منتهى الإجرام والوحشية والعنصرية، فمثل هذه الجرائم البشعة دليل واضح على أن "هيس" لم يعرف سيده ولم يكن في قلبيهما مقدار ذرة من الرحمة ولا خشية من الله تعالى، ولم يكتسبا شيئًا من أخلاق سيدهما المسيح، وبالتالي ليس هناك أية قيمة لندمه . إن تقديم دوكنز لمثل هذه الأمثلة التافهة والأعذار الضحلة، لا يمكن وصفها إلا "ضحك على الذقون"، الغاية منها تبرير نعومة جلد ثعبان أناكوندا الإلحاد.

قال:- *(شرّ النظام الهتلري لا يمكن اعتباره نتيجة لإلحاده).*[1]

لنأخذ هذه النقطة من جانب آخر، فلو كان هتلر وأمثاله يؤمنون بحق الانسان في الحياة وبحرية العقيدة والفكر وحرية الإرث الثقافي

---

1 صفحة 279.

والمعتقد، ويحترم حرية الدول والشعوب في اختيار أنظمتها السياسية ولا يؤمن بتفوق العرق الآري؛ هل كان سيقوم بحروبه ومهاجمة بقية الأوطان والشعوب؟ أظنه تعرف الجواب. وإلا فكيف يكون شكل من لا يؤمن بدين ومن لا يخشى عقاب الله؟

مرة أخرى يقول:- *(الحروب الدينية حصلت بسبب الدين، وتكررت كثيراً عبر التاريخ. ولا أذكر أي حرب حصلت تحت اسم الإلحاد. ولماذا تحصل؟)*.[1]

إما أن يكون دوكنز ضعيف في مادة التاريخ ، أو أنه - كما لمسنا من أسلوبه - يخفي نصف كأس الحقائق. فلقد سبق وعدّدنا بعض كبريات الحروب التاريخية المدمرة التي ليس لها علاقة بالأديان، مثل حرب اليابان مع الصين، وحرب القرم، وحرب روسيا واليابان، وحروب الكوريتين، وحرب أمريكا وفيتنام، وغزوات جنكيز خان وهولاكو، وعمليات الإبادة بين قبيلتي الهوتو والتوتسي، وغزوات الاسكندر المقدوني، وحروب الرومان والفرس، ومذابح الاسبان عند احتلال جزر البحر الكاريبي وأمريكا الجنوبية والقضاء على امبراطوريتي المايا والأزتك، اضافة الى جميع حروب التحرير الوطنية وحرب الخليج وعاصفة الصحراء الى حرب الثمان سنوات بين ايران والعراق حيث تقول التقديرات غير الموثقة بمقتل أكثر من مليونين ونصف رجل، وهذه الحرب لم تكن دينية كما ظنها الكثيرون، بل كانت حرب سياسية بين حكومتين، الأولى تحمل فكرًا توسعيًا عرقيا - كما ثبت لاحقًا - والثانية تحمل مفاهيم قومية علمانية، رغم إن الاثنان كانا يغلفان دوافعهما الشريرة بأغطية مبادئ دينية ووطنية زائفة للتسويق الاجتماعي ودفع جحافل الرجال والشباب الى

---

1 صفحة 281.

موت زؤام غير مبالين بما سيتركه كل ذلك من فساد الأخلاق بين الشعبين. لقد كانت جميع هذه الحروب السياسية وغيرها الكثير، أوسع انتشارًا وأفدح خسائرًا من الحروب الدينية. إن تقديم هذه الأمثلة ليس لتبرئة أتباع الأديان مما قاموا به من اعتداءات وحروب وإرهاب على غيرهم، بل دليل على أن الحروب لا تقتصر عليهم.

إن لكل شيء في الوجود فائدة في حالة استعماله أو عند الكف عنه. وفكرة الإلحاد تعتمد في الأساس على (نظرية العدمية)، أي انها تدعو للظنّ بوجود العدم. عدم وجود الله، وعدم وجود أرواح، وعدم وجود أيمان، وعدم وجود حساب أخروي، وعدم وجود عالم روحاني ..الخ، فهي دعوة لها مؤثرات سلبية مثلما هو الحال في عدم وجود غذاء أو ماء أو دواء، فكلما كانت الحاجة للشيء بسيطة يكون ضرر عدمه بسيطًا، وكلما زادت الحاجة إليه، كان ضرر عدمه أكبر؛ ومسألة الإلحاد تركز على تنحية الأيمان من القلوب، لهذا سيكون أعظم الضرر عند انتشاره. فعندما نتعصب لفكرة الأنا، يكون سببًا لظهور فكرة كراهية الآخر أو على الأقل تفضيل النفس على الغير، إذ من الطبيعي ظهور فراغ في النفس عند خلو مشاعر محبة الآخر. هذا الفراغ بحد ذاته هو أمر سلبي، وكذلك فكرة عدم وجود الله تعالى ستترك فراغاً في الروح الانساني يدعو بالضرورة لإحلال شعور آخر مخالف ليحل محله، ولن يشغل هذا الفراغ إلا فكرة الإلحاد السلبية، مثلما يحتل الجهل فراغ موقع العلم، وتحتل السفاهة والحماقة فراغ موقع العقل والحكمة، وفراغ مكان القانون يستبدل بالفوضى والاضطراب، ويتربع الكفر في مكان الايمان. فلكل هذه الأمور وما شابه، معنوية كانت أم مادية، أضرارًا مناقضة مخالفة لها، تتساوى مع قوة تأثيرها. واعتناق فكرة الإلحاد سيؤدي حتمًا الى عدمية سلبية خطيرة، وهذا أمر مخالف لطبيعة وجود الانسان وجوهر نفسيته،

لأنه مخلوق اجتماعي لا يمكنه العيش إلا في وسط اجتماعي يعتمد فيه على غيره ويتعاون معه، فيؤثر فيه ويتأثر به، ومن أول نتائج فكرة "الأنا"، تفكك أواصر العائلة وعدم الإحساس بأهمية الفرد باعتباره لبنة هيكل المجتمع الأولى.

أما تساؤله لماذا تحصل الحروب؟ فسبب ذلك: إن جميع صفات الشر الحيوانية تظهر في نفس الانسان بسبب عدم تربيته.

من المؤسف أن يتساءل المؤلف في نهاية هذا الفصل:- *(من ذا الذي سيخرج للحرب بسبب عدم الأيمان بشيء ما)؟*[1]

ها هو يعيدنا في نهاية الفصل الى أفكار الخيال والوهم! إذ كيف يمكن للإنسان أن لا يؤمن بشيء؟ فما يميز الانسان عن الحيوان، هو أن الإنسان فكرة، الإنسان عمل، الإنسان وجود، الإنسان ضمير، الإنسان محبة، الإنسان حياة، الانسان أخلاق، الانسان حضارة، الإنسان هو أنت وأنا، الإنسان عالم داخل عالم؛ فلولا وجود الإنسان لا يمكن أن يكون هناك شيء في هذا الكون، فلا يشعر بوجود الكون إلا الانسان صاحب العقل، والابتعاد عن هذه المشاعر والمبادئ المثلى، ستجعل الإنسان مساويًا في درجته مع الحيوان، وسيكون هنالك ألف هدف مادي للحرب والقتال.

1 صفحة 282.

الفصل الثامن
ما هي مشكلة الدين؟
ما سبب كل هذه العدوانية؟[1]

من جديد يبتدئ هذا الفصل بانتقاد ما ورد في الكتاب المقدس عن وجود الجحيم والنيران والتعذيب والآلام ، ويتناسى مرة أخرى أنه اسلوب قديم عمره آلاف السنين حتى قبل ظهور الدين اليهودي ذكرت في برديات وآثار الأساطير العراقية والمصرية، وبالمجمل هي لا تناسب تطور عقلية انسان اليوم، بل كانت لأطفال البشرية حينما كانت العقول بسيطة لا تستوعب أفكارًا فلسفية معقدة ، لذا كان لزاماً مخاطبتهم بأسلوب الترهيب والتخويف.

يقول:- *(ما أؤمن به كعالم وعلى سبيل المثال نظرية التطور...).*[2]

نظرية التطور التي جاء بها داروين تقول أيضًا بتطور الكائن في حدود فصيلته وكينونته، أي ان الطير او الغزال او الأرنب وغيرها، تبقى كما هي في إطار نوعيتها وفصيلتها عبر العصور مهما امتد الزمان ، فأشكالها وهيئاتها قد تتغير وتتطور لتتكيّف مع تغيّر أحوال الطبيعة وتبدل طقوسها الجوّية واختلاف أماكن تواجدها، ولا تقول النظرية بحتمية تغير الأرنب الى غزال والقط الى أسد.

قال:- *(عندما يخطئ كتاب علمي ما ، فإن شخصاً ما سيكتشف الخطأ وسيتم تصحيحه في الكتب التي تليه. شيء كهذا لا يحصل أبدا مع الكتب المقدسة.).*[3]

---

1 الصفحة 283
2 صفحة 285.
3 صفحة 285.

فكرة خاطئة أخرى، دليل ذلك توالي نزول الكتب السماوية وتجدد أحكام شرائعها ومفاهيمها حسب تطور الزمان والمجتمع في الماضي وحتى الوقت الحاضر. لكن دوكنز مثله مثل غيره من علماء عصر التنوير اقتصرت دراساتهم وبحوثهم على الكتاب المقدس ولم يعرفوا كتابًا غيره ، فكان ذلك سبب تعميم انتقادهم للأديان. إن أصل فكرة "عدم تطور كتب الأديان"، أُخذت من محاولة أتباعها فصل وابعاد كل كتاب مقدس أو دين أو رسول عن المنهج الإلهي العام في تربية البشر، فكل أمة سابقة أنكرت وتصدّت لما ظهر بعد دينها من رسل ورسالات جديدة . فلو شبهنا توالي الأديان والكتب السماوية بمناهج الدراسة، كل منها يستند على ما سبقه من علوم ومعارف ويهيأ الطالب ذهنيًا لمرحلة تالية أرقى من سابقتها، لفهمنا ما دأبت عليه الكتب الإلهية من مناهج متسلسلة، فهي التي نقلت البشرية من حالة الحيوانية الأولى الى حالة الايمان بالطواطم والتابوهات، ثم الى مرحلة الايمان بالكواكب والنجوم، ثم الى مرحلة تعدد الآلهة، ثم الى مرحلة الأيمان بالأنبياء، ثم الى مرحلة الأديان العالمية، وأخيرًا الى هذا اليوم حيث الحاجة الى دين عالمي يجمع البشر على معتقد يتوافق مع تنوّر العقول وتفتّح الأذهان وكثرة العلوم ليبعدهم عن جميع أشكال التعصبات وينفخ فيهم روح المشاعر الإنسانية النبيلة تجاه بعضهم البعض دون النظر الى اختلاف أجناسهم.

أما ما يطفو على السطح من تقطيع أوصال الأديان، والظن أنها مناهج مستقلة لا علاقة روحية أو تربوية تربط بينها ، فهو من ظنون البشر وأعمالهم وليس عملًا إلهيًا، بدليل ما يردد الأنبياء من أسماء بقيتهم ولا ينكر كل نبي لاحق نبيّ سابق، فجميعهم احترموا وقدّسوا من جاء قبلهم ومجّدوهم وبشروا بمن سيأتي بعدهم، مثلما هو حال الطالب، يعلم أنه ارتقى من مرحلة دراسية أدنى وسينتقل لمرحلة

أعلى. لكن الفرق بين الحالتين، إن المدرسة مدتها قصيرة يمكن رؤيتها ولمس تأثيراتها خلال فترة محددة من الحياة، بينما الأديان طويلة الأعمار تمتد لبضعة قرون، فيلتبس على أتباعها تتابع استمرار مناهجها نتيجة ما يخلقه رجال الأديان من تعصبات.

يقول:- *(أيماني بالتطور ليس تطرفاً وليس أيماناً عقائدياً لأنني أعرف تماما ما يمكن أن يغير تفكيري، وسأغيره بامتنان عندما تظهر الأدلة الكافية على ذلك).*[1]

أرجو أن يقتنع بما ورد من أدلة عقلية ومنطقية وفلسفية في أجوبة هذا الكتاب، لأن إثبات الأمور الميتافيزيقية والروحية لا يمكن تناولها وفهمها إلا بوضعها داخل قوالب الكلمات حتى ترى وتلمس، لذلك تضرب الأمثال العقلية والمنطقية لحاجتها الى بصيرة روحية ومنطق عقلاني شفاف.

(كرجل علم فأنا أحمل العداء للتطرف الديني لأنه يقوم بالإساءة للمشاريع العلمية بشكل متواصل).[2]

هذا منظور صائب، يوافقه جميع العقلاء الذين يسعون لإزالة الجهل من بين البرية ، ومن يؤمنون أن التطرف الديني هو نوع من أنواع التعصبات البغيضة لا بد من السعي الحثيث لإزالته من عقول وقلوب البشر بجميع الوسائل العلمية والروحية الممكنة . لذلك لا بد من ارتداء إزار الهمّة والشروع بالعمل على نبذها جميعًا بمختلف أشكالها، واعتبار أن ما كان من أمر تعصب رجال الدين ضد العلم، سببه انخفاض مستوى العلوم، والايمان الحرفي بنصوص الكتب.

يشير بحزن الى أحد علماء الآثار وعلم المستحثات الأمريكان من جامعة هارفرد، وكيف فضَّل الأيمان بقول الكتاب المقدس بأن

---

1 صفحة 286.
2 صفحة 287.

الأرض عمرها أقل من عشرة ألف سنة، على العلم الذي يقول بأكثر من ذلك.[1]

هذا ما جاءت الإشارة اليه في الفقرات السابقة من ضرر التعلق بحرفية نصوص الكلمات. ونحن نقاسمه هذا الحزن عندما نقرأ أو نسمع من بعض رجال الدين وغيرهم، أن الأرض مسطحة واقفة في مكانها، والشمس تدور حولها.

قال:- *(التطرف الديني نزعة بدون رحمة لتخريب الثقافة العلمية للآلاف مما لا يحصى من الأبرياء ذوو النوايا الطيبة والعقول الشابة المندفعة.)*.[2]

رأي صائب، فالإنسان يولد وهو نقيّ القلب والعقل، والمجتمع هو الذي يملئهما بما يسوده من أفكار، فكم من عالِم نحرير قُتل أو سُلخ جلده أو بترت أعضائه أو سُقي السمّ أو احرقت ودمرت كتبه بسبب أفكاره العلمية على مرّ العصور؟ واليوم نسمع ونشاهد ما يرتكبه المتطرفون من اجرام وتسميم لعقول الشباب والصبيان وحثّهم على تبني مبدأ كراهية الآخر أو تعليمهم طرق القتل والذبح ، وكيف يكثرون من زوايا وتكايا تعليم هذه الأفكار المخربة للعقول والضمائر بتشجيع من رجال دين أو سياسيين يغضون الطرف ويسمحون بزراعة بذور هذه الممهدات والدوافع لارتكاب الجرائم والتخريب، لأنهم يعلمون جيدا أن جهل المواطن يديم عمر القائد الفاسد ورجل الدين الجاهل على كرسي السلطة ومنبر الخطابة.

(الدين المعتدل.. يجعل الطريق ممهداً للمتطرفين عندما يتم تعليم الأطفال منذ نعومة أظافرهم بأن الأيمان بدون شك قيمة عليا).[3]

---

1 صفحة 287.
2 صفحة 289.
3 صفحة 289.

فكرة "الدين المعتدل"، بحد ذاتها فكرة وهمية لا يمكن تحققها، طالما توجد نصوص سماوية أصيلة تقدم معنيين مختلفين أحدهما يدعو لمحبة الآخر والثاني يدعو لاستخدام القوة والعنف وقت الحاجة. وهذه النصوص لا يمكن تغييرها إلا بنصوص سماوية جديدة من ذات المصدر الأعلى وبنفس القوة، وهذا هو سبب تجدد الأديان لمواكبة تطور العقل البشري ومجتمعاته. أما تعليم الأطفال حرية التفكير وتجنّب أذى الآخرين وحثّهم على مساعدة الغير والعمل على خدمة المجتمع هي من أسمى المبادئ الإنسانية، وليترك قرار اعتقاد الطفل بدين الأجداد حتى حين نضوجه.

(أحد أعنف العقوبات في العهد القديم هي التي تنفذ بحق الكافر).[1]

نعيد القول إنه قانون غابر صَلحَ لتلك الأزمان القديمة ، لأن الخلفية الاجتماعية لتلك الشعوب ورثت من مجتمعات بدائية لا تعرف غير سبيل العنف في التعامل. ولو كان دوكنز قد عاش في تلك الأحقاب، لوجدناه قد ألَّف كتابًا في مديح تلك القوانين الشرسة، ومن الوارد أن يظهر من بعده مؤلف آخر في هذا اليوم، ينتقد ما سبق وكتبه صاحبنا في قديم الزمان.

قال:- *(حكم على الطبيب المحاضر يونس شيخ بالموت لكفره. وجريمته بأنه قال لطلابه بأن محمد لم يكن مسلما قبل أن يخترع ذلك الدين في الأربعين من عمره.)*.[2]

أظن أن تجريم الرجل جاء بالدرجة الأولى نتيجة استعماله كلمة (*يخترع*) مما يعني أن دين الإسلام دين وضعي أوجده النبي

---

1 صفحة 290.
2 صفحة 290.

محمد(ص). فعموم المسلمون موقنون أن القرآن نزل من عند الله تعالى ولم يؤلفه النبي محمد.

(لا يسمح القانون الباكستاني (والاسلامي) بزواج المسلمة ممن هو غير مسلم).[1]

سبق وجئنا على هذا الموضوع. ونعود للقول: هذا ليس بقانون اسلامي، بل هو قانون أتباع الإسلام. لأن رجال الدين لم يعطوا اهتماما لحكمة النبي محمد في زواجه من أكثر من امرأة ، بعدما أعطى بذلك مثالا للتعايش مع بقية أتباع الديانات. ولو انتبهوا، لوجدوا أن من بين زوجاته، القبطية والنصرانية واليهودية والمشركة. وإذا أخذنا الأمر بمنظور أشمل، لوجدنا قصور الملوك والأمراء المسلمين على مدى قرون طويلة غصّت بالزوجات ومئات الجواري من مختلف أديان شرق وغرب الأمة الإسلامية بموافقة رجال الدين. فالإسلام لا يمنع الزواج من بقية أتباع الأديان ، إنما هي بسبب ما انتشر مؤخرًا من موجة التعصب والانعزالية المخالفة لمبادئ دين الإسلام الحنيف.

قال:- *(لا يزال ذلك القانون نافذاً في افغانستان "المتحررة" بأن عقوبة الردّة هي الموت... والعقوبة الرسمية في القانون الاسلامي هي الموت).*[2]

طالما كان المؤلف غير مطّلع بشكل جيد على فقه ديانة أجداده، فلا عجب أن يجهل فقه أحكام دين الإسلام. ولو اطلع، لَعَلِم أن عقوبة الردّة في القران قد تركت الى ما بعد الموت (إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ).[3]

---

1 صفحة 290.
2 صفحة 290.
3 سورة محمد 25.

أما ما ينسب للرسول محمد(ص) أنه أجرى هذا الحكم، فقد جاء في روايات أحادية ضعيفة - وما أكثرها - كتبها من ظنَّ أنه يمتدح ويبجّل نبيّه بذلك، بينما يكذبها في المقام الأول، ما اتصف به النبي محمد(ص) من حكمة وذكاء وحلم ونبل ودماثة أخلاق.[1] فمن بُعث ليتمم مكارم الأخلاق لا يدعو لقتل من رفض الأيمان بدعوته وهو يرفع شعار (فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ)،[2] ويعلم جيدًا أن الله أمره أن لا يكون وصيًا جبارًا على قلوب البشر وعليه ترك شأن أيمانهم (وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ).[3]

إن حقيقة عقوبة الردّة قد أوجدها الخليفة الأول بعد وفاة النبي مباشرة وسمّيت بحروب الردّة، فالتبس على المسلمين الأمر بسبب إجلالهم لصحابة النبي على اعتبار أن الخليفة الأول كان صديقًا ملازمًا للنبي(ص) لفترة طويلة وافترضوا عدم سهوه أو نسيانه.*

من صفحة 291 وما بعدها ، يعاود تكرار نقاط سبق وتناولها ، فيتكلم عن الاجهاض والمثلية والبويضة والاعتداء الديني و الانتحاريين طالبي الشهادة ، إضافة الى حكايات منتقاة من الصحف والأنترنت، وهي أمور عامة لا موجب للتعليق عليها حيث ليس لها علاقة مباشرة بفكرة كتابه.*

*****

1 في هذه السنة 2021، قررت المملكة السعودية في خطوة حضارية رائدة، إلغاء جميع الأحاديث الأحادية ضعيفة الأصول، والغير مثبتة والمشكوك بأصالتها والمخالفة للعلم والعقل والمنطق، وهي كثير جدًا تساوي في نسبتها تقريبا 95% من مجمل الأحاديث التي تنسب الى النبي محمد(ص). إضافة الى اصدار المملكة أمرًا الى جميع رجال الدين بالامتناع عن ذكر هذه الأحاديث وترديدها على منابرهم أو في محطات التلفزة.

2 سورة الكهف. 29.

3 قرآن. يونس 99.

قلنا أن السيد دوكنز يستند في مجمل كتابه على النفي والاعتراض والسلبية، وهذا الأسلوب لا يصلح أن يكون أساس نظرية أو فرضية معتبرة ولا قاعدة لمنهج أو مبدأ ذا قيمة، ناهيك أن يكون فكراً سويًا، فهو يستند على مبادئ التفرقة والتشتت والفردية والحرية العبثية ويشجّع عليها، وحينما يقول:- *(أن الأيمان الديني هو مبيد لكل أنواع المنطق العقلاني بسبب الوعود البسيطة والخادعة بان الموت ليس هو النهاية وأن هناك جنة).*[1] فهو يؤكد من جديد على مبدأ النفي، دون أدلة علمية أو دينية، ويخالف بذلك جميع ما جاء به الأنبياء والفلاسفة، إضافة الى أن هذا منظور مخالف لقانون الأضداد.

إن الأديان تقول بوجود عالم أخروي منذ أول ظهور الوعي عند الانسان، وهذا ما دعا البدائيين قبل عشرات الألوف من السنين لدفن موتاهم بطرق معينة - مع أن الاعتقاد بعالم روحاني آخر ووجود جنة ونعيم أخروي، هي من المسائل المعنوية التي يستحيل على عقل البدائي اختراعها - ولم يشذ عن هذا الوعد الأخروي أي نبي او رسول أو دين على الاطلاق، فالجميع متفقون على هذه الوعود، لأنه ليس سواهم من يمكنه أن يكون مهبط وحيّ أو له القدرة على اختراق عالم الغيب ويخبر عن هذه الأمور الغيبية . إن دوامية الكون بكلية هندسته البديعة لا بد وأن يتفق مع وجود هدف جوهري لوجود الانسان واستمرار بقاءه، باعتباره ثمرة الوجود وجزءًا من هذا الكون الكلي، ولو لم يكن هناك استمرارية لحياة الانسان الروحية، فسيصبح هناك تناقضًا هائلا وفجوة عميقة لا قرار لها في أصل سبب الخلق والإيجاد وسبب الوجود بأتمّه ولن تكون لحياة

1 صفحة 311.

الانسان معنى مع كل هذا الظلم وقسوة الحياة والمعاناة، وسيكون كل شيء قد وجد عبثًا ووهمًا ودون معنى. وما يثير الاستغراب، كيف تسنّى لهؤلاء الآلهة والأنبياء الاتفاق على أهداف موحدة تناصر واحدتها الأخرى رغم البعد الزمكاني بينهم؟ وما هو السبب أو الدافع على اتحاد كلمتهم؟ ولماذا يصدق كل منهم سلفه ولا يطعن به أو بمبادئه؟ ولماذا كلما ظهر أحدهم، أشار الى نبوءات من سبقه بخصوص مجيئه؟ مع إن لا أحد منهم قد التقى شخصيًا بغيره.! بينما في الجانب الآخر، نجد العكس من ذلك تمامًا بين بعض أصحاب المبادئ والفلسفات البشرية حيث تتخالف وتتناقض أفكارهم، بل وقد يكذب بعضهم بعضًا. فما لهؤلاء الآلهة والأنبياء يتفقون طرًا دون استثناء في دعواتهم لمبادئ الأخلاق والمسائل الروحانية على مرّ الزمان؟!

الفصل التاسع
الطفولة
الانتهاك والهرب من الدين[1]

يبتدئ هذا الفصل القصير بمقولة للكاتب فيكتور هوغو:- *(في كل قرية يوجد هناك شعلة ينيرها المعلم، ويوجد هناك من يطفأها، رجل الدين.)*

هذا منطق صائب يمتد حتى عهود قريبة. أما في قديم الزمان، فكان رجل الدين والكاهن، بل حتى الساحر، هم الذين أضاءوا شعلة المعرفة، بدليل أن جميع المفكرين والفلاسفة القدماء كانوا من الكهنة ورجال الدين. لكن بعد انتصار العلم ودلائله وتراجع التفاسير الدينية، أصبح لباس الفكر الديني صغيراً وضيقًا لا يناسب حجم عقل الانسان المعاصر، لذلك كان من الضروري خلعه والاستغناء عنه .*

ثم يستمر في رواية الاعتداءات الجنسية على الأطفال لعدة صفحات.[2] ويعقبها بصفحات أخرى يتكلم عن تجارب معاناة بعض المسيحيين في الخوف من عذاب الجحيم ونيرانه وما سمعوه من القساوسة والراهبات في طفولتهم ، مع ان الكتاب المقدس يكلم طفل الانسانية القديم بما يوافق مستوى تفكيره البسيط آنذاك. أما اليوم فهناك مفاهيم جديدة أخرى عن الجنة والنار والعالم الآخر تتسم بالروحانية وتبتعد عن المفاهيم المادية ، حيث لا يعقل أن يعذب الوالد أبنائه بشكل وحشي مرعب ، فما بالنا بالإله أرحم الراحمين.

---

1 صفحة 314.
2 صفحة 319.

ينتقد فكرة عذاب القبر ومدى خطورتها على البسطاء من الناس.[1]

أعتقد أن فكرة عذاب القبر فكرة تخويفية مثل غيرها من الأفكار القديمة استعملت لإبعاد الناس عن أعمال الشر. فالحكمة التربوية القديمة فضَّلت اسلوب التخويف لمناسبته عقول البدائيين حتى يتمسكوا بالنظم الدينية والاجتماعية، فلم يكن باستطاعة الانسان الهمجي ابتداع قانون وضعي لنفسه يحفظ حياته وحياة الآخرين وممتلكاتهم ، فكان القانون الإلهي الذي طبقه الآلهة والكهنة هو المنهج الأساس المهتم بتربية الخلق لتوصيلهم الى مستويات النظم الاجتماعية فيما بعد.

يذكرنا موضوع عذاب القبر بما حدث خلال منتصف القرن العشرين في الشرق الأوسط حينما حصلت زيادة كبيرة في نسبة السكان دفعت الحكومات للاستفادة من الأراضي الخالية المحيطة بالمدن لبناء مناطق سكنية جديدة، حيث كانت تستعمل كمدافن وجبّانات. وبعد أن بدأت مكائن الجرافات وآلات الحفر بعملها، كان العمال مرتعبون خائفون يتوقعون رؤية النيران والدخان تنبعث من القبور ، لكنهم كلما استمروا بالحفر وتعمقوا ، لم يروا شيئاً من ذلك ولم يجدوا أثرًا للثعبان الأقرع. وهذا ما حصل في كثير من البلدان العربية والاسلامية التي تعتقد بالثعبان وعذاب القبر . ومع ذلك ، فإن هذه الشعوب لم تترك هذه الأسطورة القديمة ، ولا تزال تخشى مجرد ذكرها.

من هذا نفهم أن ما ذكر في الكتب المقدسة لا يجب وضعه في خانة الكذب والتدليس، وكذلك لا يجب أخذه بالمفهوم الحرفي تمامًا،

---

1 صفحة 330.

فغالبًا ما يكون للآيات معنيان باطني وظاهري. فمستويات عقول الناس مختلفة وقدراتها متباينة، إنها طريقة حكيمة في التعليم التدريجي انتظارًا لحلول موعد تخطي الانسان مرحلة البدائية والجهل ودخوله مرحلة انتشار التعليم والثقافة وتوسع العقول، وبذلك سيفهم الانسان من ذاته ما كان من معنى أمر التخويف من نار جهنم وجحيمها والثعبان الأقرع ولسعاته. إنه نوع من أنواع التربية الإلهية، يؤكد ذلك قوله تعالى في القرآن الكريم:- (وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا).[1] فالمعنى واضح لذوي العقول المنيرة، أنه اسلوب تربوي لا أكثر، طالما كان اسلوب الأنبياء منذ قديم الزمان هو الاهتمام بتربية البشر رغم كل ما عانوه من تصرفات مؤذية.*

حينما تسلسل في طرحه لموضوع الأضاحي البشرية وجاء على ذكر مومياء فتاة الأنكا التي وجدت بقاياها متجمدة منذ 500 عام، ناقش موضوع التضحية بالإنسان من عدة جوانب. لكن المثير في الأمر أنه استعمل في خضم أقواله عبارة:- *(ومن نظن أنفسنا لنستعمل كلمات مثل "جريمة" ونحكم على كهنة الأنكا بمقاييسنا عوضاً عن مقاييسهم؟... لا نستطيع لوم كهنة الأنكا لجهلهم وربما من القسوة نعتهم بالغباء والبلادة.)!*[2]

هذا أمرُ مثير للاستغراب! حيث نجد حافزه في مجمل كتابه، هو مهاجمة مفاهيم الكتاب المقدس وطقوس وأفكار الكهنة وتعاليم الديانات اليهودية والمسيحية والاسلامية، ولم يكن يقدم الأعذار لهم! فلماذا تناول عادات حضارات الأنكا بهذا اللطف وقدم الأعذار لها؟ ليس هناك تفسير إلا لأنه يكيل بمكيالين بدافع الكراهية، مما دفعه

1 سورة الإسراء 59.
2 صفحة 333.

للتركيز على الأديان الأكثر انتشارًا في أوروبا والشرق الأوسط وغض الطرف عن أديان أمريكا الجنوبية.

*****

من الواضح أن سهام الانتقاد نفدت من جعبته ، حيث بدأ بتكرار ذات المواضيع مرة بعد أخرى، فنمر على بضعة صفحات يتكلم فيها عن الطوفان وسفينة نوح. ثم يعرب عن رفضه لتلقين الأطفال معتقدات دين آبائهم .

قال:- *(الأديان متناقضة فيما بينهما).*[1]

عدنا مرة أخرى لذات الموضوع. إن الأديان تنقسم الى قسمين، قسم روحاني أخلاقي، وقسم تشريعي اجتماعي. فبالنسبة للقسم الأول فجميع الأديان السماوية متفقة عليه تمامًا، فلا يوجد دين إلا ودعا الى الأخلاق الحسنة والتعامل الجيد بين البشر ومساعدة الاخرين. أما الجزء الثاني (الأحكام والتشريعات الوضعية)، فتختلف من دين الى آخر وتتغير جزئياً أو كلياً حسب حالة الوضع الاجتماعي والثقافي ومقدار تطور الأمم ورقيّها. ولقد أوضح القران الكريم هذه النقطة جلياً في قوله تعالى:- (لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا).[2] وهذا يعني أن ما يناسب أمة من الأمم من أحكام وقوانين، قد لا يناسب أمة أخرى بالضرورة.

1 صفحة 247.
2 سورة المائدة 48.

الفصل العاشر
الفجوة المهمة جداً[1]

يبتدئ هذا الفصل بعبارة جميلة مقتبسة عن "مايكل شيرمر" تعبّر عن تقديره الشديد للعلم:- *(ذلك هو العِلم العميق المقدس)*.

نعم بالفعل، إن العِلم مقدس جدًا، فلولاه لما وصلت البشرية الى كل ما نتمتع به من وسائل راحة وتقدّم وتقنيات وعلوم في هذا اليوم.

ثم يتحول ليتساءل:- *(هل يملأ الدين فجوة مهمة في حياتنا؟)*.[2]

جواب هذا السؤال يدفعنا للنظر الى التاريخ الإنساني ككل، قديمه وحديثه، مثل فنّان يعود الى الوراء وفرشاته بين أصابعه يتفحص لوحته عسى أن يكتشف ما خفيّ عنه من نواقص وأخطاء. فقد سبق وقلنا إن الانسان القديم كان جاهلٌ تمامًا وبحاجة الى تربية وتعليم لم تكن الطبيعة لتوفرهما له، فكان لا بد من تدخل الانسان الفوقي لتربيته وتعليمه. أما اليوم فتنتشر فكرة الاستعاضة بالعلم سبيلًا لتقويم الأخلاق، مما يثير التساؤل إذا كان في الإمكان الاستغناء عن الدين بالعلم. وهذا رأي بحاجة الى تأمل وبُعد نظر. فطالما كانت الأديان هي مصدر الأخلاق، وطالما أن الأخلاق تنحدر في مستواها وتقل في كميتها عند الابتعاد عن المُربي ، لذا كان لا بد من استمرار مليء كأس الضمير بماء الأخلاق، ولا أدلّ من ذلك ما يتضح من تصرفات البشر في هذا اليوم في حاجتهم الى مصدر للتربية والأخلاق، بدليل أن سُميت المؤسسات المختصة بالتعليم في بعض دول العالم (وزارة التربية والتعليم)، حيث سبقت عملية التربية عملية التعليم. فالمجتمع بحاجة الى انسان خلوق ومتعلم، أما التعليم لوحده، فقد ينتج عالمًا

---

1 صفحة 351.
2 صفحة 252.

مجرمًا عتيًا مجرد من مبادئ الأخلاق يعبث بحياة الناس ويدمرها، فقد قيل قديمًا:- (ناقص العقل وهو تقي، خير من وافر الفطنة وهو يتعدى الشريعة.)[1] ولا يبدو أن البشر كانوا في أي زمان بحاجة الى التربية والأخلاق أكثر من هذا اليوم للحد من قوة استعمال العلم في تدمير الأرض وإفناء الشعوب والتقليل من كميات المظالم. فقديمًا كانت أضرار البشر محدودة، بينما اليوم أصبحت أكثر شمولًا ورعبًا. أنظر لما يتوفر من أسلحة دمار شامل، فهي لا تحتاج لتدمير المجتمع البشري إلا لشخص أرعن مهووس قليل الأخلاق، أو انسان أهوج قليل العقل والضمير، لينهي كل شيء. ثم إن ما ينتشر من مآسي وبلايا وآفات اجتماعية متمثلة بكثرة ملايين المظلومين والجوعى والمعوزين والمرضى والفقراء والعاطلين وغير ذلك، كان من أكبر أسبابها ، اضمحلال المشاعر الإنسانية التي منعت تدبير شؤون الناس وحاجاتهم وتقديم المساعدات الكافية، بسبب قلّة الأخلاق وموت الضمائر، رغم كثرة توفر الأموال في العالم. من هذا وغيره، فالبشرية اليوم في أمسّ الحاجة الى الأخلاق أكثر من أي وقت مضى.

نلاحظ مرة أخرى أن دوكنز يعود ليستقي أمثلة لإثبات صحة فكرة الإلحاد من خلال تجاربه الشخصية، بل يسرف في الابتعاد أكثر من ذلك، فيعود الى ذكريات طفولته وعلاقته بألعابه ووالدته.[2] وكل مبتغاه هو الاستدلال على نفي وتكذيب رؤى الأنبياء ووحيّهم وما نقلوه من تعاليم ونصائح على إنها ليست سوى نوع من الخيال أو شيء من الجنون والأوهام. وقد سبق وقلنا أن موضوعًا خطيرًا كهذا، لا تؤخذ نتائجه من التجارب الفردية لتسجل في كتاب يبتغى له أن

1 سفر يشوع بن سيراخ 19: 21
2 صفحة 354.

يكون كتابًا علميًا، بل المفروض أن تكون تجارب واستبيانات علمية وجماعية مكررة.

إن الدين منهج ذو شقين، الأول هي التشريعات الوضعية الخاصة بالفرد والمجتمع، والثاني هي الأمور الأخلاقية والروحية العامة. ولنتكلم عن الشق الثاني، فمنذ أن وعى الإنسان على وجوده في هذه الحياة، شعر أن هناك كائناً آخر في داخله يكلمه، وهذا الإحساس، ينقسم الى قسمين أيضًا، الأول يأتي من عالم خارجي عبر الرؤى والمنامات والأحلام والوحي، وهذا ما يحصل مع القديسين والأنبياء حينما يستلمون تعاليم ووصايا من ذات الله تعالى. أما القسم الثاني، فهو أن يكلم الشخص نفسه ويناقشها، فهما ذاتان معنويتان تشتركان في هذه العملية، العقل والروح، ولا علاقة للجسد المادي أو الدماغ المادي داخل الجمجمة بهذا الحوار المعنوي، فهو نقيض له تماماً، لأن الجسد والدماغ (المخ) ليس سوى خلايا مادية طبيعية حيّة تجمعّت لتشكل هيكلًا لا يشعر ولا يحس ولا يتكلم ولا تستجيب حواسه وخلاياه إلا بمدد من قوة الروح، وحينما تنفصل عنه قوة الروح، لن يستحق الجسد إلا طمره تحت التراب. بينما حين يكون ممتلئًا بالحركة والحياة ، فهو دليل على تواصل ارتباطه بقوة الروح. فالحوار داخل الانسان أو داخل العقل يتم بين ذاتين تتحاوران وتقدمان الرأي والرأي الآخر، وهما العقل والروح، وهذا الحوار غالباً ما يدور بينهما هادئاً. ففي حالة الرؤيا أو في حالة التفكير أو حين الجلوس للتأمل والتدبّر أو خلال الأوقات الحرجة وتقرير أمور مهمة أو محاولة الخروج من ضائقة مادية أو معنوية أو حتى في حالات السرور والفرح، فغالباً ما يحصل أن تتحاور هاتان الذاتان داخل شخصياتنا، هذا يقول كذا وذاك يقول كيت، وهذا يجزم بكذا والآخر يفنّد تلك. ومثل هذه الحالة الطبيعية موجودة عند كل البشر

ولا يمكن لأي إنسان الادّعاء إنه بعيد عنها ويخلو منهما وأنهما لا تتفاعلان داخله، وكلما زاد وعي الانسان وثقافته، تعمّقت هذه الحوارات وتشعبت وأصبحت أكثر عقلانية وواقعية. إنها حالة موجودة داخل عقل كل إنسان وروحه منذ القِدم وفي كل وقت وزمان صاحيًا كان أم نائمًا وعند مختلف الناس كبيرهم وصغيرهم جاهلهم وعالمهم. لأن العقل والروح لا يحتاجان الى النوم والراحة مثل الجسد أو عضلاته.

يعود دوكنز ليعلق بهذا الخصوص:- *(اليوم نعلم بأن كلا "الصوتين" يعودان لنا، وعندما لا نعرف ذلك فإننا نعامل على أننا مرضى نفسيين).*[1]

ما يهمنا في اشارته هنا، كلمة (لنـا)، فبالطبع أن الحوار الذي يجري داخل عقل الإنسان، هو لنا، فهو حوار ثنائي خاص قائم على عملية التفكير. لكن النقطة المهمة التي تجاوزها هي:- مَن يحاور مَن؟ فإذا قال إن أحد الطرفين هو الجسد، فالجسد آلة مُسخّرة مثل بقية الآلات الميكانيكية التي نستعملها، لا حياة فيه إلا إذا كانت هناك قوة متكفلة بتحريكه. فمثلا عندما نكون بقرب شخص يحتضر، نراه يتكلم ويرى ويسمع ويحرك أصابع يديه في الثواني الأخيرة من الاحتضار، بينما في لحظة انتقاله الى حالة الموت، تتوقف على الفور كامل أعضاءه وحواسه عن الحركة تماماً؛ فإذا كان مقصد دوكنز أن الجسد يستمد قوته من ذاته، فحالتي الجسد المتناقضتين (الحركة والسكون) قبل وبعد لحظة الاحتضار، تنفي ذلك بالقطع، حيث أن الجسد ما زال كاملًا بالتمام لم ينقص منه شيء على الإطلاق، والدماغ ما زال بأتمه محفوظًا داخل خزانة الجمجمة. أما إذا كان

---

1 صفحة 356.

مقصده أن الحوار يجري داخل العقل، فهذه مشكلة عويصة أخرى، حيث أن الواحد لا يكون اثنان، لأن العقل غير الدماغ، فالعقل هو حالة التفكير وقوتها، بينما الدماغ هو الكتلة اللحمية داخل الجمجمة، فكيف يقوم الدماغ المادي بتمثيل شخصيتين معنويتين وهو واحد في كتلته المادية؟ ثم أليس من المفروض أن يخبرنا أين تتكدّس وتخزَّن جميع المعلومات والعلوم والذكريات وصور موجودات الطبيعة التي لا ينتهي حصر أعدادها، وكيف يطابق الدماغ بين صور الأشياء وأشكال الناس، فيفرّز ويفرّق بين الأهل والأصدقاء والمعارف والزملاء والغرباء؟ إن علماء التشريح والأعصاب والدماغ هم اليوم في أعلى حالات التقدم والتطور ، ومع ذلك لم يتوصلوا الى مكمن أو مستقرُ هذه الأمور المعنوية داخل الدماغ المادي، ولم يجدوا مكمن أو موقع الصور ولا عرفوا أين تُخزن المعلومات والعلوم والذكريات وغير ذلك من الأمور المعنوية . أفلا يدل كل هذا على وجود قوة غير مادية (روح) تتحكم بحركة جسد الإنسان وفيها تتم عملية التفكير والتصوّر والتخزين؟ فلو كانت المعلومات والصور والتخيلات والأفكار والحسابات وغيرها من الأمور المادية، فلا بد أن يكون لها وزن وأحجام باعتبارها مادية الكيان - مهما كان مقدار الواحدة منها ضئيلا - وبالتالي سيكون أمرًا حتمياً أن تكون أدمغة الفلاسفة والعلماء والمفكرين أثقل وزنًا من أدمغة الجهلاء والبسطاء وبشكل واضح ومميز . فهل هناك مثل هذا الفرق؟ بالطبع لا.

لنترك موضوع الدماغ المادي ونعود الى موضوع الشخصيتين أو الذاتين اللتين تتحاوران داخل عقل الانسان ونفسه، فهما قوتان معنويتان تختلف آثارهما باختلاف توجههما، فالروح تسيطر على كامل قوى الجسد المعنوية والمادية، بينما العقل هو من قوى الروح ويختص بالتفكير والتأمل المعنوي فقط، فمثلما للجسد حواس مختلفة

أقواها قوة البصر، فكذلك للروح قوى متعددة أقواها قوة العقل. وقد ميّز ديكارت بين العقل والروح فقال :- (أما ذهن الانسان أو نفسه "وأنا لا أفرق بينهما").[1] فطالما لم يثبت العلم المختبري شيء من صفات النفس (الروح) - ولا أظنه سيكتشف ذلك مستقبلا - فقد قيل من قبل في استحالة معرفتها: (من عرف نفسه فقد عرف الله)، لهو دليل على محدودية العقل وصعوبة التعرف على الروح، فالجزء لا يستطيع استيعاب الكل، كما أنه لم يتبق جزء دقيق ولا أدقَّ منه لا في الدماغ ولا في الجسد، إلا وفصّله وجزّئه وشرّحه علم الطب تفصيلاً شاملًا. أما عذر بعض الماديين بتعليل سبب الجهل بأماكن المعنويات داخل الدماغ، قولهم: إن العلم كفيل باكتشاف ذلك في المستقبل طالما هو في طريق التقدم، ولا بد أن يأتي اليوم الذي يعرف ذلك. فهذا نوع من التسويف والمماطلة لتمرير فكرة العجز الواضح في مجال العلم الروحي المعنوي للاستفادة من الوقت لتمرير عملية اقناع الاخرين بفكرة الإلحاد وعدم وجود الروح ووجود الله.

إذن.. ألا يتطلب هذا العجز الاعتراف في احتمال أن تكون هناك قوة معنوية غير مادية متصلة بجسد الإنسان - كاتصال الصورة بالمرآة - أطلق عليها الدين اسم (الروح) منذ ظهور فجر الوعي؟ ألا يترجل الفكر المادي عن ركوبة عناده ويعترف بأن هناك ذاتٌ معنوية مسيطرة على الجسد والدماغ تتحكم بإرادة الانسان فترشده الى مختلف أفعاله من خير وشرّ مثلما تتحكم قوة الكهرباء بالأجهزة والآلات؟ وهذه الروح تتأثر بكمية الأخلاق المكتسبة . فإذا وافقت الروح الجسد تعلقه واهتمامه بالماديات، توجهت نحو الرغبات المادية والجسدية دون اعتبار الى تحذيرات الأخلاق فيطلق عليها

1 ديكارت صفحة 58.

اسم (النفس)، وإذا تعلقت بالأخلاق والعفة والسمو ورفعة الشأن، سمّيت (روح). الأولى تحبذ كل ما يتعلق بالماديات فتسحب الجسد لتنفيذ رغباتها، والثانية تحدُ من رغبات الجسد وتنصح بالابتعاد عنها قدر المستطاع، والاثنان لا حدود لقوتهما؛ فمهما استجاب الانسان لحاجات جسده أو لبّى رغبات نفسه، تبقى تطلب المزيد حتى آخر رمق من الحياة، فهي لا تكف عن طلب المال والثروة والجاه والسلطان والطعام والماء والنوم والراحة والجنس وعموم ملذات الحياة طالما الجسد على قيد الحياة . بينما تبقى الروح في الجانب الآخر تكافح في النصح وتطالب بالكفّ والاكتفاء بالقليل من تلك الرغبات وبضرورة الاعتناء بالأخلاق والعلم وخدمة الآخرين. الأولى رغبات طبيعة مادية، والثانية رغبات معنوية سامية، كما قال الدكتور عبد الرحمن بدوي: (الروح مصدرها الله، مصدرها الملكوت الأعلى والنور، بينما النفس مختلطة بالجسم وبالتراب وتعلوها الظلمة؛ والأولى مصدر الخير، والثانية مصدر الشر: فما صدر عن الأولى فهو حسن؛ وما صدر عن الثانية فقبيح).[1]

ثم أليس من الوارد أن قوة العقل وقوة الروح هما اللتان تتحاوران داخل ذات الإنسان؟ إنه ليس بالأمر الجديد، فهو موضوع قديم، لكن شدة الشد والتجاذب بينهما ينتهي لصالح النفس الأمارة كلما حلَّ زمن انتهاء حياة روح حضارة بشرية، حيث تسود قوة النفس المادية العامة وتنتصر على قوة الروح المعنوية مع انهيار مبادئ الأخلاق و الضمير وتضعف قوة الدين بشكل عام عند الناس، وبهذا تعمّ الاضطرابات وفساد الذمم ويزداد البعد عن أعمال الخير وتزداد مظاهر الشرور بمجرد احتضار روح الحضارة القديمة. وألا يمكن

1 من تاريخ الإلحاد في الإسلام. عبد الرحمن بدوي. 27.

أن ما نعيشه اليوم هو تجسيد لحالة انهيار حضارتنا؟ ألا تنتشر فكرة الأنانية بين الأمم بمختلف مستويات أفرادها حتى تغلغلت الى نفوس أفراد العائلة الواحدة؟ ألا يشتكي جميع البشر ويتذمرون من آفة انتشار الفساد والظلم والطغيان؟ أليست القسوة والاحتقار والخديعة والكذب والشك هي السمّات السائدة في تعامل البشر مع بعضهم؟ ألا يتجسد كل ذلك في قرارات الحكومات وممارساتها لأنواع سبل السيطرة على أحوال البشر ومصائرهم؟ ألا تتسابق الشركات العالمية والدول القوية للسيطرة على الجنس البشري؟ ألا يعيش أكثر من ثلثي سكان الأرض على مستوى خط الفقر أو تحته؟ أليس أكثر من نصف البشر يعانون من العوز والفاقة والفقر لدرجة أن بعض منهم من يبيع أطفاله أو أجزاء من جسده ليسد به رمقه؟ أليس هناك من يقتل أفراد عائلته خشية إملاق؟ ألا تنتشر عصابات بيع الأعضاء البشرية في جميع أنحاء الأرض؟ ألم تزداد نسبة الجرائم حتى فاضت السجون بالمجرمين وراحت الحكومات تكتفي بقضاء نصف مدد محكوميتهم فتطلق سراحهم لعدم وجود سجون كافية للقادمين الجدد؟ ألم تزداد نسبة السجون بأضعاف مضاعفة عن نسبتها قبل عقود قليلة؟ ألا تعيش شريحة الزراع والفلاحين في أسوأ حالات العوز والفقر والمعاناة وهي الشريحة الأكبر مع إنها تمد جميع البشر بالطعام والغذاء؟ ألا تنتشر البطالة في الدول النامية وشعوب العالم الثالث حتى صار شبابها ورجالها يلجئون الى المنظمات الإرهابية والعصابات الاجرامية لتوفير لقمة عيشهم؟ ألم يزيد الوضع الاقتصادي السيء فكرة الاكتفاء بالرجال لاحتلال مراكز العمل والوظائف الحكومية ودفع النساء للانزواء داخل المنازل والعودة للخضوع لتحكّم ذكورية الرجل وهيمنته النفسية والاقتصادية؟

جميع هذه المظاهر السلبية وأكثر منها، إنما هي دلائل وإشارات واضحة لموت حضارة آيلة للزوال ومجيء حضارة أخرى بدلا عنها.

إن القلق على موارد العيش والخشية من فقدان مصادر الرزق هو من أكبر الدوافع لتكالب الانسان على أمور الدنيا والبعاد عن الايمان، فالغالبية يتنافسون بشتى الوسائل غير الشرعية لضمان قوت غدهم والخشية من انقطاعه، فيتخذون سبل الأنانية والجشع والحسد والطمع والتآمر والمنافسة الدنيئة ولا يكفون عن طلب المزيد لتغذية أنفسهم الأمّارة ومنهم من يمتهن أسوأ المهن الدنيئة وأقذرها بسبب ابتعادهم عن مخافة الخالق وقناعتهم أنها الحياة الدنيا ولا سواها وأن نهايتها ما هو إلا الفناء المطلق وليس هناك حساب أخروي يخشونه أو يأملون نعمائه، فالغالبية محاطة بوحوش مفترسة بأشكال آدمية لا تفسح المجال لغيرها للعيش بكرامة وشرف.

قد يقول قائل ان شعوب الدول المتقدمة تتصرف بأخلاق حسنة واحترام مع إن أغلبها غير مؤمن بدين. مثل هذا الاعتراض مثل الذي يتربى في كنف أبوين خلوقين ثم بعد كبره ينسب لنفسه ما يتمتع به من مزايا حسنة وأخلاق ويتفاخر بتصرفاته الطيبة وينتشي حينما يسمع مديحًا ناسيًا جهد والديه. أو مثل متعلم يتباهى بعصاميته وتعليم نفسه ناسيًا مقام معلميه في صغره وسنين دراسته الأولى.

إن ما تركته الأديان السابقة من دعوات للتمثّل بتعاليم الأنبياء وأخلاقهم الحسنة، هو السبب غير المباشر فيما نشاهده اليوم من تصرفات ممدوحة عند الشعوب المتقدمة، فأصل الأخلاق من الأديان وليس من ذات الإنسان أو من الطبيعة، ولقد أيّد ذلك كبار الفلاسفة بقولهم إن الإنسان اذا ما تُرك لنفسه دون مربّي، أصبح أدنى شأنًا من الحيوان. ومع ذلك، ليست جميع فئات الشعوب المتقدمة تتصف

تصرفاتها بمستوى أخلاقي عالي، فما زال هناك الأناني والمخادع و المرتشي والمختلس والمغتصب والقاتل واللص والفاسد والكاره و المتعسف والمدلس والمحتقِر والمجرم وغير ذلك من الأنواع السيئة. كل هذه الأصناف وغيرها موجودة ومتغلغلة بين طبقات المجتمعات المتقدمة. أما ما يمنع استفحال أمرها وظهورها للعلن بشكل واضح، هو قوة القانون وعقوباته، فلو اختفت سلطته وضعفت، لكَشَف هؤلاء عن مشاعرهم الأنانية الدفينة وجهروا برغباتهم السلبية ولتباهوا بها وازدادت أعدادهم، حيث سبق وقلنا أن الذات الانسانية بحاجة الى رقيبين ليلجما تصرفاتها الشريرة، رقيب الروح أو الأخلاق أو الضمير ، ورقيب شرطي السلطة التنفيذية، بل وحتى بعض رجال القانون قد يستغلون وظائفهم وسلطتهم ليعتدوا على مواطنيهم لافتقاد الرقيب الفوقي.

إذن، فالدعوة الى ترك الدين وترك الاعتقاد بخالق، هي في حقيقتها إقصاء لرقيب النفس والاكتفاء برجل القانون، وهذا سيؤدي حتما الى عرج واضح في سلوك المجتمعات، وليس باستطاعته تحقيق الأمن والأمان ولن يكفي للسيطرة على جرائم وانحرافات بعض أفراده وجماعاته، خاصة والبشرية في مرحلة انحدار حضاري ، ولو تحقق هذا الأمل الباطل في اقصاء الدين، فستظهر بجلاء الحاجة الكبيرة الى رجلي أمن اثنين لكل مواطن، وسينقلب المجتمع الى غابات فوضوية يسودها قانون الأقوى والأكثر شراسة وعنفًا وستعود أحوال المجتمعات قروناً الى الوراء. فعلى سبيل المثال، لننظر لما حصل في أفغانستان وسوريا وليبيا والعراق في السنين الأخيرة، حيث وبمجرد اختفاء رجل القانون وشعور الناس بعدم وجود قانون، انحدرت مستويات أخلاق الكثير منهم الى أدنى مستوياتها، وأصبح قتل الناس الأبرياء لعبة يتراهن عليها المجرمون

ورؤساء الأحزاب؛ أما السرقات فأمر لا يمكن تصوره، إذ هل يعقل أن تختفي من خزينة الدول مليارات الدولارات ولا يعرف سارقها! أو هل يعقل أن تغطى سرقة ملايين الدولارات بحجة حريق أو غرقها بمياه الأمطار ، مع إنها محفوظة في خزائن حديدية مغلقة! وهل يعقل أن يقوم وزراء أو موظفون حكوميون على تكرار حرق وزاراتهم أو دوائرهم الرسمية كلما قاربت سرقاتهم واختلاساتهم على الانكشاف؟

هذه نماذج قليلة جدا من أنواع فساد الذمم وأكبر دليل على دناءة النفس البشرية حينما تتحرر من رقيب النفس ورجل القانون. والأمر لا يقتصر على هذه الدول، فهناك الكثير من دول العالم الثالث على ذات هذا المنهج السيء، كلٌ بنسبة معينة . فإذا اتفق وحصل اختفاء رجل القانون من الدول المتقدمة، فلن نسمع من أفعال شعوبها أفضل من ذلك طالما لا تؤمن بوجود إله يحاسبهم.

ومن الأمثلة الأخرى على اختفاء رقيب الأخلاق والدين في العصر الحديث، حروب الإبادة الجماعي ، فلو كان في ضمير أي مسؤول سياسي ساهم بتنفيذ تلك الجرائم البشعة، ذرة أخلاق أو خوف من وجود عقاب أخروي، لما أقدم على التنفس قبل إصدار أوامر القتل والإبادة . فكيف يأمر إنسان بإبادة قرى وقبائل بريئة من الرجال والشيوخ والنساء والأطفال لا علاقة لها بأمور السياسة والأحزاب والطائفية وشؤون الحرب، بالغازات السامة أو الطمر أحياء أو الذبح العلني العام بدافع الشك واحتمال مساعدتهم للمتمردين ضد السلطة؟ كيف يتجرأ إنسان يمتلك شيء من الضمير ان يحرم ملايين الأطفال والنساء من الطعام لمجرد تطبيق فكرة الاشتراكية وسيادة الحزب الواحد؟ كيف لكائن أن يصدر أوامره بحرق وفناء ملايين البشر في

قاعات الغاز وأقبيتها؟ كيف تكون لدى المجرم نتفةً من الضمير ليأمر بقتل ثلث شعبه ويشرد ثلثه الآخر ليكتفي بحكم المتبقي بعد ارضاخهم وتحويلهم الى عبيد وأسرى لخدمة أفكاره؟ كيف لإنسان يظن في نفسه أنه إله أوحد، فيأمر بحبس شعبه داخل حدود بلده ويغسل أدمغتهم بالشعارات السخيفة ويقطع عنهم كل أنواع الاتصالات بالعالم الخارجي؟ كيف لرئيس أن يأمر بملاحقة واغتيال كل معارض من شعبه يحمل فكراً مغايراً؟ كيف يعقل أن يزيد حاكم أبنية السجون والمعتقلات ويقوّي مراكز الشرطة ويكافئ أنصاره من ضباطها وجنودها، بدلًا من انشاء مدارس وجامعات وزيادة أعداد المستشفيات ومنشآت الخدمات العامة والحدّ من مقادير الضرائب؟ هذا غيض من فيض.

إن كل هذه الأفعال الاجرامية ما هي إلا نتيجة حتمية لفكرة الإلحاد والاعتقاد بأن ليس هناك إله يحاسب البشر، وأن لا وجود لعقاب أو جزاء أخروي. فهذه وغيرها الكثير من الجرائم لن تقف في سبيل تمددها وانتشارها دولة عظمى أو جيوش أو اتحاد اوروبي أو هيئة أمم متحدة، فقد ثبت أن القوانين الوضعية لوحدها عاجزة عن ردعها. وعلينا التوقّع أن هؤلاء الفاسدين هم الذين سيحكمون شعوب الأرض قريبًا ويصبحون القوة الطاغية والأكثر عددا إذا استمر الحال كما هو عليه وسمحنا لفكرة الإلحاد الفوضوية بالتوسع والانتشار، فهي تسونامي خطيرة محملة بالأوبة الفكرية وطامة كبرى أكثر شرًا من كل شرٍ على الإطلاق.

فمن أراد أن يرى نتيجة دعوة السيد دوكنز وثمرتها ويرغب في تبني فكرة الإلحاد واختفاء الرقيب الفوقي، عليه النظر الى أحوال الشعوب المتخلفة في العالم الثالث، فهي تمثل أجلى صورها المزرية، رغم أن هناك رجال دين يحكمون بعضها، فالقتل الجماعي والفردي

حالة يومية والسرقات أصبحت مفاخر المجرمين كلٌ يتباهى بكبر غنيمته، والاغتيالات وإخفاء الناس صارت مسألة عادية لا تدهش أحداً، وجثث القتلى فوق أكوام المزابل وعلى الطرقات لم تعد تثير استغراب أحد، والأخطاء السياسية تذهب بعشرات المئات من الشباب ضحايا للعنف ولا يجرأ أحد في السؤال عن مسببها أو مرتكبيها، وكبريات المراكز والوظائف الحكومية تباع وتشترى في العلن، ومن يجهل الكتابة والتعليم يتربع على كرسي أعلى وظائف الحكومة والأحزاب، وابن الشارع الفاسد يخرج من خلوته على حين غفلة بذقن وعباءة ومسبحة، ليجد استقبالا وحفاوة من الجهلاء ليتحكم بمصيرهم. والعجب العجاب حينما وصل الأمر بين الفاسدين من رؤساء الأحزاب الى بيع السجناء والنساء فيما بينهم واستغلال الأطفال ممن لا حول لهم ولا قوة. فمن شاء أن تكون شعوب العالم بمثل هذه الأحوال المزرية، فليتبنى مبدأ الإلحاد ويقصي الرقيب الفوقي.*

يعود دوكنز الى موضوع الصوت المسموع داخل النفس، فيقول:- *(أريد ان ابدأ بظاهرة طفولية تسمى 'الصديق المُتخيل' والتي باعتقادي لها علاقة مباشرة بالأيمان الديني).*[1]

إن الاعتقادات الدينية والثقافة لها أثر واضح فيما يحصل من تخيّل ونقاش داخل النفس البشرية. لكنه لم يوضح نوعية هذه العلاقة. فهي حالة نفسية تحصل لكل انسان بغض النظر عن مقدار عمره ومعتقده الديني. لكن على أي أساس استنتج المؤلف أن المُتخيل الراشد ما زال غير واعياً ويفكر كالأطفال؟ هذا ما يسمى بتسويق

1 صفحة 352.

الأفكار بطرق ملتوية باعتباره يقدمها كنوع من البديهيات لا حاجة لمناقشتها. إنه ذات اسلوب رجال الدين بلباس علمي.

يقول:- *(غالباً **ما يقال** بأن هناك فجوة في الدماغ يجب ملأها بالإله).!*[1]

لا حاجة للانشغال بما قيل وقال. ولنكمل مناقشة فكرة الإلحاد. إن الدماغ جهاز مادي كامل الأجزاء، دليل ذلك تأديته لدوره الدقيق بشكل سليم في توصيل واستلام المعلومات والأفكار من الحواس الى العقل وبالعكس، مما أوجد جميع هذه المخترعات الرائعة. أما الفجوة فلن تكون إلا فجوة معنوية في طريقة التفكير، سببها قلة كمية العلوم.

قال:- *(تاريخيا فقد طمح الدين لتفسير وجودنا والطبيعة من حولنا والكون الذي وجدنا أنفسنا به. دورهُ هذا في أيامنا هذه قد تولاه العلم بشكل كامل).*[2]

كانت الأديان قديما المصدر الوحيد والأساس لمختلف العلوم. أما اليوم فقد حلَّ محلها العلم وسيكون له دور أعظم في معرفة أسرار قوانين الطبيعة، إلا أنه لن يخترق عالم الأديان والروحانيات ولن يأتي بجديد منها، لأنها ليست من العلم المادي بشيء، وهي من اختصاص الرسل والأنبياء فقط.

وعندما يحاول المؤلف تمرير فكرة غير مثبتة:- *(وقد تعرضتُ لتلك الفكرة في الفصل الرابع. أو .. وقد غطيت ذلك في الفصل السادس والسابع).*[3] فكأنه يقول أن كل ما قدمته لا يتخلله الشك أو الخطأ! ثم يكمل مستمرًا في محاولاته لزرع زؤان الشكوك في رأس القارئ دون تحديد لموقف ثابت أو برنامج معين، حيث يستعمل في

---

1 صفحة 352.
2 صفحة 352.
3 صفحة 352.

كل ما يقدمه من أفكار، نوع من التشتيت الذهني لفتح ثغرة في تفكير القارئ، فطريقته منذ أول الكتاب حتى الان مجرد مقترحات أو شطحات ليس لها أسس علمية، بل مجرد تصورات قد يكون دافعها رغبته في نيل ثروة أو كسب شهرة أو الاشارة إليه بسبّابة، فهو يعلم أن غالبية الناس شحيحي الثقافة الدينية يتقدمهم رجل الدين في أول الصفوف، دليل ذلك، حينما قال:- *(بغض النظر عن كونك تجد لذلك أي* ***مصداقية أو لا.)***.[1] فهو يعلم أن كلامه لغو سيرفضه القارئ الحصيف ولن يتقبله، لكنه يأمل أن يضيف قطرة شك لما سبق وأضافه كي يقنع الآخر بفكرة الإلحاد.

والغريب أن يذهب للتشكيك بذات أصل فكرته! بعد كل ما سرده وأطنب في شرحه في مجمل كتابه، فيقول أن:- *(المشكلة في هذه الفرضية بأنها* ***لا تفسر*** *بقاء الإله عند البالغين في يومنا هذا).!*[2] ونراه لا يستقر على رأي، فيعود للقول:- *(إن قدرة الدين على عزاء الناس لا يجعله حقيقياً).*[3]

إن مجرد ذكر هذا النفي، هو بحد ذاته دليل على شعوره بوجود تأثير للأديان يحاول الالتفاف عليها ومهاجمتها من الباب الخلفي. وطالما كانت مقاييسه مادية ولا يعترف إلا بما تتعامل به حواس جسده، فهذا يدفعه لنفي ما سوى ذلك. وقد سبق وقلنا إن المعدوم ليس له أثر أو تأثير . فدليل حقيقة الأديان هو قوة تأثيرها الفعلية في عقول ونفوس جموع الناس حينما تتناولها كشرائع وقوانين لمجتمعاتها، وهذه من الأدلة الواضحة على قوة تأثير الأديان. والأكثر من ذلك، حينما يجمع ويدوّن رواد الأديان وعلمائهم أقوال وحِكم ونصائح

---

1 صفحة 356.
2 صفحة 357.
3 صفحة 357.

رسلهم على شكل كتب تتداول بين الناس. فالكتاب دليل مادي تاريخي على وجود صاحبه، والاتفاق بين الرواد والأصحاب في نسبته الى رجل واحد، خير دليل على صدق أقوالهم ، وإلا لاختلفوا ونسب كلًا منهم الكتاب الى نفسه. إضافة لذلك - حين العودة الى نظرية (لا أثر للمعدوم) - فتكرار الفعل على مرّ الأزمان - أي ظهور شخصيات مؤسسو الأديان - لهو دليل على أنها عملية مادية حقيقية، حيث لا يمكن اعتبار هذا التكرار مجرد صدفة اتفق عليها رجال دين لا يعرف بعضهم بعضًا عاشوا في أزمنة مختلفة، بل ويخالف أحدهم الآخر في آراءه. ثم إن مؤسسو الأديان التوحيدية العالمية، متحدون بنسبة دعواتهم لمرسلٍ واحد، ولا قدرة لهم على رفض هذا التكليف أو التخلي عنه، ناهيك عن تبشير وتصديق أحدهم الآخر رغم اختلاف أزمانهم وتباين شعوبهم ومناطقهم الجغرافية ولغاتهم . فهل يمكن اعتبار كل ذلك من قبيل المصادفة أو نوعًا من الكذب أو فيه شيء من البطلان؟

وهنالك أمر آخر، هو قوة روح الدين العجيبة التي تغرس في قلوب أتباعه حالة من التعلق الشديد فيستمروا في المحافظة على أحكامه وتاريخه طوال قرون ودهور، مثلما نرى هذه الحالة مع أقدم أتباع أديان المندائية والإيزدية والبوذية والهندوسية والزرادشتية واليهودية وغيرها؟ أليس ذلك دليل على وجود قوة حقيقية لروح الأديان وتأثيراتها على نفوس البشر؟ من له عين فلينظر.

يقول عجبًا:- *(**ربما** لو كررت شيئًا بشكل كاف، فإنك ستنجح بإقناع نفسك بأنه حقيقي).*[1]

1 صفحة 358.

نحن الآن نناقش آخر بقايا برميل أفكاره . ولا يمكنني إلا الضحك مليًا من هذه المقولة. كيف يمكن تمرير فكرة خاطئة الى العقل و الاقتناع بها بعد تكرار التفكير بها دون وضعها تحت مجهر التدقيق؟ كيف لعاقل بعد اقتناعه بضعف أو سخافة أو تفاهة فكرة، أن يعود لتكرار بحثها؟ كيف لي على سبيل المثال: أن افترض أو أكرر مناقشة أن الجزء يملك صفات أكثر من الكل؟ وكيف يكون واحد زائد واحد يساوي خمسة حتى لو كررت التأمل مئات المرات! إن إعادة التكرار سيكون نوعا من الجنون والخبل، فطالما ظهرت الحقيقة وثبتت فلا يتبقى مجال للشكّ ولا موجب لتكرار التفكير. فالمجرب لا يُجرب .*

بعد أن قاربنا على مناقشة مجمل كتابه، يعود المؤلف في آخر صفحاته للأعراب عن عدم ثقته بما يقدمه من آراء وأفكار، مع العلم أنه قد سبق وكرر ذلك كلما واجهته معضلة فلسفية. فنقرأ له:- *(على أي حال، فإن فرضيتي **مبالغ فيها بل وخاطئة. لا أملك** أي أدلة على أن الملحدين لديهم أي ميول عامة نحو البؤس أو قلق مليء بالندم. بعض الملحدين سعداء. آخرين بؤساء. وبصورة مماثلة فإن بعض المسيحيين، اليهود، المسلمين، الهندوس والبوذيين تعساء بينما آخرين منهم سعداء).*[1]

علينا أن نعلم - كما سبق وقلنا - إن الأديان والمعتقدات هي مخلوقات معنوية تخضع مثلما هي الأفكار والنظريات لقانون الولادة والحياة والموت، فهذا قانون عام يشمل عملية تطور العقل البشري. فمتى ما كان الدين حيّ، كانت نسبة سعادة أتباعه واضحة بانتمائهم اليه، ومتى ما توفي الدين، تبدأ هذه النسبة بالتناقص حتى تضمحل تقريباً ولا يتبقى منها إلا الأوهام والطقوس والتقاليد، فالأديان دواء

1 صفحة 358.

محيي ومنعش للأرواح، مثلما هو العقار دواء يحفظ قوة الأجساد ويجددها، وللإثنين وقت بداية وانتهاء لمفعولهما، فإذا أخذا بعد فترة الانتهاء، تحوّلا بلا شك الى ضرر أو سمٍّ قد يكون قاتلا لأجساد وأرواح الأفراد والشعوب. وهكذا يكون الدين مؤثرًا في مقادير السعادة والحزن والقلق تجاه مجريات الحياة.

إن من علامات موت الأديان، انتشار فكرة الإلحاد وعدم الثقة لا برجالها ولا بما تقدمه من مفاهيم روحية. فالإلحاد هو البديل لشغل فراغ موقع الأيمان، حيث يلاحظ على أتباع الأديان القديمة ارتخاء قبضة الإيمان عن قلوب غالبيتهم، لكنهم يحاولون التمسك بقشورها والتظاهر بتأثيرها، حيث لا يعودوا مهتمين بما يحض عليه رجل الدين من مُثل أخلاقية أو صفات حسنة، فأفعاله تخالف أقواله. أما ما نجده من مظاهر التمسك بالدين عندهم، فيمكن تعليله لوجود مشاعر الضعف وقلة العدد وضرورة التوحد أمام تعصّب بقية أتباع الأديان الكبيرة، أو للمحافظة على التراث الديني أو لإثبات هوية ووجود، وفي غالب الأحيان بسبب الجهل أو التعصب الديني . لكن كل ذلك لا يعني وجود حياة روحية حيّة للدين بقدر ما يعني أنه تقليد وتظاهر، فعقلائهم ورجال دينهم لا يجدون سبيلاً لتوحيد كلمتهم وصفوفهم إلا في الدعوة للتمسك بما تبقى من أسمال الطقوس، فالسمة العامة هي التظاهر بسعادة تأثير أديانهم على قلوبهم إما جهلًا أو توهمًا أو تقليدًا، دليل ذلك عند وقوع أحدهم في بليّة أو رزيّة، يسمع منه أنواع التجديف والجحود، ويتساءل متذمرًا:- (أين الله؟ لماذا لا يمد يده لمساعدتي؟). ومثل هذه الأسئلة لا تقتصر على أصحاب الأديان القديمة فقط، بل تُسمع كذلك من أتباع الديانات الكبرى، وهي حالة تتوسع وتنتشر بنسبة كبيرة مع ازدياد نسبة العلوم المادية والإلحاد بعد انحسار تأثير الثقافة الروحية لجميع الأديان. لذلك فمقياس نسبة

مشاعر السعادة والبؤس عند المعتقدين بدين أو عند الملحدين، هو أمر أصبح متعلقًا بمجريات ظروف الحياة وبالدرجة الأولى الحالة الاقتصادية، فالفقر يؤدي بالمجمل الى التذمر والتعاسة والبؤس وقلّة الحيلة ودخول عالم الجريمة في بعض الأحيان، كما يؤدي الغنى الى نسبة من الراحة والسعادة . من كل هذا لا يمكن وضع ميزان دقيق لعموم الناس في قياس حالات الفرح والسعادة أو البؤس والاكتئاب وتحديد علاقتها حصرًا بالدين والإيمان ووجود الله تعالى .*

يتكرر استشهاده بما ليس له توثيق ولا اسناد، فيأتي على مثال فردي رصدته كبيرة ممرضات في دار عجزة، حيث من الطبيعي أن تكون نسبة الوفيات فيه بدرجة كبيرة، فيقول نقلا عن لسانها:- *(لقد لاحظت عبر السنين بأن الأفراد الأكثر خوفاً من الموت هم المتدينون).* ثم يكمل مستنتجًا ضعف قوة الأديان على طمأنة النفوس، فيقول:- *(مهما كان الأمر فإنه لا يدعم قدرة الدين على طمأنة المحتضرين).!*[1]

إن الموت فكرة تخيف الكثير من البشر لا فرق بين متديّن أو ملحد، طالما علموا أن مرحلة ما بعد الموت مجهولة. ونعود للقول: لماذا لا نفسر سبب ارتباك المتدينين ورهبتهم هو علمهم باقتراب موعد انتقالهم الى عالم آخر يجهلون عنه كل شيء ، فيزيد ذلك من ضغط ذكريات أحداث حياتهم. حيث من المعلوم أنه كلما اقترب الانسان من أرذل العمر، تزداد خواطر سلسلة ذكريات ماضيه ويزداد توارد خواطرها قوة وضغطًا على الذهن وتتضخم على فراش الاحتضار خشية الجزاء وسوء العاقبة ما دامهم يؤمنون بأديان

1 صفحة 363.

إلهية وعوالم روحانية تالية. لذلك نرى المؤمن أكثر قلقًا خشية فشله في محصلة نتائج أفعاله الدنيوية.

يقول:- *(الكاثوليكيين ربما يخافون حياة البرزخ).*[1]

فكرة البرزخ ليست خاصة بأمة الكاثوليك فقط، فالمسلمون وغيرهم يعتقدون بها أيضًا. ولقد وصلنا مفهوم البرزخ بشكل خاطئ من تفاسير رجال الدين على انها فترة زمنية بين لحظة الوفاة وبين قرار صدور حكم حساب يوم القيامة النهائي. وما يفنّد هذا المفهوم أن الله العادل الرحيم لا يعاقب الانسان مرتين على ذات الجرم، فإما حساب في حياة البرزخ أو في يوم القيامة. بل حتى قضاة البشر لا يعاقبون الانسان على ذات الجريمة مرتين . وطالما أن فكرة البرزخ هي من تفاسير رجال الدين، بينما يوم الحساب منصوص عليه في الكتب المقدسة، وبما أن لا أثر للعذاب والحرق والثعبان الأقرع في القبور والمدافن، لذلك ليس هناك ما يؤكد وجود مفهوم البرزخ، بل يمكن نفي ذلك تماما.

يعود الى فكرة دينية توافق أفكار عهد صبينة البشرية ليستند عليها في تفنيد أصل الدين. فيقول:- *(إن التلقين عن حياة البرزخ يكشف لنا لا معقولية بنية الفكر الديني).*[2]

بالفعل. إنها فكرة لا معقولة تخالف رحمة الله الواسعة بالمجمل. إذ ليس من المعقول أن نأتي الى هذا العالم مرغمين ونحشر في مجتمعات متخلفة فقيرة تنتشر فيها أنواع الخطايا والجرائم وبين أقرباء أكبرهم جاهل وأذكاهم أميّ، أو نولد تحت رعاية أبوين عاشا تحت ضغوط نفسية وعصبية وحالة إملاق وعوز، أو نعيش حياة نقضي معظمها في النوم والعمل وضغوط متطلبات الحياة، ثم

---

1 صفحة 363.
2 صفحة 363.

يحاسبنا الله تعالى على نتيجة تصرفاتنا المجبرين عليها دون رحمة. فإن عَقلنا وصدّقنا فكرة البرزخ، فهو ظنٌّ يخالف رحمة الله تعالى ولطفه، فالله تعالى لن يفعل مثل هذا الظلم أبدا، حاشى له إلا أن يكون رحيماً بعباده ومخلوقاته، (رَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ).[1]

إن فكرة البرزخ التي ينتقدها بقوله:- *(شكلٌ من أشكال دائرة استقبال المهاجرين الإلهية، غرفة انتظار لأرواح الموتى ذوي الذنوب التي لا تكفي لإرسالهم مباشرة للجحيم ولكنهم لا يزالون مُحتاجون للتطهير والفحص قبل أن يتم إرسالهم الى الجنة الخالية من الذنوب).*[2]

من المؤكد أنها فكرة اقتبسها صاحبنا من شروحات رجال الدين، ولا يجدر نسبتها الى الله تعالى أعدل العادلين. كيف؟ لنفكر بأعداد البشر الذين عاشوا على الأرض، إنهم مليارات المليارات، وغالبيتهم ماتوا منذ أزمنة بعيدة جدًا. فهل يعقل أن تتركهم العدالة الإلهية ينتظرون محشورين تحت طبقات التراب في تلك الأماكن الضيقة المظلمة طوال آلاف وملايين السنين بانتظار حساب يوم القيامة، بينما ينتقل للحساب فوراً ودون فترة انتظار من هو على قيد الحياة حال قيام الساعة والحساب؟ إن هذا ليس من العقل الراجح في شيء ولا من العدل الإلهي. يؤكد ذلك، قوله تعالى:- (وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ).[3] فهذه الآية الكريمة تقول أن الحساب يتم فرديًا وليس جماعيًا ، ويتم حال وفاة الانسان دون فترة انتظار في برزخ أو لحد أو صندوق أو غير ذلك. وهناك آيات أخرى كثيرة ومكررة

1 سورة الأعراف 156.
2 صفحة 363.
3 سورة الأنعام 94.

تؤكد سرعة حساب أرواح البشر حال وفاتهم:- (إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ).[1]

يأتي على وصف صكوك الغفران بأنها:- *(إحدى أبشع طرق النصب في التاريخ).*[2]

هذا رأي متفق عليه بين عموم العقلاء وليس هو أول من قال ذلك. فقد حصل خلال ثمانينات القرن العشرين في الحرب العراقية الإيرانية، أن وزّعَ رجال الدين في ايران على الجنود المُستغفَلين البسطاء مفاتيح الجنة ووعدوهم أنهم سيدخلون الجنة فور مقتلهم وسيفتحون بابها بهذه المفاتيح دون تأخير أو حساب باعتبارهم من الشهداء في سبيل الله. إن مثل هذه المفاهيم العقيمة التي واكب رجال الدين على تداولها، ما كان رواجها إلا بسبب انتشار الجهل.

يقدم وجهة نظره في الحياة:- *(حياتنا مفعمة المعنى، مليئة ورائعة بقدر ما نختار لها أن تكون. ونستطيع بكل تأكيد أن نجعلها رائعة جداً).*[3]

هذا كلام غير واقعي نابع من رؤية شخصية وظروف خاصة يصلح للقصص الرومانسية فقط. إن ظروف الحياة وتقلباتها لها أكبر الأثر في مسيرة حياة الانسان وتوالي أحداثها، فمن ولد في مجتمع فقير جاهل، تقلّ أمامه حتمًا نسبة فرص النجاح والتوفيق، والعكس صحيح. ثم إن الرجل نسي أنه لولا وجوده في بلد غنيّ يحترم الانسان ويقدم للفاشل كل وسائل الدعم لينجح، لما وصل لما هو عليه. فكيف يمكن الظنَّ أن بإمكان الانسان تحقيق أحلامه وطموحاته بهذه

1 سورة آل عمران 199.
2 صفحة 364.
3 صفحة 366.

السهولة واليسر وباستطاعته التحكم في مجريات حياته ذاتيًا؛ فكم من انسان ذكيّ كُبّلت يداه وعقله ظروف اقتصاد بلده القاسية.

ينتقل لمناقشة فكرة فلسفية جديدة، عن قصر حياة الانسان، قال:- *(أوضحت مدى قصر الحياة نسبياً كبقعة ضوء تزحف على مسطرة زمن عملاقة. كل ما هو قبل وبعد تلك البقعة يقع في ظلام الماضي الميت او المستقبل المجهول... إن معرفتنا بأننا نملك حياة واحدة فقط يجعلها أعظم قيمة).*[1]

هذه فكرة عامة تنتشر بين جميع البشر، حيث أن قانون الطبيعة المادي لا يسمح بالعودة لمن مات الى الحياة. وهذه الفكرة تؤكد على ضرورة الانتباه بأن هذه حياة الدنيا ليست الهدف الحقيقي من وجود الإنسان، طالما تمتلئ بالمصاعب والمتاعب ونأتيها ونخرج منها مجبرين. وقوله هذا، يذكرنا بنظرية الأضداد بين الأشياء مرة أخرى، فقصر الحياة دليل على وجود "طول حياة"، ووجود الجسد المادي دليل على وجود "الروح" المعنوي، والمحسوس دليل على وجود "الغيبي"، بل إن وجود حالة النوم دليل بأن غاية وجود الإنسان في هذا العالم المادي ليست الهدف النهائي لما يستغرقه النوم من فترات طويلة تشمل قرابة ثلث مدة الحياة، ناهيك عن متطلبات الحياة الأخرى المختلفة وفترات الأعياء والضعف والمرض وأداء الأعمال والمهن. فبحسبة بسيطة نحن لا نتمتع من الحياة بحالات سعادة وراحة إلا بضعة سنين أو شهور، وبذلك لا بد أن يكون هناك غاية وهدف آخر لهذه الحياة، وأن هناك حياة أخرى طويلة خالدة، وإلا فلا قيمة للحياة في هذه الدنيا مع ما يملئها من بلايا ومحن، ولا يمكن أن تكون الحياة فكرة عابرة مسلية مرت على العقل الأعظم.

---

1 صفحة 367.

قال:- *(**لو** أن موت الله سيترك خلفه فجوة، فإن كل أمرؤ سيملؤها بطريقته الخاصة).*[1]

عاد في آخر الكتاب ليكرر ما لم يستطع اثباته خلال اربعمائة صفحة. وهنا نراه وقد استعان بفكرة الفيلسوف نيتشه في مقولته الشهيرة التافهة "موت الإله". إن البشر خلقوا بمستويات عقلية متباينة تتدرج من البليد الى العبقري ، ومن الخطأ القول أن يترك كل إنسان ليبحث عن جواهر دقائق العلوم وغاية الوجود بنفسه، فمثل هذه الأمور المعقدة خصّت بها عقول الفلاسفة والنخب الحكيمة. وهناك أمر آخر، فطالما اتفق جميع علماء الحضارات والاجتماع على أن الأديان كانت موجودة منذ ظهور الوعي البشري، وأثبتنا أن الانسان لا يمكنه استجلاب فكرة غير موجودة (معنوية) بقوة حواس جسده المادية، خاصة في الأزمان البدائية. من هنا كان لا بد من وجود وسيط امتلك صفات وقوى روحانية عالية لنقل الأفكار المعنوية والروحية من عالم الغيب الى عالم الشهود ، وما كان هؤلاء إلا من اشتهروا عبر التاريخ بتقديم المعتقدات الغيبية والأديان الروحية للبشر، كالآلهة والأنبياء والرسل الذين ملئوا فراغ الروح بمعتقد الأيمان. وبهذا فلو لم يكن الأيمان بالله موجودًا، فلن يملأ هذه الفجوة الروحية، إلا الأوهام والسراب.

يقول:- *(طريقتي الخاصة تحتوي على جرعة كبيرة من العلم، المسعى الأمين والمنتظم للوصول الى الحقيقة عن العالم الحقيقي).*[2]

كلنا نؤمن أن العلم نور حقيقي للعقل والروح، فهذا ليس ببدع سرٍّ يذاع من المؤلف . لكنا لم نجد في جميع صفحات كتابه ما ساعده

1 صفحة 367.
2 صفحة 367.

على هذا التبجّح ، ولو كان ذلك حقًا، لما سعى لتقديم نصف الحقيقة وحجب نصفها الثاني.

قال:- *(كلٌ منا يبني في رأسه نموذجاً للعالم الذي نحن فيه. النموذج الأصغر للعالم هو النموذج الذي احتاجه أسلافنا للبقاء في عالمهم).*[1]

من الطبيعي أن سعى الأسلاف الى بناء نماذج صغيرة للحياة، استنادًا الى ما أحاطهم من ظروف طبيعية محدودة قاسية. لكن تلك الأحوال ذهبت أدراج التاريخ الذي بدأ يعلن بصراحة ووضوح ضرورة إقامة كيانات اجتماعية كبيرة منظمة، فقديمًا انتقل البشر من حالة الفردية الى العائلة، ثم العشيرة، ثم القبيلة والى المدينة ثم الدولة ثم تأسيس كبريات الإمبراطوريات العالمية. ونحن اليوم بأمس الحاجة للتقدم خطوة رزينة أخرى الى أمام لتحقيق مبدأ "اتحاد الجنس البشري" تحت شعار دولة عالمية واحدة وحكومة عالمية واحدة وبرلمان حكماء عالمي واحد ولغة عالمية واحدة الى جانب اللغات الأم، تجمع تحت رايتها دول العالم وحكوماتها لتحافظ على حقوق الشعوب من ظلم وجور وسوء تصرف حكوماتهم. إنها المسيرة التاريخية المتوقعة لتطور البشر الذي لم نشاهد ثماره بعد.

قال:- *(الانتخاب الطبيعي قام ببناء برنامج للمحاكاة وطهره من فيروساته وجعله متأقلماً مع العالم المحيط بأسلافنا في الأحراش الأفريقية).*[2]

هذه مغالطة أخرى، فالبشر لم يظهروا من منطقة محددة على الأرض في أفريقيا على سبيل المثال، بل ظهروا من جميع تربتها في كل مكان، كما هو حال النباتات والحيوانات. كما إن الطبيعة لا إرادة

---

1 صفحة 367.
2 صفحة 367.

ولا عقل لها حتى تفكر وتنظم نفسها. حاول أن تترك مزرعة جميلة دون عناية بستاني، وستجدها بعد فترة قليلة منطقة أحراش وزؤان ونباتات بريّة لا فائدة منها؛ واترك طفلاً دون تربية واعتناء وستحصل على مخلوق شرس في مجمل تصرفاته. فالتأقلم مع الطبيعة ومسايرتها لم يأت إلا من خلال تربية الشامان والآلهة والأنبياء.

قال:- *(دعوني أرسم صورة أخيرة لإيصال فكرة قوة العلم للارتقاء بالوعي ومنح السلام للنفس).*[1]

لا يختلف اثنان في مقدار فائدة العلم للبشر، فلقد كان هو الهدف الأول للإنسان منذ ظهور مَلَكة الوعي لديه، ولا حاجة لمن يخبرنا اليوم ويذكِّرنا بمقدار فائدة العلم في ارتقاء البشرية، فأصغر طفل في أقصى الأرض يسعى لمزيد من العلم في كل دقيقة من حياته. أما أن يمنحنا العلم السلام للنفس، فهذا أمر بحاجة الى وقفة وإعادة نظر، حيث بالعلم أيضا، صَنع الانسان مختلف أنواع الأسلحة المدمرة، وبالعلم ظهرت آفة كبريات حيتان الشركات العالمية وشركات النصب والاحتيال، وبالعلم ازداد عدد الأثرياء وزاد عدد الفقراء، وبالعلم ازدادت عمليات النصب والاحتيال، وبالعلم انتجت سموم المخدرات وبُنيت لها مختبرات متطورة، وبالعلم قامت الحروب ودمرت المدن وهلك البشر، وبالعلم يختلس السياسيون ورجال الدين أموال شعوبهم، وبالعلم تنتشر البضائع المغشوشة ويجني بعض رجال الأعمال أموال السحت، وبالعلم يستغل النصابون فاقدو الضمائر البسطاء والمساكين، وبالعلم تنتشر العلوم المضرّة، وبالعلم يستولي المدلسون على أموال الناس، وبالعلم يُرسل الشباب الى

1 صفحة 367.

ساحات الوغى ليقتلوا تحت شعارات زائفة، وبالعلم تُستغل المرأة وتقصى عن مجالات العلم والعمل لتحبس في بيتها كقطعة أثاث ويُملأ عقلها بالخرافات، وبالعلم يسيطر رجال الدين على عامة الجهلاء لقيادتهم كالأنعام، وبالعلم يمكن نشر الرذيلة والمفاسد، وبالعلم تمنع الحكومات مناهج التطوّر الفكري عن شعوبها لتبقيها جاهلة غافلة، وبالعلم أسقط برجيّ نيويورك ودمرت آلاف الأسر المسالمة، وبالعلم دمر العالم بحربين عالميتين وقتل ملايين البشر... هذا وغيره الكثير من الأحداث المأساوية سببها العلم. فالإنسان لا يرقى بالعلم وحده يا سيدي، والعلم لا يمنح السلام والطمأنينة للنفس والمجتمع، بل بالأخلاق الحسنة والتربية النبيلة النابعة من الضمير وبالتالي من الأديان.

*****

من صفحة 368 حتى نهاية الكتاب تكلم عن الفيزياء الكونية والذرية في مسائل شرحها من قبله ذوو الاختصاص بشكل أفضل وبتفصيل أكثر دقّة في كتب الفيزياء والفلك.

******

في نهاية هذا الكتاب، لا بد أن نزيّن نهايته بالقصة الرمزية الرائعة عميقة المعاني التي ورد ذكرها في الإنجيل الجليل حيث من الضروري أخذ العبرة منها، فهي تلخص مجمل مسيرة حياة البشر الروحية ومستقبلها وعلاقته بالله تعالى:

(« اسمعوا مثلا آخر : كان إنسان رب بيت غرس كرما، وأحاطه بسياج، وحفر فيه معصرة، وبنى برجا، وسلمه إلى كرامين وسافر. ولما قرب وقت الأثمار أرسل عبيده إلى الكرامين ليأخذ أثماره . فأخذ الكرامون عبيده وجلدوا بعضا وقتلوا بعضا ورجموا بعضا . ثم أرسل

أيضا عبيدا آخرين أكثر من الأولين، ففعلوا بهم كذلك. فأخيرا أرسل إليهم ابنه قائلا: يهابون ابني! وأما الكرامون فلما رأوا الابن قالوا فيما بينهم: هذا هو الوارث! هلموا نقتله ونأخذ ميراثه! فأخذوه وأخرجوه خارج الكرم وقتلوه . فمتى جاء صاحب الكرم، ماذا يفعل بأولئك الكرامين؟» قالوا له: «أولئك الأردياء يهلكهم هلاكا رديا، ويسلم الكرم إلى كرامين آخرين يعطونه الأثمار في أوقاتها»... لذلك أقول لكم: إن ملكوت الله ينزع منكم ويعطى لأمة تعمل أثماره.)[1].

وبهذا المثال السديد فليتفكر المؤمنون والعاقلون.

وصلنا الى آخر الصفحات في الرد على كتاب ريتشارد دوكنز "وهم الإله"، وكان من الأجدر به أن يطلق عليه اسم (أحكام الكتاب المقدس لا تصلح لهذا اليوم) لكثرة تركيزه على مهاجمته.

ولكن النقطة النهائية والجديرة بالذكر، أنني لم ألحد، وبقيت راسخًا على أيماني بالله تعالى، وفشل دوكنز ومترجم كتابه في تحدّيهما، وظهر أن حقيقة كل ما أثير من دعاية حول كتابه كان مجرد **وهمٌ وسراب.**

لذلك من واجبي في المقابل، دعوته وغيره من الملحدين الى الأيمان بالله تعالى.

انتهى

1 متى 33-43.

الخاتمة

أشرنا في مجمل صفحات الكتاب، أن القرن التاسع عشر امتاز بتفجّر ثورة فكرية جارفة شملت جميع شعوب الأرض ، وعلى الخصوص شعوب الأمم الغربية، فكان قرن ظهور مختلف أنواع النظريات والعلوم والمخترعات الحديثة؛ هذا التطور العلمي العظيم كشف عجز ما ينتشر اليوم من عقائد دينية في تقديم حلول لمشاكل البشرية، مما أوجد مجالًا لتبنّي فكرة الإلحاد على اعتبارها حلًا بديلا لشغل موقع ما تركته الأديان من فراغ أخلاقي في قلوب البشر وعقولهم غافلين عن خطورتها وما ستؤول اليه نتائجها من بلاء.

وانطلاقًا من مشاعر الأخلاق ومحبة الإنسانية ومن دوافع المسؤولية الذاتية، جاءت المشاركة بهذا الكتاب عسى أن يلقي قبسًا من نور على بعض جوانب خطورة فكرة الإلحاد والتحذير من انتشارها.

لقد ركّز السيد دوكنز في مجمل كتابه على مهاجمة نصوص الكتاب المقدس "التوراة والإنجيل"، باعتبارها قوانين شريعة لم تعد تصلح لهذا الزمان، واعتبره هدفًا لتوجيه سهام النقد في مجمل كتابه. أما عن الديانة الإسلامية، فلم تتجاوز إشارته إليها بضعة فقرات بسبب قلة اطلاعه عليها.

لقد اعتمد الدكتور دوكنز اسلوب المواربة وحجب الضوء عن الحقائق، باعتباره يروج لهدف يخالف مناهج الفلاسفة والحكماء والمفكرين، وكانت طريقة ملتوية لا تليق بعالِم بهذا الحجم، كما لا

يمكن قبول تركيز بحثه على الكتاب المقدس دون غيره من بقية كتب الأديان اللاحقة.

مثل هذا السبيل المشوّه في طريقة العرض، يطعن في جوهر فكرة "الإلحاد" ذاتها ويكشف عريها، فلو كانت فكرة سليمة تستند على دلائل فلسفية وعلمية، لما كان هناك موجب لستر أمرٍ وكشف آخر. فمثل هذا التصرف بحد ذاته، يهدم جذور فكرة الإلحاد من أساسها.

إن خلو الساحة العالمية من فكر جديد أو منهج ديني سليم، لا يدعو لركوب موجة الفوضى والإلحاد وتقديم ما يسهم في زيادة إرباك العقل البشري، بل المطلوب عكس ذلك، حيث نرى اجتهاد فلاسفة الأرض وعلمائها على إيجاد منهج حكيم لوقف تدهور حضارة عالم اليوم، وما يمنعهم عن ذلك، عجزهم عن ابتكار منهج جديد يقف ندّاً أمام سعة حجم مشاكل العالم العصرية. لكن هذا العجز لا يدعونا لاستغلاله والاصطياد في المياه العكرة على حساب فقراء العالم ومظلوميتهم وتقديم المزيد من الأفكار المخربة، فالدعوة لفكرة الإلحاد الفوضوية ستزيد مجتمعات العالم ارباكًا وتبعدهم عن مصادر الرحمة ومبادئ الأخلاق الحقيقية ، وتزيد الفقراء ضعفًا وفقراً، والأقوياء قوة وغنى.

إن البشرية في وضع عسير لم يسبق أن مرت بمثله منذ أن وجدت على الأرض، وهي بحاجة ماسة الى فكر أخلاقي جديد ينقذها مما هي فيه من مآسي وبلايا ليوفر لها الأمن والأمان ويضمن لأبنائها مستقبل مناسب لبناء حضارة العالم الجديدة. أما السعي لزجها في نفق الإلحاد المظلم ، فهذا أبعد ما تحتاج اليه أجيال المستقبل، وهو أبعد ما يكون عما سعى لبنائه أنبياء الله وفلاسفة البشر منذ فجر اشراق شمس الوعي البشري.

المصادر

1. قرآن كريم.
2. الانجيل الجليل.
3. التوراة.
4. "كنزا ربا". الكتاب المقدس للصابئة المندائيين. القسم اليمين. ترجمة الدكتور يوسف متي قوزي. والدكتور صبيح مدلول السهيري. 2000م.
5. أفكار وآراء . تأليف: البرت أينشتين. ج 1. ترجمة: د. رمسيس شحاته. الهيئة المصرية العامة للكتاب. 1986.
6. الداروينية الجديدة. صانع الساعات الأعمى. تأليف: ريتشارد دوكنز. ترجمة: د. مصطفى إبراهيم فهمي. دار العين للنشر. الطبعة الثانية 2002.
7. أسرار الفيزياء الفلكية والميثولوجيا القديمة. س. بريوشينكين. ترجمة: د. حسّان مخائيل اسحق. منشورات دار علاء الدين. الطبعة الأولى 2006.
8. قصة الحضارة. ويل ديورانت. ج 1.
9. تاريخ البشرية. آرنولد توينبي. ج 1. نقله الى العربية الدكتور نقولا زياده. الأهلية للنشر والتوزيع. بيروت 1988.
10. مختصر دراسة للتاريخ. آرنولد توينبي. ج1. ترجمة فؤاد محمد شبل. 2011. المركز القومي للترجمة.
11. كيف وجدت الآلهة. دراسة في المادية التاريخية. جون كيرتشر. ترجمة إبراهيم جركس. شيكاغو 1929.

12. آرنست رينان. حياته، آثاره، فلسفته. تأليف أندريه كريسون. ترجمة: ميشال أبي فاضل. الطبعة الأولى 1977م. المؤسسة العربية للدراسات والنشر.
13. نظرية المعلم. سيفي سيفي. دار الرافدين. 2019.
14. ما بعد الحياة. كولن ولسن. ترجمة محمد جلال عباس. دار الآداب.
15. أعاجيب الكون السبعة. جيانت نارليكار. تعريب الدكتور داود سلمان السعدي. دار الحرف العربي - بيروت. الطبعة الأولى.
16. الحياة ما بعد الموات. ريموند مودي. La Vie Apres La Vie . ترجمة: موريس جلال. دار الرائي للدراسات والترجمة والنشر. الطبعة الأولى. 2008.
17. الدقائق الثلاث الأولى من عمر الكون. ستيفن وينبرغ. ترجمة محمد وائل الأتاسي. دمشق وزارة الثقافة. 1986.
18. الحضارات القديمة. ف. دياكوف. / س. كوفاليف. ج 1. ترجمة نعيم واكيم اليازجي. منشورات دار علاء الدين. الطبعة الأولى.
19. إسحق نيوتن والثورة العلمية. تأليف جيل كريستيانسن. تعريب مروان البواب. مكتبة العبيكات. الطبعة الأولى 2005.
20. تراثنا الروحي من بدايات التاريخ الى الأديان المعاصرة. سهيل بشروئي، ومراد مسعودي. ترجمة محمد غنيم. دار الساقي. 2011م.
21. اسبينوزا. رسالة في اللاهوت والسياسة. ترجمة د. حسن حنفي. الطبعة الأولى 2005. دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع بيروت.

22. ليسنغ. تربية الجنس البشري. ترجمة د. حسن حنفي. الطبعة الثانية 2006. دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع بيروت.
23. ديكارت. التأملات في الفلسفة الأولى. ترجمة عثمان أمين. المركز القومي للترجمة 2009. العدد 1297.
24. رينيه ديكارت. العالم أو كتاب النور. ترجمة أميل خوري. دار المنتخب العربي. الطبعة الأولى 1999م.
25. من تاريخ الالحاد في الإسلام. تأليف وترجمة د. عبد الرحمن بدوي. الطبعة الثانية 1993. سينا للنشر.
26. رسالة في التسامح. فولتير. ترجمة: هنرييت عبودي. الطبعة الأولى 2009. دار بترا للنشر والتوزيع.
27. سحر الواقع. كيف نعرف حقيقة الواقع. ريتشارد دوكنز. ترجمة: عنان علي الشهاوي. 2013. التنوير للطباعة والنشر والتوزيع.
28. العقد الاجتماعي. جان جاك روسو. ترجمة: عادل زعيتر. مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة. 2013.
29. العاقل. يوفال نوح هراري. ترجمة: حسين العبري. و صالح بن علي الفلاحي. دار منجول للنشر. 2018.
30. خوارق اللاشعور. أو أسرار الشخصية الناجحة. د. علي الوردي. دار الوراق للنشر. لندن. الطبعة الثانية. 1996.
31. الطاهرة أعظم امرأة إيرانية. المؤلفة: مارثا روت. طباعة الهند. Tahiria the Pure Iran's Greatest Woman. By: Martha L. Root. ترجمة كاتب السطور.
32. الخالدون المائة. مايكل هارت. ترجمة أنيس منصور.
33. أصل الأنواع. تأليف: تشارلس داروين. ترجمة: مجدي محمود المليجي. المشروع القومي للترجمة. الطبعة الأولى 2004.

34. الكون. تأليف: دكتور كارل ساغان. عالم المعرفة. 1993.
35. كوكب الأرض. نقطة زرقاء باهتة. تأليف كارل ساغان. ترجمة: د. شهرت العالم. عالم المعرفة. 2000.
36. أبيقور. مؤسس المدرسة الأبيقورية. اعداد: الشيخ كامل محمد عويضة. الأعلام من الفلاسفة. دار الكتب العلمية. بيروت. الطبعة الأولى 1994.
37. كتاب مهزلة العقل البشري للدكتور علي الوردي - الطبعة الثانية 1994 - دار كوفان - لندن - صفحة 132.
38. ديكارت. التأملات في الفلسفة الأولى. 2009م. ترجمة عثمان أمين. المركز القومي للترجمة. العدد 1297.

نبذة عن سيرة الكاتب

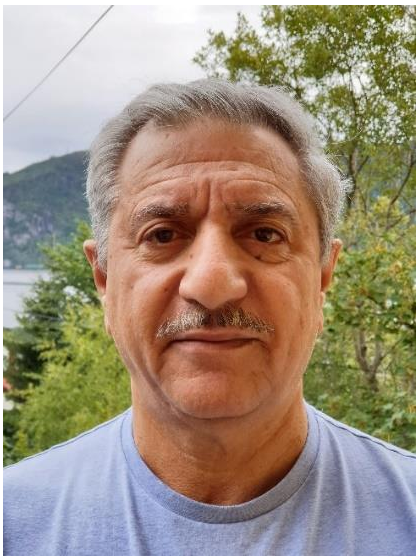

مواليد عام 1949م بغداد.

تخرج من الإعدادية المركزية في بغداد سنة 1968م.

درس القانون في جامعة بيروت العربية ثم انقطع عنها بسبب اندلاع الحرب الأهلية اللبنانية.

عمل في المطابع بمهنة "سابك سطور" في العديد من كبريات الصحف العربية في بغداد، الكويت، بيروت وأبو ظبي باللغتين العربية والانجليزية لأكثر من عشرين عامًا، وتفرغ للتأليف والترجمة منذ تسعينات القرن الماضي.

عمل في صنعاء بمهنة التجارة لعشرين سنة تقريبًا.

له عدة تراجم ومؤلفات مطبوعة وغير مطبوعة، آخرها "نظرية المعلم". مطبوع.

مقيم في مملكة النرويج.